المكتبة التاريخية

مقدمات

العدوان الصليبي على الشرق العربي

الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية

٩٦٩ - ٩٧٦ م

دكتور عمر كمال توفيق

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

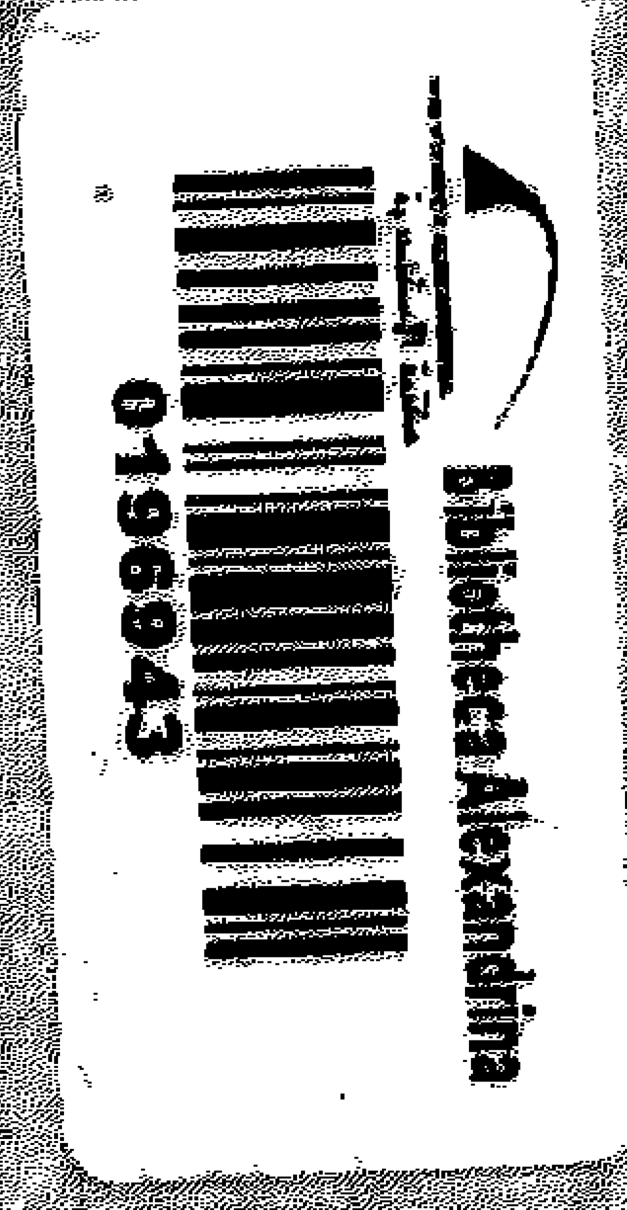
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

١٩٦٧



دار المعارف



مقدمات

العدوان الصليبي على الشرق العربي

الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية
(٩٦٩ - ٩٧٦ م)

دكتور عمر كمال توفيق
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

١٩٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذه تذكرة فمن شاء إتخذ الى ربه سبيلا »

« المزمل ، ١٩ »

مقدمة الطبعة الثانية

بعد شهور قليلة من إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب وما قابله به القارىء العربى الكريم من إهتمام ، نفـــذت كافة أعداد تلك الطبعة . وقد طلب منى إصدار طبعة ثانية لسد احتياجات الراغبين فى الاطلاع على الكتاب .

وكان مما دفعنى على المبادرة بإعداد الطبعة الثانية ، طبيعـة موضوع هذا الكتاب من ناحية ، وتلك المرحلة الدقيقة التى يمر بها وطننا العربى العزيز من ناحية أخرى بعد العدوان الغاشم الأخير . ففى حين أن الكتاب يخص حقبـة هامة فى تاريخ العصور الوسطى ، فإنه فى نفس الوقت عبارة عن دراسة تحليلية دقيقة لمقدمات العـدوان الصليبى وبداية الحركة الاستعمارية الأوربية فى الشرق العربى . وأرجو أن يجد القارىء فى تجاربنا السابقة عبرة وعظة تساعدنا على مواجهـة مشاكلنا الحالية والتغلب على تربص العدو بنا .

وسيلمس القارىء فى هذه الطبعة الجديدة عدة تغيرات على شكل تنقيح بعض الأجزاء وإضافات جديدة . والله أسأله السداد ؟

المؤلف

سبتمبر ١٩٦٧

مقدمة الطبعة الأولى

كانت منطقة الشرق الأدنى الاسلامى العربى هدفا للأطماع الأوربية فى مختلف العصور . فقد تعرضت لمحاولات عديدة قام بها الأوربيون لإخضاعها واستعمارها فى العصور القديمة والوسطى والحديثة . وكانت الظاهرة الرئيسية للعدوان الأوربى على هـــذه المنطقة فى العصور الوسطى ، هى الحركة الصليبية . وفى تتبع دراسة هذه الحركة ، أهتم غالبية المؤرخين المحدثين بالدور الذى قامت به شعوب غـرب أوربا تحت زعامـة وتوجيه البابوية ، لاسترجاع الأراضى المقـــدسة من أيدى المسلمين ، ولهم فى ذلك دراسات مستفيضة .

وقد بدأ بعض المؤرخين المحدثين يتنبهون لأهمية عدوان البيزنطيين — أو الروم على حد تعريف العرب لهم — على المنطقة المذكورة ، فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوائل القـــرن الحادى عشر الميلاديين . وترجع أهمية هذا العدوان لسببين أساسيين . والأول ، وهو أن الامبراطورية بعد أن ظلت مضطرة لإلتزام الدفاع عن كيانها ضد المسلمين لمدة حوالى ثلاثة قرون ، أخذت تعمل على إعادة فرض نفوذها على الشرق . ويمثل الهجـوم البيزنطى فى المرحلة المذكورة ذروة الخطـــر البيزنطى بالنسبة للمسلمين فى الشرق الادنى . والسبب الآخر ، ويرجع إلى الخصائص الدينية التى ظهـرت أثناء الحملات التى قام بها بعض الأباطرة البيزنطيين حينئذ . وقد جعل ذلك عددا من كبار المؤرخين ينظرون اليها على أنها من نوع الحمـلات الصليبية اللاتينية ولها نفس الطبيعة وإستهدفت نفس الاغـــراض ، فضلا عن أنها سبقتها زمنيا . وقد أدى ذلك كله ، إلى أعتبار هذه الحملات البيزنطية بمثابة

مقدمات للعدوان الأوربى الصليبى على المنطقة المذكورة . وجدير بالذكر أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام المؤرخين بشكل كاف إلى الآن ، ولم تظهر فيه بعد دراسات وافية قائمة بذاتها سواء فى الشرق أو الغرب .

ونقدم هنا دراسة تحليلية للدور الذى أسهم به يوحنا تزيمسكس ،وهو أحد الأباطرة الذين وجهوا هـذا العدوان الصليبى البيزنطى إلى الشرق الأدنى ، هادفين أثناءه استرجاع الأراضى المقدسة . وقد عنينا فى هذه الدراسة بأن نوضح ماأحاط بسياسة يوحنا تزيمسكس الشرقية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وعوامل دينية ، مع الاهتمام بمقارنة حملاته على الشرق بالحملات الصليبية اللاتينية ، وبيان أوجه الشبه والإختلاف بينها .

وتطلبت هـذه الدراسة أن أخصص الفصل الأول منها لبيان حالة الامبراطوريه البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى، مع الاهتمام بتتبع مواطن القوة فيها ، الأمر الذى جعل من الممكن للامبراطور تزيمسكس وغيره من أباطره هذا العصر ، القيام بحملاتهم على الشرق الأدنى . وكان مما عنينا به عناية خاصة فى هـذا الصدد النظم الإداريه بالامبراطورية وكذلك الجيش حيث أنه كان الأداة الرئيسية التى أعتمـد عليها تزيمسكس فى تنفيـذ سياسته الخارجية .

وتناولنا فى الفصل الثـانى أصل الامبراطور تزيمسكس وحياته ونشاطه قبل اعتـلاء العـرش . ثم تعرضنا للظروف التى حصل فيها على العـرش الامبراطورى . واتبعنا ذلك بتوضيح أهم خصائص سياسته الداخليـة الخارجية . ومما أوليناه عناية خاصة علاقاته مع رجال الدين بدولته .

أما الفصل الثالث ، فعالجنا فيه أحوال المسلمين فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) وبشكل خاص المرحلة التى سبقت هجوم تزيمسكس . والواقع أن الباحثين فى هذا المجال لا تزال تواجههم عدة مشاكل فى تفهم طبيعة أوضاع المسلمين السياسية وما مروا به من أحداث تاريخية . وحاولنا أن نعطى صورة دقيقة للقوى السياسية الاسلامية المتصارعة . ومما أهتممنا ببيانه ، نشاط جماعات «الأحداث» و«العيارين» وتأثيرهم على مجرى الحوادث السياسية .

وخصصنا الفصل الرابع لتحليل العوامل التى أدت إلى قيام الهجوم البيزنطى على الشرق الأدنى فى عهد تزيمسكس ، وتتبعنا فى ذلك العوامل الدنيوية والدوافع الدينية . هذا ، وأولينا عناية خاصة لتوضيح موقف كنيسة القسطنطينية من فكرة الحرب المقدسة ، وتحليل أسباب موقفها السلبى منها .

ثم عالجنا فى الفصل الخامس موقف تزيمسكس من الشرق الأدنى فى المرحلة الأولى من حكمه قبل أن يقوم بحملاته الرئيسية ، واهتمامه حينئذ بالاحتفاظ بالمراكز الأمامية البيزنطية هناك لإستعمالها كنقط ارتكاز للحملات التى قام بها كما بينا خطورة الدور الذى قامت به قبائل بنى حبيب العربية التى كانت من المحالفين الذين عملوا فى خدمة البيزنطيين ضد المسلمين.

أما الفصل السادس فقد خصصناه لدراسة حملات تزيمسكس على العراق. واستدعى ذلك النظر فى المشاكل التى تحيط بتاريخ هذه الحملات بسبب اختلاف المؤرخين المعاصرين من عرب وبيزنطيين وأرمن فى تحديد عددها وترتيبها وانجازاتها ، الأمر الذى أدى إلى تضارب آراء المؤرخين المحدثين.

وانتهينا فى ذلك إلى آراء أوضحناها فى مواضعها الخاصة . كما عنينا ببيان طبيعة رد الفعل الاسلامى الذى حدث نتيجة للحملات البيزنطية على العراق.

وكان الفصل السابع والأخير ، خاصاً بدراسة الحملة الكبيرة التى قام بها تزيمسكس على الشام . وتتبعنا فى هذا الفصل خط سير الحملة ، والظروف التى تقدمت فيها ، وأهم ما حققته ، ومن ذلك الاتفاقية بين حكام دمشق والبيزنطيين . كما تعرضنا للمشكلة التى لازالت موضع إختلاف المؤرخين إلى الآن ، وهى الخاصة بتحديد مدى تقدم الامبراطور تزيمسكس فى الأراضى الفلسطينية وأنهينا هذا الفصل بتقدير نتائج تدخل تزيمسكس فى الشام والشرق الأدنى الاسلامى بصفة عامة .

هذا وأوردنا فى آخر الكتاب عدداً من الملاحق. والقسم الأول منها، ويتكون من وثائق ونصوص لها أهميتها فى هذه الدراسة بصفة خاصة ، ودراسة العلاقات بين أوربا المسيحية والشرق الأدنى الاسلامى بصفة عامة. ومن أهم ملاحق هذا القسم رسالة الامبراطور تزيمسكس للملك الأرمينى أشوط الثالث ، بعد أن أعددنا ترجمة عربية كاملة لها . وهذه الرسالة تعتبر من أهم مصادر دراسة موضوع العدوان الصليبى البيزنطى على الشرق . ويشمل القسم الثانى من الملاحق دراسات وتحقيقات متنوعة . ومما جاء فيه تحقيق إسم « إقليم أقور » الذى أطلقه بعض الكتاب المعاصرين العرب على إقليم الجزيرة فى شمال العراق . كما قدمنا تحقيقا لبعض الألقاب البيزنطية التى جاء ذكرها فى المصادر العربية المعاصرة مثل الزراورة والطراخنة والطراخة ، وبينا الأسماء التى عرفت بها فى الامبراطورية البيزنطية والمسئوليات التى إضطلع بها من حمل هذه الالقاب .

وإلى جانب الاعتماد على المصادر التاريخية المختلفة ، من عربيـة وغير عربية المتعلقة بهذه الدراسة ، أستعنا بما كتبه الرحالة والجغرافيون وخاصة المعاصرون منهم ، لتصوير حالة بلاد الشرق الأدنى وأهميتها وقت حملات تزيمسكس . والواقع أن بعض هذه الـكتب الجغرافية ، أمدنا بمعلومات قيمة مفيدة . وفضلا عن ذلك فقـــد حرصنا عند ذكر التواريخ الهجرية الهامة ، أن نضع ما يقابلها من التواريخ الميلادية ، لتسهيل المهمة بالنسبة للدارسين والباحثين فى تاريخ هذه الحقبة من العصور الوسطى بشطريها الاسلامى والأوربى .

وأرى أن مما يقتضيه الواجب، أن أسجل فى هذا المقام شكرى وإمتنانى للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ السابق بجامعة القاهرة ، والاستاذ جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الاسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . فقد كان الدكتور محمد مصطفى زيادة هو الذى أقترح على موضوع البحث الذى أقدمه هنا ، كما تفضل وزودنى بنصائحه العلمية المفيدة للتغلب على عـدد من الصعاب التى واجهتها . وكان الدكتور جمال الدين الشيال كريما عنـدما رجعت اليه لاستشارته فى عدد من المشاكل الدقيقة التى قابلتها أثناء كتابة الفصل الثالث من الـكتاب وهو « الشرق الادنى الاسلامى قبيل هجوم تزيمسكس . » ولم يضن على سيادته بالنصح وحسن التوجيه .

ولعل هذه الدراسة التى نضيفها إلى المـكتبة العربية تكون عبرة وعظة وذات فائدة للامة الاسلامية العربية ، وهى تواجه اليوم المحاولات الاخيرة التى يبذلها المستعمر الاجنبى للنيل من وطنها . فإن تفـــرق كلمة الاسلام

والعروبة والانصراف عن الصالح العام إلى المصالح الخاصة ، هو الذى مكن البيزنطيين والصليبيين اللاتين من بعدهم ، من وطننا فى العصور الوسطى . والواجب على كل أمة أن تستفيد من تجاربها وأخطائها فى الماضى لتتجنبها فى حاضرها ومستقبلها . وما أحوج الامة العربية اليوم لوحدة الصف والتكتل تحت القيادة الرشيدة ، لتسطيع أن تواجه بقوة ونجاح ما يحيق بها من أخطار . وقد جاء فى الكتاب الكريم : « ان هذه تذكره فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » .

عمر كمال توفيق

رمل الاسكندرية

أكتوبر ١٩٦٦

المحتـــوى

تمهيد

قبل أن يبشر البابا أوربان الثانى بالحروب الصليبية فى مجلس كليرمونت ويدعو لها فى غرب أوربا بأكثر من مائة عام ، قامت الامبراطورية البيزنطية بهجوم كبير ضد المسلمين فى الشرق الأدنى حاولت أثناءه استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة،وحققت فى ذلك نتائجا لها قدرها من الأهمية . وقد كان لهذا الهجوم من الخصائص المميزة ما جعل بعض المؤرخين المحدثين ينظرون اليه على أنه مرحلة مبكرة من العدوان الصليبى الأوربى سبقت تلك الحروب الصليبية التى قام بها غرب أوربا . ويقول المؤرخ الفرنسى رامبو عن حروب الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩ م) ضد المسلمين فى الشرق أنه : « بدأ باعماله هـذه عصر الحروب الصليبية بالنسبة للشرق والغرب على حـد سواء ، أى بالنسبة للهلينستيين والفرنجة».[1] وقد أسهم الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ـ٩٦٩) بدور له أهميته فى تنفيذ هذه السياسة البيزنطية.[2]

وكان من أبرز الأباطرة البيزنطيين الذين لعبوا دوراً كبيراً فى هـذا المضمار يوحنا تزيمسكس John Tzimiscès (٩٦٩ ـ ٩٧٦م) . ولقد لفتت جهوده فى محاربة المسلمين، ورغبته الأكيدة فى استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة ، والمشـاعر الدينية التى ظهرت أثنـاء حملاته الشرقية ، أنظار بعض كبـار المؤرخين المحدثين الذين أعتبروا هـذا الامبراطور رائداً من الرواد الأول للحركة الصليبية التى قامت أساسياً بغرض استرجاع الأراضى المقدسة. ومن أول هؤلاء المؤرخين مؤرخ الحروب الصليبية المعروف جروسيه الذى

---

(1) Rambaud, L.' Empire Grec aux dixième siècle : Constantine Porphyrogénètes (Paris, 1870) 436.

٢ ـ أنظر للمؤلف ، الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضى المقدسة (الاسكندرية ، ١٩٥٩).

أطلق على عمليات تزيمسكس ضد المسلمين فى الشرق عنوان «الحروب الصليبية البيزنطية فى عهد يوحنا تزيمسكس»[3].

أما فاسيليف فقد قال: «ان هذا الامبراطور لكى يحقق هدفه النهائى ألا وهو تحرير بيت المقدس من أيدى المسلمين، قام بحرب صليبية حقيقية»[4]. هذا ويتحدث أستر وجورسكى عن وجود «روح صليبية حقيقية» فى الحملة التى قام بها تزيمسكس على الشام[5]. وقد أضاف رانسيمان إلى هذه الآراء رأيه القائل بأن حروب تزيمسكس المذكورة ترقى إلى مرتبة الحروب الدينية[6].

ومهما يكن من شيء فإن هذه النظرة إلى الهجوم الذى قامت به الامبراطورية البيزنطية والذى هدفت أثناءه لإسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة، على أنه من نوع الحروب الصليبية الغربية، لم يكن أمراً قاصراً على المؤرخين المحدثين، فان وليام الصورى، اللاتينى مؤرخ القرن الثانى عشر الميلادى، عندما دون تاريخه عن الحركة الصليبية ومملكة بيت المقدس اللاتينية، قد ابتدأ كتابه بتاريخ الأراضى المسيحية المقدسة منذ القرن السابع الميلادى ذاكراً صراع هرقل ضد الفرس والدور الذى قام به لإسترجاع الصليب المقدس ومدينة بيت المقدس[7]. كما اعترف هذا المؤرخ بالدور الذى قام به بعض الأباطرة البيزنطيين الآخرين من أجل المسيحية فى الأراضى المقدسة

(3) Grousset, Histoire des croisades (Paris, 1934) vol. 1 pp. XVI — XX.

(4) Vasiliev, History of the Byzantine Empire (Madison, 1951), p. 310.

(5) Ostrogorsky, History of the Byzantine State (Oxford, 1956 Eng. trans. Hussey) p. 263.

(6) Runciman, A History of the Crusades (Cambridge, 1951) vol. I, p. 32.

(7) William of Tyre, History of Deeds Done Beyond the Sea (Eng. trans. Babcock & Krey) vol. I, p. 60.

فى فترات تالية مثل الامبراطور رومانوس الثالث وقسطنطين التاسع فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .(٨)

ومن الضرورى أن نشير فى هذا المقام للإختلاف الكبير بين ما أصبح يعرف باسم الحروب الصليبية البيزنطية ، التى لعب تزيمسكس دوره الهام فيها ، والحروب الصليبية التى قامت بها العناصر اللاتينية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى . ويرجع هذا الاختلاف إلى موقف كل من كنيستى القسطنطينية الأرثوذكسية وروما الكاثوليكية من هذه الحروب وتلك . ففى المجتمع الاوربى اللاتينى كانت الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابوية هى المسئولة عن قيام فكرة الحركة الصليبية وتنفيذها والإشراف عليها ، الأمر الذى جعل المؤرخين ينظرون إلى الحروب الصليبية على أنها سياسة خارجية للبابوية . فبالرغم من أن الدين المسيحى فى أصله كان دين سلام ، ونصت تعاليمه الاولى على أن الحروب ما هى الا مذابح عامة تزهق فيها الأرواح البشرية، الأمر الذى حرمه الرب ولم يرض عنه الآباء الأول للكنيسة المسيحية ، فقد تغير موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لمبدأ القتال على مر السنين . ووافقت هذه الكنيسة على مبدأ القتال على شريطة أن يكون لخدمتها وخدمة المسيحية . وقد حدث هذا التطور فى موقف الكاثوليك على أثر قيام دول مسيحية فى أوربا وضرورة الدفاع عنها ضد غير المسيحيين . بل لقد أخذ البابوات يشجعون الناس على الاشتراك فى الحروب الدينية التى بشروا بها ومنحوا من يشترك فيها امتيازات روحية ومادية . فمنذ منتصف

---

٨ — المرجع السابق ج ١ ص ٦٠ ، ص ٦٩ — ص ٧١ . والملاحظ أن وليام الصورى لم يذكر فى تاريخه الدور الذى قام به كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس فى التوسع فى الشرق وما حققاه من انتصارات جعلت البيزنطيين يطالبون بحق حكم ما استقر فى أيديهم من البلاد الشامية . والظاهر أن هذا المؤرخ تعمد أن يتجاهل هذه المسألة على اثر تمسك البيزنطيين بهذا المطلب بعد وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق وتأسيسهم للمملكة الصليبية وما قام من صراع بين البيزنطيين والصليبيين حول السيطرة على هذه البلاد .

القرن التاسع الميلادى ، صرح البابا ليو الرابع بان من يموت أثناء الدفاع عن الكنيسة سوف ينال ثوابا من الرب . وبعده ببضع سنوات أعلن البابا يوحنا الثامن أن من يموت فى الحرب المقدسة يرقى إلى رتبة الشهداء . اوتطور أمر الحرب المقدسة فى غرب أوربا وأخذت البابوية توجهها لمحاربة لمسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية .(٩) وما لبثت ان وجهت البابوية الحرب المقدسة إلى الشرق لنصرة المسيحية هناك واسترجاع الاراضى المسيحية المقدسة من أيدى المسلمين . وهذه المرحلة الأخيرة من الحرب المقدسة هى التى عرفت باسم الحروب الصليبية بمعناها الدقيق .

أما الكنيسة الأرثوذكسية وعلى رأسها بطريرك القسطنطينية ، فقد وقفت موقفا يختلف تماما عن موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لفكرة القتال ومبدأ الحرب المقدسة . فان الكنيسة الأرثوذكسية تمسكت بنص الدين المسيحى وتعاليم السيد المسيح التى حرمت القتال ، ورفضت هذه الكنيسة السماح بالحرب حتى ولو كان ذلك من أجل الوطن المسيحى ضد أعدائه من غير المسيحيين . وهى بطبيعة الحال لم توافق على منح أى ثواب لمن يشترك أو يموت فى هذه الحرب . بل أن القديس باسيل St. Basil الذى يعد من اكبر واضعى القوانين الكنسية فى الشرق ، فى حين أنه اعترف أن من واجب الجندى أن يطيع أوامر المسئولين ويشترك فى القتال ، فإنه نص على أن المحارب الذى يقتل نفسا بشرية أثناء الحرب ، يتحتم عليه أن يمتنع عن حضور القداس لمدة ثلاث سنوات ، وذلك كنوع من العقاب الروحى يفرض عليه للتكفير عما أتاه معتبرا ذلك ذنبا يجب التكفير عنه(١٠). وكان من الطبيعى أن يؤثر هذا الموقف الذى اتخذته الكنيسة من القتال على الرأى العام البيزنطى ، حتى يبدو أن مهنه الجندية والتفوق

(9) Villey, La Criisade : Essai sur la Formation d'une Thèorie Juridique (Paris, 1942) p. 71.

(10) St. Basil, Letter no 188, in M.P.G. vol. XXXII, col. 681:

فيها لم تكن بالأمر الذى يكسب صاحبه الفخر والمجد بنفس الدرجة التى وجدت فى أوربا اللاتينية . وأن الأميرة البيزنطية أنا كومنينا Anna Comnena ابنة الامبراطور الكسيوس كومنين ، والتى تعتبر بحق نموذجا حسنا للطابع والعقلية البيزنطية المستنيره ، حقيقة أنهـا أبدت أهتمامها بالأمور العسكرية كما سجلت تقـديرها لانتصارات أبيها فى الحروب، وذلك فى التـاريخ الذى صنفته والذى يعرف باسم الألـكسياد . الا أن هذه الأميرة اعتبرت الحرب أمرا مخزيا ، ويجب ألا يلجأ اليه الحاكم الا كآخر وسيله بعد فشل كافة الوسائل السلمية ، كما قالت بأن الالتجاء إلى الحرب هو فى حد ذاته اعتراف بالفشل فى إدارة الشئون السياسة للدولة [١١] .

وهكـذا استمرت الـكنيسة البيزنطية فى موقفهـا بالنسبة للقتال حتى العقد السابع من القرن العـاشر الميلادى ، عنـدما ظهرت فى الامبراطورية البيزنطية لأول مرة بوضوح فـكرة استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة، والشعور بأن القيام بالقتال لتحقيق ذلك عمل يستحق الثواب الدينى . وكان ذلك بالذات فى عهد كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس . وبالرغم من ذلك فلم تغير هذه الـكنيسة من موقفها المعارض. وهكذا فإن الباحث عن المدخل لدراسة الحروب الصليبية البيزنطية لا يجـــده فى سياسة خارجية حاولت تنفيذها الكنيسة البيزنطية ، على النحو الذى حدث فى أوربا اللاتينية حيث كانت البابوية هى القوة الدافعة المسئولة عن قيام الحركة الصليبية اللاتينية . وانما يقع المدخل الحقيقى لدراسة الحروب الصليبية البيزنطية وما قام به تزيمسكس من جهود لاسترجاع بيت المقدس ، فى التطور الـكبير الذى حدث فى الامبراطورية البيزنطية نفسها على أثر اعتلاء الأسرة المقدونية العرش والنهضة الـكبرى التى حققتها فى القرن العاشر الميلادى .

---

(11) G. Buckler, Anna Commena (Oxford 1929) pp. 97 - 9.

الفصل الاول

نهضة الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى

اقامة حكومة مركزية قوية - اعادة تنظيم الاجناد « الثيمات » - الجيش البيزنطى - التقدم الفكرى - اهم مظاهر التوسع الخارجى

أعتلت الإسرة المقدونية عرش بيزنطة سنة ٨٦٧ م وأمتد حكمها حتى سنة ١٠٥٦ م . وتعتبر المرحلة الاولى من حكمها وهى نحو قرن ونصف قرن ، من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م ، ألمع فترة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية السياسى والحضارى حتى لقد أطلق عليها المؤرخون اسم « العصر الذهبى » للامبراطورية البيزنطية . وهكذا كانت هذه الامبراطورية تعيش فى القرن العاشر الميلادى والربع الأول من القرن الحادى عشر فى عصر نهضة قوية . وحيث أن هذه النهضة كانت الأساس الذى بنى عليه تزيمسكس أعماله وقام بهجومه على المسلمين فى الشرق محاولا استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة ، فمن الواجب أن نتعرض لأهم مقومات هذه النهضة وأبعادها .

ويرجع جزء كبير من الفضل فى قيام هذه النهضة وتحقيق قوة الامبراطورية فى هذه المرحلة إلى الأباطرة الذين حكموا خلالها . فقد كانوا على قدر كبير من الكفاءة كما كانوا فى مجموعهم ذوى خبرة فى الأمور السياسية والإدارية فضلا عن كونهم من المحاربين المرموقين . وكانت نفوسهم نازعه لتحقيق عظمة الامبراطورية . وقد ثابروا فى جهودهم وساعدت أعمالهم الداخلية وسياستهم الخارجية على تدعيم قوتها وتقدم حضارتها وامتداد نفوذها خارجيا .

ومن أهم ما حققوه فى الداخل كان نمو وانتشار الولاء للاسرة المقدونية

الحاكمة التى أصبح البيزنطيون ينظرون اليها على أنها الأسرة صاحبة الحق الشرعى لحكم البلاد . وكان هذا تجديدا سعيدا فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، كما كانت له نتائجه الطيبة فى إيجاد استقرار نسبى ، بعد أن عانت الامبراطورية الكثير من الفوضى التى قامت بسبب الثورات والانقلابات الداخلية . وإذا كانت قد وجدت أثناء العهد المقدونى حالات محدودة أغتصب السلطة فيها بعض الآباطرة الدخلاء ، فانه لم يجرؤ أحد منهم على أن يستبعد من العرش سلالة باسيل الأول مؤسس الأسر المقدونية الحاكمة . وأن رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus قد حكم رسميا بالاشتراك مع قسطنطين السابع ، ولو أنه فى حقيقة الأمر قد شغله عن ممارسة السلطة الفعلية بتشجيعه على الاشتغال فى الدراسة وتحصيل العلم أما نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس فقد سمحا لممثلى البيت المقدونى ليكونوا حكاما اسميين ، فى الوقت الذى حاولا فيه أن يضفيا على حكميهما صبغة شرعية بالزواج من أميرات من البيت المقدونى ومما يدل على مدى ثبات حكم هذه الأسرة أنه أصبح من الممكن للنساء أن يرثن العرش ويحكمن الامبراطورية على نحو ما حدث فى عهد زوى Zoe وثيودورا Theodora [1] .

وعمد أباطرة هذا العهد إلى القبض بيد قوية على زمام الأمور وإقامة حكومة قوية ذات نظم واضحة ولم يسمحوا لأية حركات انفصالية أن تهدد سلطتهم المركزية . وقد استفادت الامبراطورية الكثير من وحدة قيادتها واتجاهها . وكانت فى خدمة الامبراطور هيئة من الاداريين المدربين تدريبا حسنا عملوا فى ظل نظام مركزى دقيق . وفى العاصمة كان الوزراء الذين أحاطوا بالامبراطور والذين كانوا يرأسون الادارات المختلفة ، يدرسون ويدبرون الشئون العليا للدولة وينقلون مشيئة سيدهم الأعلى ـ الامبراطور ـ إلى كافة أنحاء

(1) Ensslin, « The Emperor & Imperial Administration » Byzantium (ed. Baynes & Moss, Oxford, 1953), p. 271.

الدولة. وكان يعمل تحت امرة الوزراء عدد كبير من الإدارات المصلحية حيث كانت تدرس الشئون العامة بكافة تفاصيلها وتتخذ القرارات فيها . وقد حكمت الأمبراطورية البيزنطية مثل روما في العصور السابقة بواسطة نظام بيروقراطي قوى.

وعمد الأباطرة المقدونيون لتعزيز نظمهم الادارية وسياستهم الداخلية عامة بأعمال تشريعية عظيمة : وفي عمل ذلك ، رجعوا إلى المجموعة القانونية الكبرى التي جمعها الامبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي، ووفقوا بينها وبين الظروف الجديدة التي طرأت على الامبراطورية في عصرهم. فقد أصدر باسيل الاول المجموعة القانونية الأولى التي ظهرت في عهد الأسرة المقدونية ، وهي التي تعرف باسم Procheiros Nomos . ثم نسمع عن مجموعة أخرى تعرف باسم Epanagogue . وكان الامبراطور ليو السادس هو الذي أصدر المجموعة القانونية الكاملة والتي ظهرت باسم الباسيليكا Basilica التي أصبحت منذ ظهورها المرجع الأعلى للقانون البيزنطي [٢].

هذا وقد بقي نظام « الثيمات » Themes — الذي عرفه العرب باسم الأجناد أو البنود [٣] — هو الأساس في ادارة الولايات البيزنطية. وفي كل «ثيم» تركزت السلطة في يد «الاستراتجوس» Strategos ، الذي كان يعينه الامبراطور ويسأل أمامه مباشرة . والملاحظ أن نظام «الثيمات» تعرض لبعض التطور أثناء العصر المقدوني . والباحث المتتبع لهذا النظام في هذا العصر يواجه مشكلتين رئيسيتين : الأولى وهي كثرة التغير في «الثيمات» وازدياد عددها. والمشكلة الأخرى هي قلة المادة التاريخية التي تركتها المصادر في هذا الموضوع. ومهما يكن من أمر ، فاننا نستطيع أن نحدد عاملين أساسيين أديا إلى ازدياد

---

(2) Runciman, Byzantine Civilization (London, 1936), p. 77.

٣ — أنظر المسعودي : فصل « ذكر بنود الروم وحدودها ومقاديرها » في كتابه التنبيه والأشراف (بغداد ، ١٩٣٨) ص ١٥٠ — ص ١٦ .

عدد «الثيمات» . والعامل الأول ويرجع إلى سياسة الأباطرة أنفسهم • وذلك أن الأباطرة فى هذا العصر لم يرضوا عن بقاء «الثيمات» الكبيرة فى أيدى حكامها خشية أن يستغل هؤلاء الحكام مالديهم من أمكانيات محلية لمناوأة سلطة الامبراطور والخروج عليه أو لتهديد كيان الامبراطور نفسه • ولذا فنحن نجد الأباطرة يقسمون « الثيمات » الكبرى إلى «ثيمات» ذات حجم أصغر ، الأمر الذى نجم عنه ازدياد فى عدد الثيمات . والعامل الثانى الذى أدى إلى ازدياد عـــدد الثيمات كان ما حدث من تحول بعض المناطق الادارية العسكرية الأصغر حجما والواقعة على حدود الامبراطورية إلى «ثيمات» هذا التحول الذى صاحب توسع الامبراطورية وازدياد مساحتها. ويمكن تعريف المناطق العسكرية التى تقل عن الثيمات على النحو الآتى clisurachies, archontates, duchies, catepanates; drungariates ». (4)

وكانت أهم هذه المناطق هى الوحدات التى تعرف باسم Clisurae (مفردها clisura) • (٥) وهذه أصلا فى اللغة اليونانية معناها الدرب أو الممر فى الجبل • وقد أستعملت فى العهد البيزنطى بمعنى الحصن الواقع على الحدود والمنطقة التى تحيط به ، ثم عم استعمالها بمعنى الولاية الصغيرة الواقعة على الحدود، وعرف حاكمها باسم clisurarch وكانت سلطته أقل من سلطة الاستراتيجوس • والظاهر أنه لم يجمع فى أول أمره بين السلطتين العسكرية والمدنية • والمعروف أن بعض الكليزورات تحـــولت إلى « ثيمات » مثل الحـال فى سلوقيه Seleucia وسباستيا Sepastea فى آسيا الصغرى ، وكان ذلك على أثر ازدياد

---

٤ ـ للمؤرخ فرلوجا Ferluga دراسة ممتازة فى موضوع هذه الوحدات العسكريه باللغة الروسية ـ أنظر : Ostrogorsky, p. 219; notê 4

٥ ـ ذكر ابراهيم العدوى أن العرب قد عرفوا وحدة الكليزورا باسم كبلرج ، ولكنه لم يحدد المصادر التى تؤيـــد رأيه . أنظر : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (القاهرة ، ١٩٥١) ص ٧٠ .

أهميتها . والمعروف أيضا ان مع التوسع البيزنطى نحو الشرق الأسلامى ازدادت أهمية الثغور البيزنطية فى هذا الاتجاه ، وقد أنشأت الامبراطورية « ثيما » جديدا عرف باسم ثيم اقليم الجزيرة Mesopotamia .[٦] وبصفة عامة نستطيع القول بانه هناك ما يشير إلى أن الامبراطورية البيزنطية فى أواسط القرن العاشر الميلادى ، كانت تنقسم إداريا إلى ثلاثين « ثيما » ، ثمانى عشر فى آسيا وأثنا عشر فى أوربا .[٧]

وعنى أباطرة هـذا العصر بشكل خاص بفنون القتال وتكـوين وتدريب الجيوش البيزنطية التى أعتمدوا عليها لتحقيق سياسة التوسع الخارجى. وقد قال أحد أباطرة القرن العاشر الميلادى : « ان الجيش للدولة كالرأس للجسد ، إذا انتابه الضعف تعرضت الدولة للخطر » [٨] . وقد أهتمت بيزنطه طوال العصور الوسطى بدراسة الفنون الاستراتيجية وأدوات القتال وتنظيم الجيش بعناية ودقة ، وخلفت لنا فى ذلك مؤلفات لها أهميتها ، دونها جماعة من المهتمين بالشئون العسكرية . وتساعدنا هذه المؤلفات فى تتبع المراحل الرئيسية فى تطور تاريخ الفنون العسكرية البيزنطية . وفيما يتعلق بالعصر المقدونى بالذات ، فقد ترك لنا الامبراطور ليو السادس (حوالى سنة ٩٠٠م) دراسة هامة تعرف باسم

---

٦ ـ نبدأ فى السماع عن وجود هذه « الجند » فى الفترة الواقعة بين سنة ٨٩٩ ـ ٩١٢ م . أنظر : Ostrogorski, p. 220, n. 1. :

(7) Vasiliev, Byz. Emp., p. 350.

وبشأن تطور نظام « الثيمات » فى هذا العصر أرجع كذلك الى :

Bury, The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London, 1911) pp. 146 - 47: Brooks, E. W. Arabic Lists of the Byzantine Themes. Journal of Hellenic Studies XXI (1901); Diehl, L' Originê du régime des themes dans l'Empire Byzantinê. (Etudes Byzantines. Paris, 1905).

(8) Lingenthal, Z., Jus Graeco Romanum, Novelle Constantino VII, III, p. 261.

Tactica أى فنون الحرب.[٩] وهناك أيضا مصنفان آخران يرجعان إلى عهد نقفور فوقاس يعرف أحدهما باسم « De Velitatione Bêlli » [١٠] والآخر باسم « Liber de Re Militari » أى كتاب الشئون العسكرية.[١١] وقد أهتم هذا الكتاب الأخير بدراسة طرق غزو البلاد الأجنبية . وان القواعد التى جاءت به تدل على الاهتمام بالتزام الدقة والحرص فى الهجوم على العدو كما تناول هذا الكتاب طرق حصار مدن وقلاع الأعـــداء باختلاف أنواعها وأبدى البيزنطيون مهارة فى صنع الأسلحة المختلفة وتخطيط القلاع وبنائها ،واستعمال النار الأغريقية فى الحروب والمجانيق الكبيرة فى أعمال الحصار والمجانيق الصغيرة فى قتال الميدان. وكانت هذه تنقل إلى ميادين القتال بعركبات خاصه تسهل حركتها.

وكانت الجيوش البيزنطية تنقسم إلى قسمين: الأول وهو التاجماتا Tagmata وكان بمثابة قوة مركزية مركزها العاصمة وضواحيها ، والقسم الثانى ويعرف باسم « الثيماتا » Thêmata وهو جيوش «الأجناد» المختلفة وترتبط بها . وقد شمل القسم الأول فرق الفرسان الأربع : Scholas وهى التى أشتهرت باسم الاسكلارية ، والاكسكوبيتور Excubitor والأريثموس Arithmos والهيكاناتس Hicanates وذاعت أهمية هذه الفرق منـذ القرن التاسع الميلادى [١٢] . وقد وجدت إلى جانبها فرقة المشاة التى تعرف باسم نوميرى Numeri . وهذه الفرق الخمس كانت تكون قوة الحرس الامبراطورى وتتألف الواحدة منها من نحو أربعة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل ويرأس كل منها ضابط كبير برتبة دمستق Domesticus . وأصبح قائد فرقة الاسكلارية القائد الاكبر للجيش فى القرن العاشر الميلادى . أما قوات « الثيماتا » أى جيوش الولايات،فكان يرأس كل جيش منها الاستراتيجوس أى حاكم الولاية

---

(9) Tactica (in M.P.G.)

(10) Nicephorus Phocas, De Velitatione Belli (Printed with Léo Diocenus in Bonn Corpus.)

(11) Liber de Re Militari (Ed. Vari in Teubner series).

(12) Runciman, Byz. Civil. p. 141

الذى كان يختار من الطبقة العسكرية . وكان جيش كل ولاية « ثيم » ينقسم بدوره إلى قسمين أو ثلاثة أقسام رئيسية يعرف كل منها باسم « تورما » Turma أو الكتيبة ، يقود كل منها قائد يعرف باسم Turmarch (١٣).

وفضلا عن ذلك كله فقد وجدت قوات أخرى خاصة للدفاع عن الحدود بما فيها من قلاع وأبراج وغير ذلك من التحصينات وهذه تعرف باسم قوة التخوم Acritai • وكان من الوحدات الادارية العسكرية التى ظهرت فى أقاليم الحدود « الكليزورات » Caballarii ويباشرها القواد الذين يعرفون باسم « Clisurarchs » . هذا وقد وجدت كذلك فرق من المحالفين « foederati » وكانت تعسكر أيضا فى أقاليم الحدود وترافق الامبراطور عند الخروج للغزو. وكانت جيوش الولايات «الثيماتا» تستعمل أساسا للدفاع. وفى حالة الهجوم كانت فرق الحرس الامبراطورى تخرج من القسطنطينية بقيادة الامبراطور أو دمستق الاسكلارية وتلحق بها قوات من جنود الولاية والجنود المختلفة .

وبصفة عامة نستطيع القول أن قوة الجيوش البيزنطية كانت تعتمد على الخيالة الثقيلة (الدارعة) Caballrii • وكان أفرادها يلبسون المغافر (١٤) أو الزرد تحت القلنسوة ، كما يلبسون دروعا من الزرد • وكان كل ضابط ومساعد له يلبس على جبهته علامة من المولاذ تمييزاً له • وكان المحاربون البيزنطيون يرتدون عباءات من الصوف فى الشتاء وأخرى من التيل فى الجو الحار. وكانوا يستعملون السيف والخنجر والقوس والرمح . وكان المشاة فى معظم الحالات يستعملون النبال والحراب • وكانت هناك فرق من المشاة الثقيلة ممن يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس • وكان يعهد اليهم بحراسة المسالك أو الدروب الجبلية التى يتعذر على الفرسان العمل فيها . أما النار

---

١٣ ـ المرجع السابق ص ١٤٠ .

١٤ ـ المفرد مغفر ومغفرة ، وهو الزرد الذى يلبسه المحارب تحت القلنسوة

الاغريقيـة فـكانت تستعمل أساسـا فى حالات الدفاع والتخلص مـن خطر الحصار . (١٥)

ومهما يكن من أمر فيجب ألا نبالغ فى تقدير القوة العددية للجيوش البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى . فهى مع مراعاة أن أعدادها اختلفت بين الزيادة والنقصان حسب ما اقتضته الأحوال والظروف ، فهناك من المؤرخين من يرون أن عدد الجيوش البيزنطية لم يزد عن مائة وعشرين ألف مقاتل ، منها مايقارب السبعين ألفا كان عليهم واجب القتال ضد المسلمين فى الجبهة الآسيوية . (١٦)

ولكن مع من هذه القوة التى تمتعت بها الجيوش البيزنطية فيجب أن ننتبه إلى ما كان يهددها من مشاكل . فان جنود الولاية كانوا عادة مرتبطين بسادتهم الاقطاعيين ويدينون بولائهم المباشر لهم وكان الأمر دائما يقتضى اليقظة والحزم من الاباطرة للحيلولة دون قيام حركات تمرد محلية كما كان هناك خطر من جانب عناصر القوات المرتزقة التى جاءت من بلاد أوربية وآسيوية مختلفة والتى استخدمها الامبراطور إلى جانب العناصر الوطنية . فان هذه العناصر المرتزقة كان لا يمكن التسليم بولائها التام ، إذ كانت دائما على استعداد لخدمة من يدفع الثمن الأعلى . وبالرغم من ذلك فقد كانت الجيوش البيزنطية تمثل قوة عسكرية خطيرة فى هذه الفترة ، وذلك يرجع إلى حسن اعدادها وتدريبها ، وتحمسها للحضارة الهلينستية والعقيدة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى .
وكان من أسباب قوة بيزنطه العسكرية وقتئذ توافر القيادة العسكرية الصالحة ، إذ تتابع على ولاية جيوشها عدد من القادة الأكفاء مثل يوحنا كوركواز ونقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس .

---

(15) Runciman, Byz. Civil., p. 145.

(16) Diehl, «The Government & Administration in the Byzantine Empire »; Cambridge Medieval History, vol IV; pp. 740 - 41; Ensslin « The Emperer & Imperial Administration »; Byzantium (ed. Baynes) p. 300; Runciman, Byz. Civil.; p. 1?6.

هذا ويتضح من دراسة تاريخ الامبراطورية فى القرن العاشر ما أصبحت تتمتع به إذ ذاك من إزدهار وإمكانيات اقتصادية ضخمة . وقد تحقق لها ذلك بفضل التطور الكبير الذى حدث فى صناعتها وتجارتها ، نتيجة لإدارتها الحكيمة. ونالت الامبراطورية فى هذا القرن شهرة فائقة فى عالم العصور الوسطى بفضل بدائع مصنوعاتها التى وصل بعضها إلى أيدينا ، من المنسوجات ذات الالوان الزاهية والتطريز المتقن والمصوغات المزخرفة والآنية البرنزية المطعمة بالفضة وان الامبراطورية بالرغم من سياسة الاحتكار التى فرضتها حكومتها والقيود التى وضعها على التبادل التجارى ، نمت تجارتها بشكل ملحوظ . وكان مما ساعدها على ذلك موقع عاصمتها القسطنطينية بين الشرق والغرب عند منافذ طرق التجارة العالمية ، وأسطولها التجارى النشط . وقد أصبحت القسطنطينية من أكبر مستودعات التجارة العالمية كما نجحت فى الاستحواذ على نسبة كبيرة من ثروة العالم . [١٧] .

هذا وقد صاحب التطور فى الصناعة والتجارة تقدم هام فى الحياة الفكرية. ذلك أنه حدث ميلاد جديد فى كافة نواحى النشاط الفكرى على أثر إنتهاء الصراع حول عبادة الأيقونات وبفضل التعرف من جديد على العلوم الكلاسيكية . وقد أعيد تعمير جامعة القسطنطينية التى أستأنفت نشاطها وقام عدد من كبار الأساتذة بتدريس العلوم والفلسفة والخطابة وغيرها . وسعى اليهم طلاب العلم من شتى أنحاء الأمبراطورية ومن البلاد العربية كذلك. ولمع فى هذا المجال الفكرى بشكل خاص اسم الأمبراطور قسطنطين السابع ، وبفضل جهوده وتوجيهه زاد نشاط العلماء فى القرن العاشر حتى أصبح هذا القرن عصر الموسوعات الهامة التى وضعت فى التاريخ والقانون والنحو

---

١٧ — أنظر فى هذا الموضوع :

C. Diehl, The Byzantine Empire (Eng. trans. Ives, New York; 1945) pp. 95 - 96.

والعلوم وتاريخ القديسين. ومن أهم العلماء الذين برزوا في هذا العصر كان فوتيوس Photius وبسيلوس الفليسوف ، والمؤرخ ليون الشماس Leo the Deacon .

هذا هو أهم ما حققته الأمبراطورية البيزنطية في العهد المقدوني وبالذات في القرن العاشر الميلادي في مضمار الإصلاحات والإنجازات الداخلية . وقد أهتم أباطرة هذا العصر كذلك بالسياسة الخارجية التي حرصوا فيها على تنفيذ سياسة توسع عامة وهدفوا لأن يجعلوا الأمبراطورية البيزنطية الدولة صاحبة الكلمة الأولى في الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى جانب مد نفوذها غربا في البلاد الأوربية المجاورة لها . وفي نفس الوقت عمل هؤلاء الأباطرة على تحقيق مجد الحضارة الهلينستية والعقيدة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي . وقد أدت هذه السياسة الخارجية إلى اتساع كبير في مساحة الأمبراطورية كما أدت إلى ازدياد قوتها وهيبتها .

وأبدى أباطرة هذا القرن اهتماما كبيراً في منازلة المسلمين في الشرق وطردهم من معاقلهم في آسيا الصغرى ومد حدود الامبراطورية البيزنطية شرقا إلى اقليم الجزيرة في شمال العراق والبلاد الأرمينية التي كانت خاضعة المسلمين ، وكذلك إلى البلاد الشامية ، هذا إلى جانب العمل على تخليص المراكز البحرية الواقعة في شرق حوض البحر الأبيض من أيدي المسلمين . ولقد شهر هؤلاء بداية هذا الهجوم البيزنطي منذ المرحلة الاولى من حكم الأسرة المقدونية ، إذ أفتتح سياسة التوسع ضدهم باسيل الأول مؤسس هذه الأسرة . فقد قام هـذا الامبراطور بحملات ناجحة في آسيا الصغرى ، الا أن هـــذا الهجـــوم البيزنطي كان على نطاق محدود في مرحلته الأولى . والسبب في ذلك يرجع إلى انشغال الامبراطورية في محاربة العناصر البلغارية . ويمكننا القول أن البداية الحقة للهجوم البيزنطي على حدود الإسلام في الشرق كانت في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي . ومنذ هذا الوقت بدأ ظهور قواد

بيزنطيين عظام أبلوا بلاء عظيما فى القتال مثل يوحنا كوركواز John Curcuas الذى كان على حد وصف احدى الحوليات المعاصرة تراجان الجديد أو بليزاريوس الجديد (١٨) ．وفى المدة التى تولى فيها الامبراطور قسطنطين السابع الحكم بنفسه واصلت بيزنطه عملياتها الحربية ضد المسلمين بنجاح ملحوظ بفضل قيادة يوحنا تزيمكس．ونتيجة لحروب بيزنطه حينئذ تقدمت حدودها شرقا ووصلت جيوشها إلى البلاد الأرمينية كما تمكنت من عبور نهر الفرات ، أى تلك الجهات التى لم تشاهد أية قوات بيزنطية لمدة ثلاثة قرون منذ الفتح العربى . و تمكن البيزنطيون إذ ذاك من الاستيلاء على عدة مدن مثل أرض روم وملطية والرها ．

وفى عهد رومانوس الثانى (٩٥٩ـ٩٦٣م) الذى كان امبراطوراً ضعيفا ، أحرزت بيزنطه انتصارات أخرى بفضل نقفور فوقاس الذى عهد إليه بقيادة الجيوش البيزنطية．فان هذا القائد نجح فى الإستيلاء على جزيرة كريت سنة ٩٦١م . وكان ذلك نصراً كبيراً إذ كانت هذه الجزيرة مركزاً هاما للقوات البحرية الاسلامية لمدة نحو قرن ونصف قرن وكانت من أهم نقط الارتكاز البحرية للمسلمين فى المياه الشرقية للبحر الابيض．كما أتجه نقفور شرقا وتقدم فى اقليم الجزيرة وفى شمال الشام ، وتمكن من احتلال حلب إحتلالا مؤقتا سنة ٩٦٢ م．وان كانت بيزنطة لم تحتفظ بكل تلك البلاد التى أستولى عليها نقفور وذلك بسبب عودته إلى القسطنطينية ، فانه كان مقدراً لهذا القائد أن يبدأ بعد أعتلائه للعرش صفحة من ألمع صفحات بيزنطة العسكرية ضد المسلمين أثناء حكمه (٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) ． فقد تمكن هذا الامبراطور فى المرحلة الاولى من حملاته فى قيليقية من الاستيلاء على المصيصة وطرسوس ． و أستولت قواته على جزيرة قبرص سنة ٩٦٥ م وخلصتها من الحكم الاسلامى ． وكان ذلك تدعيما حيويا

(18) Theophanes Continuatus. Historia (Bonn ed.) pp. 427 - 28:

للنفوذ والسيادة البحرية للامبراطورية ، كما أمن ذلك المواصلات البحرية البيزنطية فى هذه الانحاء . وأن الأهمية الرئيسية لفتح قليقية وقبرص ترجع إلى أن الطريق قد أصبح مفتوحا لتنفيذ الخطة التى رتب لها البيزنطيون منذ فترة طويلة ألا وهى التقدم إلى الاراضى المسيحية المقدسة واسترجاعها . وشعر المسلمون فى إقليم الجزيرة فى شمال العراق بشدة وطأة هجمات نقفور ، كما واصل هذا الامبراطور هجماته على شمالى الشـام . وقد كللت جهوده فى هذه المنطقة الأخيرة بنجاح له أهميته ، إذ نجح البيزنطيون سنة ٩٦٩ م فى الاستيلاء على مركز من المراكز الرئيسيه هناك ألا وهو مدينة أنطـاكية التى لها أهميتها بالنسبة للمسيحيين إذ كانت لها بطريركيتها ، كما كانت مركزا من المراكز المسيحية الهامة منذ العهود الأولى للمسيحية . وقد ظلت تابعة للحكم الاسلامى نحو ثلاثة قرون حتى لقد بدا للبيزنطيين أنهم فقدوها إلى الأبد . وفضلا عن ذلك فقد نجح البيزنطيون فى فرض السيادة عـلى إمارة حلب بمقتضى اتفاقيـة صفر ٣٥٩ ﻫ (ديسمبر ٩٦٩ ـ يناير ٩٧٠) . فان هذه الامارة وان كانت استمرت تحت حكم أمير مسلم ، إلا أنه أصبح يتبع هو وامارته امبراطور القسطنطينية، بمقتضى تلك الاتفاقية المذكورة، التى فرضت عليه والتى حفظها لنا المؤرخ كمال الدين بن العديم (١٩) . وقد كـان نقفور فوقاس عازما على التوغل فى البلاد الشامية وفتح بيت المقدس . ويصف لنا ابن الأثير فزع المسلمين فى الشـام من تحركات نقفور بقوله : « دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحـد ولا قاتله ».(٢٠) إلا أن القـدر لم

---

(١٩) كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (ت سامى الدهان ـ ط . دمشق (١٩٥١) ج ١ ص ١٦٣ ـ ص ١٦٩ - وبخصوص التحليل الكامل لهذه الاتفاقيـة نظر للمؤلف : الامبراطور نقفور فوقاس واسترجـاع الاراضى المقدسه ص ١٤ - أص ٤٧ .

(٢٠) ابن الاثير : الـكامل فى التاريخ (ط أولى المطبعة الازهرية المصريه ـ ١٣٠١ ﻫ) ج ٨ ص ٢٣٥ .

يهل هذا الامبراطور ليحقق آماله ، وقد وقعت مسئولية مواصلة هـذه السياسة الشرقية على عاتق خليفته تزيمسكس .

هـذا وأحرزت الامبراطورية البيزنطية فى حروبهامع البلغارانتصارات لها أهميتها وخاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى . والواقع أن الصراع ضد البلغـار كانت له خطورته وذلك للقوة التى أصبحت عليهـا دولتهم بعد أن تم المزج بين العنـاصر البلغـارية والصلقبية وقيام الوحدة الدينية بهذه الدولة على أثر اعتناق الديانة المسيحية . وكان مما أدى إلى ازدياد قوة دولة البلغار ما وصلت إليه من تحضر نتيجة لاتصالاتها بالامبراطورية البيزنطية . وأغـرت قـوة الدولة البلغارية ملوكها على أن يتنازعوا السيادة على شبه جزيرة البلقـان مع الأباطرة البيزنطيين . وقد بدأ الصراع فى عهد القيصر البلغارى سيميون Symeon (٨٩٣ - ٩٢٧ م) الذى حاول الاستيلاء على القسطنطينية نفسها وأعلن نفسه «قيصر البلغار وأمبراطور الرومان» (٢١) . وقد استمر الصراع ضد البلغار أمداً طويلا دام حتى عهد الامبراطور باسيل الثانى الذى أكسبته حروبه وانتصاراته على البلغار شهرة خاصة،فأصبح يعرف باسم سفاح البلغار Bulgaroctonos . وتعقد الصراع ضـد البلغار بالنسبة لبيزنطه عـلى أثر طلب الامبراطور نقفور للمسـاعدة من الروس التابعين للأمـير الروسى الأكبر حاكم كييف واسمه سفياتوسلاف ، الذى استمرأ البلاد البلغارية التى غزاها ورفض أن أن يبرحها . وهكذا وعند اعتلاء الامبراطور تزيمسكس العرش كان الخطر الروسى يهدد الامبراطورية البيزنطية فأصبح على هذا الامبراطور أن يواجه كلا من الروس والبلغار .

هذا وقد استأنف الأباطرة البيزنطيون فى الغـرب السياسة البيزنطيـة

(21) Diehl, Byz. Emp., p. 81; Ostrogorsky pp. 231 - 35.

التقليـدية التى تهدف الى فرض النفوذ البيزنطى فى هـذا الاتجـاه. ذلك أن البيزنطيين لم يتنـازلوا أبداً عن حقوقهم فى حـكم ايطاليـا . وأن ضعف الاباطرة الـكارولنجيين المتـأخرين، والفوضى السياسية التى سادت جنوبى ايطاليـا بسبب تنـافس الامراء اللومبارديين على امتلاكه ، وكذلك خطر المسلمين المتزايد فى هذا الاتجاه ، كل ذلك أغرى أباطرة القسطنطينية على التدخـل لدعم النفوذ البيزنطى فى هـذا الاتجاه . ولم يتردد الامبراطور باسيل الاول فى اتبـاع هـذه السياسة ، وسـار على هـداه من تبعه من الأباطرة .

ولجـأت الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر ، فى العمل على مد نفوذها خارجياً، إلى وسائل أخرى إلى جانب الاعتماد على جيوشها وقوتها العسكرية . وبفضل دبلوماسيتها الماهرة ، اتسع نطاق نفوذها الى أبعد من حدود البلاد التى غزتها بمسافات بعيدة . وقد حشدت حول حدود الامبراطورية مجموعه من الدول التابعة Vassal States ، كانت بمثابة خط الدفاع الأمامى عنها . وعملت هـذه الدول التابعة بدورها على نشر نفوذ بيزنطه السياسى وحضارتها فى أنحاء العالم . وفى ايطاليا كانت البندقية أهم أتباع الامبراطورية البيزنطيـة ، وفى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقـان وعلى طول سـاحل البحر الأدرياتى نجد دولتى الصرب والـكروات الصقلبيتين حليفتين نافعتين للامبراطورية وخاصة ضد البلغار . وفى الشرق بدأ الارتباط بين بيزنطة وأرمينيـة . ويجب ألا ننسى أن إمارة حلب نفسهـــا أصبحت تابعة للامبراطورية بمقتضى المعاهدة التى عقدت بينهما فى أواخر سنة ٩٦٩ م .

هذا وقد امتد نفوذ بيزنطة الحضارى إلى ماوراء الأقاليم التى أصبحت تحت الحماية البيزنطية . ويرجع ذلك إلى ماقام به المبشرون من رجال الدين من نشاط . وأفضل دليل على ذلك هو تحول الروس إلى العقيدة المسيحية على المذهب

الأرثوذكسى . ويظهر فى هذا المجال اسم القيصرة أولجا Tsarina Olga التى اعتنقت المسيحيـة على أثر زيارتها للقسطنطينية سنة ٩٥٧ م، كما كان تنصير فلاديمير أمير كييف العظيم فى نهاية القرن العاشر، مرحلة أساسية فى اعتناق الروس المسيحية إذ أن هذا الأمير قد فرض هذه الديانة على اتباعه - وأن دولة الروس التى أصبحت دولة مسيحية منذ ذلك الوقت ، قد شكلت نفسها على نمط الحضـارة البيزنطية بما فيهـا من عقيدة أرثوذكسية وفن وآداب وطرق المعيشة .

وهكذا فقد كانت هذه النهضة البيزنطية بما لها من مقومات وانجازات فى القرن العـاشر الميلادى ، هى الأساس الذى بدأ عليه الامبراطور يوحنا تزيمسكس حكمه لينفذ سياسته الداخلية والخارجية التى تجلى فيها بوضوح اهتمامه بمواصلة الهجوم البيزنطى على المسلمين فى الشرق الأدنى واسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة .

الفصل الثانى

عهـــد الامبراطور تزيمسكس

- اصل تزيمسكس وحياته الاولى .
- الظروف التى اعتلى فيها العرش .
- سياسة تزيمسكس الداخلية .
- سياسة تزيمسكس الخارجية .

لم يكن تزيمسكس من الأسرة المقدونية صـاحبة الحق الشرعى فى حكم الامبراطورية، بل كان من القادة العسكريين الأكفاء الذين تمكنوا من الجلوس على عرش الامبراطورية فى ظل الأسرة الحاكمة ، مع الابقاء على ممثلى البيت الحاكم والسماح لهم بسلطة اسمية . وقد كان مما يسر على هؤلاء القادة الأمر، أن الامبراطورية ألفت منذ فترة سابقة فكرة وجود أكثر من امبراطور فى وقت واحد، يكون لأحدهم السلطة الحقيقية وهو الذى يميز بلقب « أوتوقراطور باسيليوس » Autocrator Basilieus ، والآخر أو الآخرون ويكونون بمثابة شركاء خاملون لا يتدخلون فى شئون الحكم [1] .

وقد جـاء تزيمسكس من بيت من أكبر البيوت الأرستقراطيه فى الامبراطورية البيزنطية . فهـو ينتمى من جهة أبيه إلى أسرة كوركواز Curcuas ومن جهة أمـه إلى أسرة فـوقاس Phocas التى جـــاء منها سلفه الامبراطور نقفور . هـــذا ويرجـع تزيمسكس مثـل

---

(١) عمد البيزنطيين إلى تطبيق هذه الفكرة حتى يتفادوا فترة شغور فى تولى العرش قد تؤدى إلى خلافات واضطرابات داخلية ، هذا إلى جانب ان هذا النظام كان يساعد فى تثبيت الحكم فى افراد الاسرة الحاكمة . انظر عن هذا النظام

Runciman, Byz. Civil., p. 64.

كثيرين من الأباطرة والقواد العسكريين الذين ظهروا فى التاريخ البيزنطى إلى أصل أرمينى . وقد ولد حوالى سنة ٩٢٤ م فى هييرابوليس Hiérapolis وهى بلدة أرمينية صغيرة تقع فى اقليم خوزان Khozan ، تلك البلدة التى نسبت فيما بعد إلى هـذا الامبراطور وأصبحت تعرف باسم Tchmechkatsak أى مسقط رأس تزيمسكس[٢] فالمعروف أن الاسم الحقيقى لهذا الامبراطور فى اللغة الأرمينية هو Tchemchkik أو Tchémeschaguig .[٣] وعرف فى غالبية المصادر العربيه باسم ابن الشمشقيق[٤] ، كما اشتهر عند عامة المسلمين بابن الشمشكى[٥] . والملاحظ أن الصيغة التى اشتهر بها هذا الاسم عند المسلمين قريبة من الصيغة الأرمينية . أما البيزنطيون فقد حرفوا اسم الامبراطور إلى تزيمسكس Tzimiscés .

ونشأ تزيمسكس فارسا ، ومنذ حداثته احترف الجندية مثل غيره من أبناء العائلات الاقطاعية الكبيرة فى الامبراطورية . وقد تمرس القتال ضد

---

(2) G. Schlumberger, L'Epopée Byzantine à la fin du dixième siècle (Paris, 1896) pp. 2 - 3.

(سوف أشير إلى هذا المرجع فيما بعد باسم شلومبرجيه) ـ انظر كذلك

M. Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie (Paris, 1953) p. 787.

(وهذ المرجع سوف أشير اليه فيما يلى باسم كانار) .

(٣) هذه الكلمة معناها فى اللغة الأرمينية القصير . انظر شلومبرجيه ص ٤ . ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٩٤ ـ ارجع كذلك إلى :

L. Bréhier, Vie et Mort de Byzance (Paris) 1946, p. 198.

(٤) عرف المؤرخ يحيى الانطاكى هذا الامبراطور باسم الشمشقيق . كما ورد اسم ابن الشمشقيق فى تاريخ كل من ابن القلانسى وابن الاثير ـ انظر : يحيى الانطاكى المذيل على كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق تاليف البطريرك أفتيشيوس الملكى بسعيد بن البطريق (ط. بيروت سنة ١٩٠٩ م) ص ١٣٦ ـ ص ١٣٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (ط. بيروت سنة ١٩٠٨ م) ص ١٢ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٩ ، ص ٢٨٠ .

(٥) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٦ .

المسلمين ، وأخذ نجمه يلمع أثناء اشتراكه فى قيادة الحملات العسكرية الكبرى التى وجهتها الامبراطورية ضد قيليقيه والبلاد الشامية فى السنوات الأخيرة من حكم الامبراطور قسطنطين السابع ، تلك السنوات التى وقعت أثناءها المحاولات المستميتة التى قام بها سيف الدولة الحمدانى لمواجهة خطر الروم.(٦) وقد أنعم الامبراطور على تزيمسكس بلقب بطريق كما عينه ستراتيجوس على « ثيم » الجزيرة الذى ضم اليه اقليم هنزيط Hanzit المجاور له .(٧)

وهيأت حروب تزيمسكس فى الجبهة الشرقية الفرصة له للاتصال بقريبه نقفور فوقاس ، وجمعت بينهما الزماله فى قيادة جيوش البيزنطية ، وسرعان ماتوطدت أواصر الصداقة بينهما . والمعروف أن تزيمسكس كان هو الذى ألح على نقفور لكى يتولى عرش الامبراطورية بعد وفاة رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ م . وبعد أن أعتلى نقفور عرش بيزنطة ، سلم لتزيمسكس المنصب الذى كان يشغله ألا وهو « دمستق القوات الاسكلارية فى الأناضول » « The Domestic of the Scholae of Anatolia » كما منحه لقب ماجستر « Magister » وكان من أعلى الالقاب تمنح للأعيان فى بيزنطة .(٨) وقد ترتب على ذلك أنه صار عليه أن يتحمل مسئولية قيادة الجيوش البيزنطية فى الجبهة الشرقية . وأحرز تزيمسكس أثناء ذلك عدة انتصارات باهرة

---

(٦) امتدت هذه الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين السابع التى باشر فيها مهام الحكم بنفسه من سنة ٩٤٥ حتى سنة ٩٥٩ م .

(٧) كان تعيين تزيمسكس على «ثيم» الجزيرة على مايبدو سنة ٩٥٦ م (سنة ٣٤٥ هـ) أنظر : كانار ص ٧٨٧ ـ وبخصوص اقليم هنزيط فقد قال عنه ياقوت : « هنزيط بالكسر ثم السكون وزاى ثم ياء مطاء مهملة من الثغور الرومية » معجم البلدان (ط . بيروت ج ٢٠ ص ٤١٨ ـ ويمتد هذا الاقليم شمال نهر دجلة .

(8) Cambridge Medieval History, vol. IV, p. 78.

(سوف اشير هذا للمصدر فيما يلى اختصارا على النحو الآتى : C. M. H.)

ظهر لقب ماجستر فى القرن العاشر الميلادى ـ انظر :

Runciman, Byz. Civil. p. 84:

أعلت من شأنه وزادت فى محبته بين الجنـود وشهرته بين الشعب . وقد استمر تزيمسكس فى خدمة نقفور وهو يتمتع بمكانه رفيعه فى الامبراطورية حتى سنة ٩٦٩ م ، حين حدثت تطورات أنتهت بالقضاء على نقفور فوقاس ووضع نهاية لحـكمه واعتلاء تزيمسكس العرش الامبراطورى .

لقد تنـكر الامبراطور نقفور لقريبه وزميله السابق فى السلاح وقائد جيوشه فى الشرق فى سنة ٩٦٩ م ، ولم يعد نقفور يؤثر تزيمسكس باهتمامه وتقديره . ويرى بعض المؤرخين أن الانتصارات العسكرية التى أحـرزها تزيمسكس وشهرته التى كادت أن تضارع شهـرة الامبراطـور ، تسببت فى تغيير قلب نقفور بالنسبة له لمـا دب فى نفسه من غيرة . ومن الواضح كذلك أن ليوفوقاس ، أخا الامبراطور والذى كان يحمـل لقب قربلاط curopalates ويشغل مكانه رفيعة فى حكومة نقفور ، أضمر كراهيـة شديدة لتزيمسكس ودأب على النيل منه ، وبذل كل جهد لافساد العلاقة بين تزيمسكس والامبراطور .(٩) وفى نفس العام المذكور جرد نقفور قائده تزيمسكس من رتبه العسكرية وطـرده من البلاط الامبراطورى وأصدر أمره بان يعيش منفيا فى خلقدونه فى ممتلـكاته فى آسيا الصغرى محددا اقامته إلى هذا المـكان . وبدلا من مركزه العسكرى المرموق ، عين نقفور قائده فى مركـز مـــدنى هو اللغثيت Logothete المختص بإدارة البريد.(١٠) وبطبيعة الحال أدى ذلك إلى استياء تزيمسكس وغضبه على الامبراطور واعتبره ناكراً للجميل . وأخذ تزيمسكس يفكر والانتقام لنفسه ، وتقابلت رغبته فى هـذا الانتقام مع رغبة الامبراطورة ثيوفانو Theophano التى ارادت التخلص من زوجها .

---

(9) C. M. H., vol. IV, p. 78; Schlumberger, Un Empêreur byzantin au dixième siècle, Nicéphore Phocas. (Paris, 1800) p. 746 - 47.

(١٠) المرجع السابق ص ٧٤٧

كانت ثيوفانو امرأة خطيرة ، وهى أصلا من طبقة العامة . وكانت تتمتع بقسط وافر من الجمال إلا أنها كانت ذات طموح ودهاء ، كما عرف عنها الانحلال الخلقى . واستلفت جمالها نظر الامبراطور رومانوس الثانى الذى عرف عنه ضعف الشخصية، واتخذ منها زوجة له وقد وقع تحت تأثيرها بشكل كامل . ولإرضائها أمر بابعاد والدته الامبراطورة هيلينا من المسرح السياسى ، كما أرغم خمسة من أخوته على دخول الحياة الديرية.[11] وبعد وفاة رومانوس ، اختارها نقفور زوجة له ، الأمر الذى أدهش معاصريه، نظرا لما عرف عنه من التقوى والزهد، وما كانوا يعرفونه عنها من السمعة السيئة. وقد سجل شعور المعاصرين بخصوص ذلك الزواج فى النقوش التى كتبت على قبر نقفور والتى تقول بأن الامبراطور تمكن من قهر كل شىء ما عدا المرأة [12] . وكان من الطبيعى ألا يوفق هذا الزواج . فان ثيوفانو مع ما عرف عنها من فجور ونزعة حسية قوية لم تجد ما يشبع رغبتها فى شخص الامبراطور نقفور بما له من قبح خلقة وخشونة طبع وميل للتقشف وكثرة التغيب للاشتراك فى حملاته العسكرية. وإن رفض الامبرطور للنوم فى الفراش الامبراطورى وتفضيله على ذلك افتراش جلد نمر على أرض الحجرة الملحقة بمخدعه ، لابد وأن كان مصدر استياء لهذه المرأة [13]. وكان من الطبيعى أن تبحث ثيوفانو عن عشيق لها يحقق لها نزواتها ، وقد وجدته فى شخص تزيمسكس الذى كان يختلف عن

---

(11) Ostrogorsky, p. 251; C. Diehl, Figures byzantines 4th ed., (Paris; 1909) vol I.: pp. 51 - 75.

(12) Krumbacher, K., Geschichte des byzantinuschen Literatur, p. 368.

(١٣) كان نقفور فى الفترة الاخيرة من حياته متشككا فيمن حوله ، والظاهر أنه أراد الا يفاجئه من يتآمرون على حياته وهو فى فراشه ، وهذا هو السبب الذى جعله يرفض النوم فيه ، انظر :

Schlumberger, Nicephore Phocas, pp. 744 - 45.

نقفور شكلا وطابعـا . فان تزيمسكس بالرغم من قصر قامته الملحوظ ، كان يتمتع بوسامة وشخصية جذابة وحيوية متدفقـة ، كما كان أعزبا منذ أن ماتت زوجته الأولى [١٤] . ولابـد أن حب ثيوفانو لتزيمسكس وتعلقهـا به جعلها ترغب فى تدبير مؤامرة معه للتخلص من زوجها .

هذا وتضيف بعض المصادر العربية المعروفة باهتمامها فى تتبع أخبار الدولة البيزنطية، سبباهاما آخر دفع الامبراطورة ثيوفانو على القيام بمؤامرتها. ويرتبط هذا السبب بخوفها على مصير ولديها من زوجهـا الأول وهما باسيل ـ الذى اعتلى العرش فيما بعد باسم باسيل الثانى ـ وقسطنطين الثامن. فان هذين الأميرين كان ينظر اليهما على أنهما الامبراطوران صاحبا الحق الشرعى لحـكم البلاد . وكان نقفور عندما اعتلى العرش مستعينا بجيشه وأنصاره، اضطـــر لأن يعلن نفسه كمجرد قيم وحام لهذين الامبراطورين . [١٥] وكان المفروض أن يرجع الحـكم اليهما من بعده . ولـكن نقفور اتخذ من الترتيبات ما لم تطمئن اليه الامبراطورة على ولديها إذ أنه أخـذ يعين بعض أفراد أسرته فى المناصب الرئيسية بالامبراطورية كما منحهم الألقاب الـكبرى. فقد عين أخاه ليوفوقاس دمستقا على الغرب ومنحه لقب القربلاط Curopolates كما كرم أباه بمنحه لقب قيصر[١٦] . ويذكر المؤرخ العربى المسيحى يحيى الأنطاكى ، الذى عاش فى أنطاكية التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى والتى كان من المتيسر له فيها الاطلاع على

---

(١٤) كانت زوجة تزيمسكس الأولى واسمها ماريا من عائلة سكليروس Sclerus الأنطاضية ، وهى أخت القائد الـكبير بارداس سكليروس الذى لمع اسمـه فى عهـد تزيمسكس .

(15) C. M. H., vol; IV, p. 79:

(١٦) نفس المرجع السـابق ص ٧٨ ـ بخصوص لقب curopolates فـكان يعنى عميـد القصر وكانت أصـلا من الألقـاب المخصصـة لأقارب الامبراطور ، انظر Runciman, Byz. Civil, p. 84

أخبار البيزنطيين ، أن نقفور عقد العزم على أن يجعل أخيه نائبا عنه فى القسطنطينية ، ويجعله وصيا على الأميرين أثناء تغيبه فى غزواته. والظاهر أن مسلك ليوفوقاس وموقفه لم يكن مما تطمئن الامبراطورة إليه . كما أن هذا الأمير كان يكن عداوة كبيرة لتزيمسكس . ولذا اعترضت ثيوفانو على تعيينه وأظهرت تخوفها لنقفور بقولها « إنى أتخوف عليك الحوادث ولا أطمئن إلى أخيك على ولدى ولا آمن به لأنه اذا رأى نفسه منفرداً بتدبير الأمر فى البلاط أخاف أن يتغلب على الأمر دونهما ولا سيما وله أولاد ».(١٧) ويذكر كذلك نفس المؤرخ أن الامبراطورة لما تمسكت باعتراضها أنتهرها نقفور مغضبا بقوله « انك الآن تضطرينى إلى أن أخصى الصبيين وأجعل الملك لأخى . » (١٨) والمهم أن ما رواه المؤرخ المذكور فى هذا الصدد انما يعكس صورة لتخوف الامبراطورة على مصير ولديها وبالتالى على مصيرها إذا ما لحق بهما أى سوء .

وهكذا فقد جمع بين تزيمسكس والامبراطورة ثيوفانو الحب، كما جمعت بينهما كراهيتهما لنقفور والرغبة فى التخلص منه لتحقيق مصالحهما. وتدل المصادر البيزنطية والعربية على أن ثيوفانو هى التى أتخذت عنصر المبادأة فى رسم وتنفيذ المؤامرة التى انتهت باغتيال نقفور واعتلاء تزيمسكس العرش. فقد اعتمدت هذه المرأة على جمالها ودلالها لتؤثر على نقفور وتجعله يرضى مرة أخرى عن تزيمسكس. وأخذت ثيوفانو تشير إلى رابطة الدم بينهما وصداقتهما وزمالتهما السابقة . وقد استجاب نقفور لطلب زوجتة وأصدر أمر باستدعاء

---

١٧ ــ يحيى الانطاكى ص ١٣٦ .

١٨ ــ المرجع السابق ص ١٣٦ ــ راجع كذلك رواية ابن الأثير حيث روى عن نقفور أنه عزم على أن يخصى ابنى الملك المقتول لينقطع نسلهما ولا يعارض أحد أولاده فى الملك) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٩ ــ وطبقا للتقاليد البيزنطية كانت تشترط اللياقة البدنية لتتويج أى امبراطور ، ولا يمكن للخصى أو الأعمى ان يصبح امبراطورا .

تزيمسكس إلى القسطنطينية. وأسرع الأخير بالذهـاب إلى العاصمة • وقد تحايلت ثيوفانو حتى اتصلت سرا بعشيقها . ويقول يحيى الإنطاكى أنها « كشفت له ما فى نفسها من الخوف على ولديها من لاون (ليو) أخى الملك. »(١٩) وعرضت الامبراطورة على تزيمسكس فكرة التخلص من الزوج • وسرعان ما أتفقا على تفاصيل المؤامرة التى تحقق لهما ذلك ، كما أتفقا على الزواج وأن يصير تزيمسكس امبراطورا •

وتمكن تزيمسكس من الحصول على عدد من الشركاء ليعاونوه فى تنفيذ المؤامرة . وكان هؤلاء من الساخطين على نقفور ، ومن ابرزهم كان القائد ميخائيل بورتزيس Michael Burtzes المعروف فى المصادر العربية باسم ميخائيل البرجى، الذى كان قـد لعب دورا هاما فى الإستيـلاء على انطاكيه • وكـان الامبراطور قد تنكر له ذلك ولم يحسن معاملته . وكـان من شركـاء المؤامرة كذلك ليو بيدياسيموس Leo Pediasimos ، وليو بلنطس Leo Balantes • ويضيف يحيى الانطاكى إلى هذه الاسماء قائدا يعرف باسم اسحق بن بهرام وكـان قد اشترك كـذلك فى فتح انطاكيه.(٢٠)

وتمت الترتيبات النهائية بين المتآمرين ، وحددوا ليلة ١٠ـ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩ م موعدا لتنفيذ المؤامرة • وقد يسرت الأمبراطوره وجماعة من أعوانها من الطواسية للمتآمرين التسلل إلى داخل القصر.(٢١) وتمكن هؤلاء

---

١٩ ـ يحيى الانطاكى ص ١٣٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٩

٢٠ ـ يحيى الانطاكى ص ١٣٦ ـ انظر كذلك

Schlumberger, Nicephore Phocas. pp. 750 - 51; Epopée; p. 19.

٢١ ـ فى شرح الطريقة التى تسلل بها تزيمكس إلى الداخل القصر الامبراطورى قال يحيى الانطاكى : « فأصعدت (ثيوفانو) فى الايل ابن الشمشقيق مع علام له من طاقه فى البلاط على البحر واوصلتهم إلى الملك . » اما ابن الأثير فيقول ان تزيمـكس قد دخل مع شركاه وهم يلبسون زى النساء وأن ثيوفانو قد أوهمت نقفور انهم نسوة من اهلهـا جئن للزيارة ـ يحيى الانطـاكى ص ١٣٦ - ص ١٣٧ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٦ - ص ٢٣٩ - ص ٢٤٠

من الوصول فى هدوء إلى حجرة نوم الامبراطور نقفور حيث أجهزوا عليه. وقد تم ذلك بسرعة وأمر تزيمسكس بوضع رأس نقفور فى النافذة ليشهدها الناس ويجعلهم أمام الامر الواقع . ودفن نقفور بعد ذلك سرا فى كنيسة الرسل القديسين [٢٢]. وبذلك انتهى عهد هذا الامبراطور بما كان له من أمجاد، فى الوقت الذى عمل فيه تزيمسكس على القبض على مقاليد الامور وتولى السلطة .

والملاحظ أنه بالرغم من هذا العمل الذى أتاه تزيمسكس وشركاؤه فى اغتيال نقفور الأمر الذى عدته الكنيسة البيزنطية جريمة نكراء تستلزم التكفير عنها ، فان تزيمسكس لم يجد فى طريقه لإعتلاء العرش مقاومة جدية أو ثورة يقوم بها الشعب أو الجيش . وفى تفسير ماحدث، نحن نعرف أن نقفور بالرغم من ورعه وتدينه وعزوفه عن حياة الترف وماعرف عنه من مسلك سوى واهتمامه بالإصلاحات الدينية فضلا عن الانتصارات العسكرية الكبرى التى حققها للامبراطورية، فانه لم يكن حاكما محبوبا فى الامبراطورية . ذلك أن عهده فى أساسه كان عهدا عسكريا سخر فيه إمكانيات الدولة لخدمة سياسة التوسع الخارجى. وقد بالغ هذا الامبراطور فى فرض الضرائب على الشعب لمقابلة نفقات حملاته العسكرية . وقد اشتدت الوطأة على البيزنطيين لما عمهم من عوز . بل ان الحكومة نفسها قد اضطرت لخفض قيمة عملتها [٢٣]. ومع هذه الاوضاع كان من الطبيعى ألا يحدث استياء عام أو اضطرابات نتيجة لإغتيال نقفور .

والواقع أن تزيمسكس كان رسم الخطة اللازمة التى تمكنه من تولى العرش على مقاليد الحكم فور القضاء على الامبراطور الراحل . فبعد أن جلس الامبراطور

---

(22) C. M. H., vol. pp. 77 - 79:

(23) Ostrogorsky, p. 260. „ ,

الجديد على العرش ، أعلن تزيمسكس مثلما فعل نقفور من قبل ، أنه يعتبر نفسه وصياً على الأمبراطورين الشرعيين القاصرين باسيل وقسطنطين الثامن وأنه على هـذا النحو يصبح عليه تدبير أمور الدولة .(٢٤) وفى ترتيب حكومته اعتمد تزيمسكس على الأمير باسيل ، وهو الإبن غير الشرعى للأمبراطور رومانوس ليكابينوس . وكان باسيل هذا خصيا مشهوداً له بالدهاء والجشع والحرص الشديد على جمع المال ، ولكنه كان يتمتع بحنكه سياسية عظيمة ترقى إلى درجة العبقرية .(٢٥) وقد عينه تزيمسكس رئيساً لوزرائه . هذا وكان باسيل من قبل أهم أنصار نقفور فوقاس الذى عينه كبيراً لأمنائه Parakoimomenos ، (٢٦) ثم رئيساً لمجلس السناتو . إلا أن نقفور تنكر له ، وعلى ذلك انحاز باسيل إلى تزيمسكس وأصبح من أكبر أعوانه فى المؤامرة التى دبرها ضد نقفور . وعلى ذلك فمنذ اعتلاء تزيمسكس العرش أصبح باسيل رئيساً لحكومته واليد اليمنى له .

وقد ساعد باسيل الأمبراطور تزيمسكس فى رسم الخطوات الأولى التى اتخذها بعد اعتلائه العرش لتثبيت حكمه . وطبقاً للأوامر التى أصدرها كبير الوزراء، نودى بتزيمسكس امبراطوراً فى كل حى من أحياء العاصمة . كما منع باسيل التجمعات العامة وتوعد أى شخص يحاول القيام بأعمال العنف أو الاضطراب

---

٢٤ ـ شاومبرجيه ص ٤ ، C. M. H., vol. IV, p. 79
ونجد صدى التصريح الذى أدلى به تزيمسكس فى هذه المناسبة فى المصادر العربية . فقد جاء فى تاريخ يحيى الأنطاكى قول تزيمسكس : « أنا عبدهما واخدم بين ايديهما إلى أن يشتد ويصلحا للقيام بامتهما » ص ١٣٧ ؛ كما قال ابن الأثير : « اساس فى الملك الأكبر من ولدى الملك المقتول وصار المدبر له ابن الشمشقيق » ج ٨ ص ٢٤٠

٢٥ ـ شلومبرجيه ص ٥ ـ ص ٦ . انظر كذلك Ostrogorsky, p: 262

٢٦ ـ أصبح صاحب هذا اللقب وهو كبير الخصيان فى القصر الامبراطورى يشغل مركز كبير الوزراء منذ أواخر القرن التاسع واثناء القرن العاشر الميلادين . انظر Runciman, Byz. Civil., p. 92

بالإعدام (٢٧) . وكان يقصد من وراء هذه الخطوات أن يتفادى ماقد يحدث من الاضطرابات على النحو الذى وقع عند اعتلاء نقفور فوقاس العرش. ثم قام تزيمسكس بالتخلص من كافة الموظفين من أنصار الامبراطور السابق وشغل مراكزهم برجال ممن يثق بهم . كما أمر تزيمسكس بنفى ليوفوقاس وأبنائه باستثناء بطرس الذى كان خصياً لا يخشى بأسه . وهكذا قطع الامبراطور الجديد مرحلة كبير فى توطيد سلطته ولم يتبق عليه إلا الحصول على مباركة الكنيسة حتى يضفى على حكمه الصبغة الشرعية المطلوبة فى الحاكم البيزنطى .

كان يرأس كنيسة القسطنطينية وقتئذ بوليكتيس Polyeuctes. وكان هـذا البطريرك قد عانى الكثير من الامبراطور نقفور فوقاس الذى دأب على التدخل فى الشئون الكنسية والحد من امتيازات رجال الدين، مما أسخط عليه الطبقة الايكليركية بوجه عام . ولكن ، فبالرغم من ذلك كله، وكون بوليكتيس رجلا مسنا يعانى من الشيخوخة وضعفها ، فانه وقف موقفا حازماً ضد تزيمسكس . فقد فرض عليه شروطاً شديدة حتى يسمح له بالدخول فى كنيسة أياصوفيا لينال بركة الكنيسة ويلبس التاج الامبراطورى فيها . ذلك أن بوليكتيس كان رجلا ورعاً وحازماً وشديد التمسك بالعقيدة الأرثوذكسية، وبالرغم من عدم رضائه عن نقفور فوقاس ، فانه لم يوافق على الجريمة التى ارتكبها تزيمسكس وأعوانه ليصل بها إلى العرش . والظاهر كذلك، على مايبدو لنا ، أن بوليكتيس وجد هذه المناسبة فرصة لكى يسترجع للسلطة الايكليركية اعتبارها بعد ماحدث لها من متاعب فى عهد نقفور. وعلى

---

(٢٧) بخصوص التفاصيل التى رواها المؤرخ البيزنطى المعاصر ليون الشماس Leo the Deacon فى هذا الموضوع ارجع إلى شلومبرجيه ص ٨ ، ص ٩ .

ذلك فعندما ذهب تزيمسكس إلى كنيسة أيا صوفيا ، رفض البطريرك الإشراف على أى حفل دينى لتتويج الامبراطور مالم ينفذ الشروط التى فرضها عليه . وكانت هذه الشروط على نوعين : النوع الأول وينص على معاقبة المتآمرين ، والنوع الآخر خاص باسترجاع امتيازات الكنيسة . وبخصوص الشروط الاولى ، فإن البطريرك ، أمام ادانة الرأى العام فى بيزنطة لتزيمسكس باشتراكه فى مصرع نقفور ، فرض على تزيمسكس أن يقسم يميناً مقدساً للدلالة على براءته من جريمة قتل نقفور ، كما فرض عليه أن يتبرأ من القتلة الذين اشتركوا فيها . وفضلا عن ذلك ، وجه اليه عبارة شديدة اللهجة خاصة بالامبراطورة ثيودورا قائلا فيها : « فلتطرد فوراً من القصر المقدس الزوجة الزانية الآثمة التى دبرت ووجهت كل أمر ، والتى كانت بالتأكيد المحرك الأول للجريمة ! »(٢٨) وبخصوص النوع الثانى من الشروط وهو الخاص بالامتيازات الكنسية ، فقد طلب البطريرك من تزيمسكس الغاء جميع المرسومات الامبراطورية التى أصدرها نقفور ضد الكنيسة ورجال الدين للحد من سلطتهم وامتيازاتهم العلمانية . كما ألزم تزيمسكس باستدعاء جميع الأساقفة الذين ارسلوا إلى المنفى فى عهد نقفور ، واعادتهم إلى مراكزهم الدينية . وفضلا عن ذلك أمره بتوزيع ثروته من ممتلكات خاصة وعقار على الفقراء ولتعمير الكنائس الكبرى فى القسطنطينية .(٢٩)

وأمام هذا المركز الحرج الذى واجهه تزيمسكس فى باكورة عهده ورغبة منه فى توطيد أركان حكمه ، فضل هذا الامبراطور التسليم بجميع طلبات البطريرك حتى يحصل على مباركة الكنيسة . وقد ضحى بحبه وأمر بنفى

---

٢٨ ـ شلومبرجيه ص ١٤ ـ ص ١٥

(29) C. M. H.; vol. IV; pp. 70 - 80:

ثيوفانو ، التى كان لها من العمر وقتئذ نحو سبعة وعشرين سنة ، إلى احدى الأديرة بجزيرة بروتى Proti القريبة من القسطنطينية ، ثم أبعدت بعد ذلك الى ارمينية . وقد ألغى الامبراطور الجديد مرسومات نقفور الموجهة ضد رجال الدين كما أرسل فى استدعاء الأساقفة المنفيين: وبدون أى وازع دينى، أقسم تزيمسكس يميناً بأنه لم يرفع يده ضد نقفور . هـذا وقد أعلن ادانته لعدد من الذين اشتركوا معه فى المؤامرة ،وأعدم اثنين منهما وهما ليو بلنطس Leo Balantes وأتزيبو ثيودوروس Atzypotheodores . (٣٠) وبعد أن تم كل ذلك قام بوليكتيس بتتويج تزيمسكس امبراطوراً فى كنيسة أياصوفيا فى حفل عيد الميلاد سنة ٩٦٩ م أى بعد الجريمة بنحو اسبوعين . ولا بد أن بوليكتيس شعـــر اذ ذاك بالسعادة لنجاحه فى اجبار الامبراطور على تنفيذ مطالبـه وسياسته الدينيـة . والواقع أنه حقق بما أنجـــزه انتصاراً للـكنيسة على القوة العلمانية بعد أن عانت الـكثير من تدخل الأباطرة وخاصة نقفور فوقاس . وقد شبه المؤرخ أسترو جورسكى هـــذه الحادثة بين بوليكتيس وتزيمسكس ، بحادثه كانوسا التى كانت بين جريجورى السابـع وهنرى الرابع فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر ، للتشابه بين الحادثتين من حيث نجاح الـكنيسة فى اثبات كيانها وفرض شروطها على حساب سلطة الامبراطور .(٣١) ومهما يكن من شىء ، فإن ما يهمنا فى هـذا الصدد هو نجاح تزيمسكس فى الحصول على بركة الـكنيسة الأمر الذى عـول عليه

---

٣٠ ــ شلومبرجيه ص ١٩

(31) Ostrogorsky, p. 260.

يجب ألا نسلم بفكرة أن هذا المؤرخ قد قصد حرفية هذا التشبيه أو ان هاتين الحادثتين كانتا متطابقتين تماما ، وذلك لما كان هناك من فوارق كبيرة بين سلطتى البابا فى روما والامبراطور فى الغـــرب من ناحية ، والبطريرك والامبراطور فى الدولة البيزنطية من ناحية اخرى .

كثيراً لإكتساب صبغة شرعية تساعده على تثبيت سلطته وهو فى المرحلة الأولى من حكمه ، والاستقرار على العرش البيزنطى .

كان تزيمسكس يضاهى سلفه الأمبراطور نقفور فى الكفاءة العسكرية والبراعة فى قيادة الجيوش . إلا أنه كان يتفوق عليه كرجل دولة وسياسى . وعرف عن نقفور التعجل والإندفاع فى اتخاذ قراراته ، أما تزيمسكس فقد كان يتميز بمهارة وحنكة سياسية ساعدته إلى جانب مميزاته العسكرية. وحظى تزيمسكس كإمبراطور بتقدير المؤرخين البيزنطيين. ومثال ذلك ما كتبه عنه المؤرخ ماناسى Manassès الذى شبهه بفردوس جديد تنساب منه أنهار العدل والحكمة والفطنه والبسالة ، ثم أضاف : « أنه لو لم يدنس يديه بقتل نقفور لتألق فى الأفق ككوكب لا مثيل له » (٣٢) .

وقد كان تزيمسكس مثل نقفور أكثر اهتماما بالسياسة الخارجية منه بالسياسة الداخلية. وان أعماله وانجازاته الداخلية كانت محدودة اذا ما قورنت بالأعمال الكبيرة التى حققها فى سياسته الخارجية . ونعرض فيما يلى أهم ما حققه فى الداخل والخارج .

بالرغم من أن تزيمسكس كان أكثر اهتماما بالسياسة الخارجية فانه قد أحرز نجاحا فى تنظيم الشئون الداخلية بدولته ومعالجة ما ظهر منها من مشاكل بحزم وحكمة وبفضل ما أوتى من مقدرة سياسية وحسن تدبير . وقد ساعده فى تحقيق ذلك باسيل البركويمومنينوس كبير وزرائه، الذى عهد اليه تزيمسكس بالإشراف على شئون حكومته وقت خروجه للقيام بحروبه فى الخارج حقيقة أن باسيل هذا استغل مركزه ليزيد من ثروته الخاصة بشكل فاضح وغير

---

٣٢ ـ شلومبرجية ص ٣

مشروع، الا أنه كان قديرا فى مساعدة الأمبراطور فى ادارة شئون الدولة، كما كان مخلصا فى خدمته . هذا ورغبة منه فى زيادة تدعيم مركزه داخليا ، تزوج تزيمسكس من الأميرة ثيودورا، وهى ابنة الأمبراطور قسطنطين السابع وعمه الأمبراطورين الصغيرين باسيل الثانى وقسطنطين الثامن . وكانت تحدوه فى ذلك الرغبة فى اضافة صبغة شرعية لحكمه عن طريق الزواج من احدى أميرات البيت المقدونى الذى كان له مكانة خاصة فى قلوب البيزنطين .

وقد حرص تزيمسكس على ألا يفعل مثل نقفور ويثقل كاهل الشعب البيزنطى بالأعباء ذلك حتى يتجنب سخطه واستياءه . وكان تزيمسكس كريما فى معاملة رعاياه حريصا على كسب شعورهم . وقد قدم الكثير من المنح والهدايا من أمواله الخاصة لكثيرين من كافة طبقات المجتمع البيزنطى . كما ألغى هذا الامبراطور الضريبة المعروفة باسم Kapnikon وهذه هى ضريبة الدخان التى فرضت منذ قرن ونصف على كل مدخنة أو موقد فى الامبراطورية ، وقد عانى منها البيزنطيون أمدا طويلا. (٣٣) وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه السياسة إلى ازدياد محبة البيزنطيين له واستقرار نفوذه داخليا .

واهتم تزيمسكس بالقضاء على أية إضطرابات داخلية تهدد حكمه. ويتضح اهتمامه هذا فى موقفه من المحاولة التى قام بها آل فوقاس للانتقام لمقتل نقفور والقضاء على تزيمسكس . فان أسرة فوقاس كانت أقوى من أن ترضخ أمام الأمر الواقع وتسلم ببقاء تزيمسكس على العرش بعد مقتل نقفور . وكان من الطبيعى أن تقوم ضد تزيمسكس عندما تتاح لها الفرصة . وهكذا فعندما كان الامبراطور يستعد للحرب ضد الروس ، قامت ثورة داخلية خطيرة تزعمها

---

٣٣ — شلومبرجيه ص ١٨٣ ، ، C. M. H., vol IV, p. 82 ,,

بارداس فوقاس ابن ليو القرباط أخي الامبراطور الراحل، وكان تزيمسكس قد أمر بابعاد بارداس إلى اقليم بونطس Pontis بعد موت عمه نقفور . إلا أن أفراد أسرته وبعض رجال الدين، اتخذوا مايلزم من الترتيبات لتمكينه من الفرار من سجنه . وذهب بارداس أثر فراره إلى قيصرية حاضرة قبدوقية الواقعة فى أقليم جبلى حصين فى آسيا الصغرى، والتى كانت تابعة منذ أمد بعيد لحكم أسرة فوقاس.(٣٤) وقد جعل بارداس هذه المدينة مركزاً لثورته وأعلن نفسه امبراطوراً مثلما فعل عمه من قبل فى نفس المدينة سنة ٩٦٣ .(٣٥) وتجمع حوله عدد كبير من الأتباع من المنتفعين والمغامرين . وقد تسببت حركة باراداس فى حرج شديد بالنسبة للامبراطورية، فى الوقت الذى كان عليها فيه أن تواصل الحرب ضد الروس. وعلى كل حال، فقد أتخذ تزيمسكس ما يلزم من خطوات للقضاء على هذا الخطر الداخلى . واعتمد فى ذلك على قائده الكبير ونسيبه السابق بارداس سكليرس Bardas Sclerus وأرسله فى الحال ضد مدعى العرش الثائر . (٣٦) وأظهر الامبراطور فى هذه الأزمة ما عرف عنه من سياسة إلى جانب ما هو معروف عنه من حزم . ففى الوقت الذى أرسل فيه قائده بارداس سكليروس على رأس جيش قوى فانه أمر هذا القائد أن يتصل بأنصار بارداس فوقاس ويستميل كبار أعوانه ببذل الأموال والوعد بالعفو عنهم . وآتت هذه السياسة ثمارها، وأخذ الأتباع

(34) C. M. H., vol, p. 81

٣٥ — شلومبرجيه ص ٦٣ — ص ٦٤

٣٦ — نجد أخبار ثورة بارداس فوقاس فى المصادر العربية مثلما جاء فى تاريخ يحيى الانطاكى حيث قال : « ولما ملك يانيس بن الشمشقيق عصى عليه بردس بن لاون القرېلاط وهو ابن أخى نقفور الملك واجتمع اليه خلق كثيرون ونزل قرب القسطنطينية . فجرى اليه يانس الملك وأرسل اليه بردس السقلاروس فى جيوش ضخمة فهزمه ... » ص ١٧

ينفضون من حول باراداس فوقاس الذى تابعته قوات الأمبراطور إلى حصن تريابون Tyriaion الواقع إلى الجنوب الغربى من قيصرية وضيقت عليه الخناق . ولما تبين عدم جدوى المقاومة فضل الاستسلام لباراداس سكليروس نظير الإبقاء على حياته وحياة أنصاره . وقد أبعد الأمير الثائر وأفراد أسرته إلى دير بجزيرة خيوس .(٣٧) وبهذا الشكل نجح تزيمسكس فى القضاء على هذا الخطر الداخلى الكبير ولم يسمح له باستفحال أو الاستمرار فترة طويلة تهدد كيان الامبراطورية . حقيقة أن فى العام التالى ، وفى الوقت الذى كان فيه تزيمسكس قائما على حصار الروس فى سلستريا ، حاول ليوفوقاس القربلاط أن يسترجع سلطته بعد أن تمكن وابنه نقفور من الفرار من منفاهما وجمعا حولهما بعض الأنصار وتسللا داخل القصر الامبراطورى . الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل منذ بدايتها ، لتعرف باسيل كبير وزراء تزيمسكس عليها . وقد ألقت قوات الحكومة القبض على ليوفوقاس وسملت عينيه وأعيد إرساله إلى المنفى .(٣٨)

ولقد آثر تزيمسكس منذ بداية عهده التفاهم مع رجال الدين وعدم الاصطدام بهم على النحو الذى فعله نقفور فوقاس ، وتتضح هذه السياسة فيما حدث عند اعتلائه للعرش . الا أنه ليس معنى ذلك أن هذا الأمبراطور كان على استعداد للتنازل عما له من نفوذ وسلطة فى الأمور الدينية . وإن

---

٣٧ ــ هناك اختلاف فى تحديد السنة التى قامت فيها ثورة بارداس فوقاس . فهناك من المؤرخين من يرون أنها كانت سنة ٩٧١ م ومنهم شلمبرجيه وفوجت ، أنظر شاومبرجية ص ٧٦ ، C. M. H., vol IV, p. 81. ولكن هناك من المؤرخين من يرى أنها كانت سنة ٩٧٠ م وأن استسلام بارداس الثائر كان فى أواخر نفس السنة (٩٧٠ م) ــ أنظر :

L. Bréhier. Vie et Mort de Byzance (Paris 1947), p. 199:

(38) Bréhier, ibid., p. 190; C. M: H:; vol: IV, p: 81:

المدقق فى دراسة هذا الموضوع يمكنه أن يتبين كيف أن هذا الامبراطور كان حريصاً على استعمال سلطته للتدخل فى المسائل الدينية الكبرى كلما تطلب الأمر ذلك وبالشكل سمحت به الظروف . فمنذ ما مات خريسطوفوروس Christopher بطريرك كنيسة أنطاكية التى كانت قدضمت الممتلكات البيزنطية منذ أواخر عهد نقفور فوقاس ، كان تزيمسكس هو الذى اقترح على بطريرك القسطنطينية بوليكتيس ، تعيين رئيس كنيسة انطاكية الجديد ، وهو الناسك تاودروس Theodore of Colonna وكان تزيمسكس يعرفه جيداً .(٣٩) وقد راعى الامبراطور فى اختياره أن يكون من يرشحه شخصاً تقياً يصلح لهذا المنصب الدينى الهام .

ولما مات بوليكتيس فى ٢٨ يناير ٩٧٠ م ، قدم تزيمسكس المرشح الجديد لمنصب بطريرك القسطنطينية وهو باسيل ، على المجلس الدينى الذى عقد لاختيار خليفة لبوليكتيس . والملاحظ فى اختيار تزيمسكس فى هذه المرة ، أن باسيل كان راهباً من رهبان دير أوليمبوس فى بيثينيا ، وكانت له مكانة خاصة لما عرف عنه من زهد وتقشف، كما كان من أصدقاء الامبراطور المقربين . ويقول المؤرخ البيزنطى المعاصر ليون الشماس ، أن تزيمسكس زكى هذا المرشح للمجلس الدينى الذى عقد فى القصر الامبراطورى ، مشيداً به وممجداً لميزاته الشخصية ، وبأنه كان يعرفه معرفة شخصية . وأضاف هذا المؤرخ أن تزيمسكس قال فى هذه المناسبة : انى أقر أن الله القوى خالق السموات والارض قد خلق سلطتين كبيرتين فى هذا العالم : السلطة الكنسية والسلطة الامبراطورية . والأولى وعليها شفاء الأرواح

---

٣٩ ـ كان تعيين بطريرك انطاكيه الجديد فى ١٢ ربيع الأول سنة ٣٥٩ هـ (٢٣ يناير سنة ٩٧٠ م) ـ يحيى الانطاكى ص ١٣٨ ـ انظر كذلك شلومبرجيه ص ٢٨ ـ ص ٢٩ .

والأخرى وعليها الاهتمام بالأبدان . وهكذا فما لم تتعرض احداهما للضرر ، تحققت صلاحية العالم . وعلى ذلك فما دام ذلك الذى كان يشرف على الكنيسة قد قضى نحبه ، فإن من حق ذلك الذى له عينان من نار ، والذى لا يخفى عنه شىء ، أن يحل مكان البطريرك الفقيد بطريركا جديدا ، يفوق الجميع وأجدرهم بالنهوض بأعباء هذا المنصب السامى . وانى لأعرف شخصاً جديراً كل الجدارة بهذا المنصب ، فلقد خبرته طويلا ، وأنا أنصبه اليوم بطريركا ، حتى لا تظل الفضائل غير العادية التى يتميز بها هذا الرجل ، والذى منحه الرب القدير - فضلا عنها - موهبة التنبؤ بالغيب ، حبيسة ركن مظلم فى الوجود . والحق أنه تنبأ لى بعدد كبير من الأحداث الجسام، فتحققت نبوءاته جميعا فى الأوقات التى حددها » . (٤٠)

ووافق المجلس الدينى المنعقد على تعيين البطريرك باسيل فى ١٣ فبراير سنة ٩٧٠م . (٤١) والظاهر أن الأمبراطور كان يعتقد أن البطريرك الجديد سوف يكون سهل الانقياد له ، كما كان ينتظر أن أمور الكنيسة ورجال الدين سوف تستقر وتنتظم فى عهده . ولكن الأمور تطورت على عكس ما كان يتوقع . وقد قام نزاع بين الإمبراطور والبطريرك أنتهى بعزل الأخير من منصبه سنة ٩٧٤ م . وكان من أسباب هذا الخلاف الذى وقع بينهما ، تصرف البطريرك أثناء الصراع الذى قام بين تزيمسكس والبابوية فى التسابق على فرض النفوذ فى أبوليا وكلاابريا فى جنوب ايطاليا . فإن بطريرك القسطنطينية قد رفض مجاراة تزيمسكس فى تحقيق رغبته فى قطع العلاقات

---

٤٠ - المرجع السابق ص ٣٢

٤١ - شلومبرجيه ص ٣٥ — ص ٣٦ ، C. M. H., vol: p. 80.

مع كنيسة روما وهناك أيضا رواية تشير إلى أن البطريرك باسيل اتصل بإحدى الشخصيات الكبيرة فى الامبراطورية وعرض عليه التاج الامبراطورى .(٤٢) واذا صح ذلك ، فإن المسألة لابد وأن أعتبرت خيانة عظمى هذا وقد أمد تصرف البطريرك مع رجال الكنيسة الامبراطور بسبب آخر للتخلص منه فإن باسيل بعد توليه منصبه ظهر منه تزمت شديد وأراد أن يفرض على الأساقفة وغيرهم من رجال الدين نظاما شديداً صارما . وبالغ فى مراقبة سلوكهم إلى حد أدى إلى الشعور بالضيق بينهم . وقد ضج هؤلاء بالشكوى وتقدم عدد منهم بشكواهم إلى الامبراطور طالبين منه التدخل .

وأمر الامبراطور باستدعاء البطريرك للمثول أمامه ومحاكمته . ولكن باسيل رفض ودفع فى رفضه بانه لا يجوز محاكمته ،طبقاللشريعة المسيحية ، إلا أمام مجلس مسكونى ، الأمر الذى كان يستلزم دعوة بابا روما . وبطبيعة الحال لم يوافق الإمبراطور على ذلك ، وقام بعزل باسيل ونفيه من القسطنطينية إلى دير سكاماندر فى سهل طروادة . وعين بعد ذلك بديلا لباسيل وهو أنطونيوس الذى كان من رهبان دير ستوديون Studion المعروف (٤٣) .

بينما فيما سبق موقف تزيمسكس من رجال الكنيسه وبالذات موقفه من بطريرك القسطنطينية . وحتى تكتمل صورة علاقة الامبراطور مع رجال الدين بصفة عامة ، لابد وأن نشير إلى علاقته مع الطوائف الدينية الأخرى وبالذات جماعات الرهبان . لقد كان سلفه الامبراطور

(42) Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise, vol. VII, p. 761. Gfroere, Byzantinische Gesch.; vol. II, p. 255.

٤٣ ـ شلومبرجيه ٢٦٤ ، C. M. H., vol. IV, p. 80: „

نقفور من قبل تربطه علاقات وثيقة مع القديس أثناسيوس الآثوسى Athanasius of Athos الذى وضع أساس دير لورا المجيدة The Great Laura . والمعروف عن تزيمسكس تدينه وعلاقاته الطيبة بالرهبان . وقد أصبح هو كذلك على صلة طيبة بالقديس أثناسيوس وسمح له بمواصلة بناء ديره والتوسع فيه ، حتى أن عدد الرهبان زاد زيادة كبيرة فى سنة ٩٧٠ م ، لدرجة تطلبت وضع لائحة تنظيمية جديدة عرفت باسم Typikon . إلا أن الرهبان لم يتقبلوا هذه اللائحة تقبلا حسنا ، ولم يهتموا بتطبيقها واعتبروا أن القديس أثناسيوس ولائحته غاية فى الشدة . ولجأوا إلى الامبراطور الذى بحث الأمر وتبين ما كان بهذه اللائحة من نقص . إلا أنه أتخذ جانب القديس أثناسيوس وناصره . وفى الاجتماع الدينى الذى أمر تزيمسكس بعقده ، والذى حضره هذا القديس وبعض كبار رجال الكنيسة سنة ٩٧٢ م ، أصدر الامبراطور قراراً بالموافقة على لائحة أثناسيوس ، كما أقر الابقاء على جميع الامتيازات الخاصة بالدير المذكور والتى كانت منحها له الامبراطور نقفور . وفضلا عن ذلك وافق تزيمسكس على أن يكون الدير هيئة دينية مستقلة تخضع لرئيسه . ولازالت النظم التى حددت فى هذا الاجتماع سارية ويجرى العمل بها إلى يومنا هذا.(٤٤)

ويتضح مما سبق عرضه أن تزيمسكس أهتم فى سياسته لداخلية بالشئون الدينية والاصلاحات الكنسية ، مع حرصه على ممارسة ماله من نفوذ وسلطان على الكنيسة نفسها . وعلى العموم فإن علاقته برجال الكنيسة كانت أفضل نسبياً من علاقة نقفور فوقاس بهم .

---

٤٤ ـ شلومبرجيه ص ٣٢٣ ـ ص ٣٢٦ ، C. M. H., vol IV, pp. 80 - 81

ولقد كان فى المجال الخارجى أن كرس تزيمسكس معظم جهوده وأبلى فى ذلك بلاء حسنا أكسبه المجد والشهرة . وكان عليه فى هذا المجـال أن يكافـح فى جبهات متعددة ضد عناصر مختلفة ، وخاصة الروس والبلغار فى شبه جزيرة البلقان ، والعناصر اللاتينية بمـا فى ذلك الامبراطورية الغربية والبابوية فى شبه الجزيرة الايطالية ، والمسلمين فى الجبهة الشرقية .

كان من أهم المشاكل الخارجية التى ورثها تزيمسكس عن نقفور فوقاس مشكلة الخطر الروسى فى الجبهة البلغارية . فهناك كانت الأمور قد تعقدت نتيجة لاستعانة نقفور بالروس تحت قيادة الأمير سفياتوسلاف . ذلك أن على أثر الانتصارات التى أحـرزها الروس على البلغار استقر السابقون فى البلاد البلغارية التى غزوها ، وأخذوا يتطلعون لمهاجمة أراضى الامبراطورية البيزنطية نفسها . وكان مما شجعهم على ذلك موت نقفور ففى ربيع سنة ٩٧٠ م تقدم الأمير سفياتوسلاف بقواته وأستولى على فيليبو بوليس الواقعة على الحـدود البيزنطية ، ثم توغل فى تراقيا ومقدونيا ، مخربا كافة البلاد التى وقعت فى طريقه . وأصبحت قواته على مقربة من القسطنطينية نفسها . وجاء فى احـدى الحوليـات الروسيـة المعاصرة أن سفياتوسلاف « قد أوشك على الوصول إلى مدينة القيصر — أى القسطنطينية ».(٤٥) هذا وقد ظهر احتمال قيام تحالف روسى بلغارى ضد بيزنطة . وحاول تزيمسكس تسوية المشكلة الروسية بالإلتجاء إلى الطريقة الدبلوماسية وعقد اتفاقية مع سفياتوسلاف وعرض عليه أن يدفع له المبلغ الذى كان نقفور قد أتفق مع الروس عليه نظير مساعدتهم له فى الحرب ضد البلغار .(٤٦) الا أن هـذه

---

٤٥ ــ هذه الحولية تعرف باسم «The Laurentian Chronicle»

انظر : Vasiliev, Byz. Emp., p. 319

٤٦ ــ شلومبرجيه ص ٤١

المحاولة باءت بالفشل ، حيث أن السيد الجديد فى بلغاريا أعلن أنه لا يرضى بشىء أقل من أن يتخلى له البيزنطيون عن ممتلكاتهم فى أوربا بما فى ذلك العاصمة نفسها ، وانسحابهم إلى ممتلكاتهم الآسيوية .(٤٧)

وهكذا أصبح من الضرورى على تزيمسكس الإلتجاء إلى قوة السلاح لمواجهة الروس . وكانت حملاته ضدهم من أبرع الحملات العسكرية فى التاريخ البيزنطى . وكانت بداية هجوم تزيمسكس المضاد فى ابريل سنة ٩٧١ م .ولم يستغرق هذا زمنا طويلا ، الا أنه كان شديدا فى قوته وحاسما فى نتائجه . بدأ تزيمسكس هجومه بالتقدم ضد مدينة برسلاف Preslav ، عاصمة البلغار التى كانت فى أيدى الروس ، وتمكن من أقتحام المدينة بعد معركة عنيفة . وكان من الأسرى الذين وقعوا فى قبضته القيصر البلغارى المعزول . وعمد تزيمسكس إلى استمالة العنصر البلغارى فى صراعه ضد الروس ، ولذا فقد وافق على الابقاء على حياة هذا القيصر بل وعهد اليه بحكم البلغار . وكان لانتصار تزيمسكس فى برسلاف وتعيينه لهذا القيصر وقعه عند البلغار الذين أخذوا يتخلون عن سفياتوسلاف . وتقدم تزيمسكس بعد ذلك من برسلاف إلى مدينةسليسترا Silistra (Duro stolus) الواقعة على الدانوب، والتى كان الأمير الروسى أعتصم بها واتخذها قاعدة لمقاومته . وأحاطت قوات تزيمسكس بسليسترا برا فى الوقت الذى حاصرتها فيه القوات البحريه البيزنطية بحرا مستعملة فى حصارها النار الاغريقية • وضيق المحاصرون الخناق على الروس . وفى أواخر يوليو سنة ٩٧١ م فشلت آخر محاولاتهم للتخلص من الحصار الذى ضرب حولهم • وعلى ذلك اضطر سيفياتوسلاف للاستسلام للامبراطور بمقتضى الاتفاقية التى وقعت بينهما

---

٤٧ ـ المرجع السابق ص ٤٢

فى الشهر المذكور .(٤٨) وقد وصلت إلى ايدينا نصوص تلك الاتفاقية عن طريق احدى الحوليات الروسية المعاصرة .(٤٩) ووافق سيفاتوسلاف على الأنسحاب من البلاد البلغارية فى الحال ، كما وعد ألا يعاود الظهور مطلقا فى البلاد البلقانية ، وألا يشن أى هجوم على خرسون Cherson التابعة للامبراطورية البيزنطية .وفضلا عن ذلك كله ، فقد وعده بمساعدة البيزنطيين عسكريا فى القتال ضد أعدائهم . وسمح تزيمسكس بعد عقد هذه الإتفاقية بارسال المؤن الغذائية للقوات الروسية التى كانت تتضور جوعا بسبب الحصار الذى كان مفروضا عليها . كما وافق على منح الروس إمتيازاتهم التجارية السابقة . وأخذ سفياتوسلاف بعد ذلك طريق العودة إلى وطنه . الا أن قبائل الأتراك البجناكية Patzinaks فاجأته فى الطريق وأوقعت به وقتلته ، واتخذ رئيسها من رأسه كأسا لشرابه . (٥٠) ومهما يكن من الأمر ، فقد حققت الإنتصارات الكبرى التى أحرزها تزيمسكس على الروس فائدتين كبيرتين.الأولى وهى التخلص من الخطر الروسى الذى عرض كيان الامبراطورية للخطر . والفائدة الثانية وهى فرض النفوذ البيزنطى على جميع أنحاء الجزء الشرقى من بلغاريا .

وقد نالت السياسة البيزنطية التقليدية الهادفة للابقاء على النفوذ

---

٤٨ ـ بشأن تحقيق السنة التى تغلب فيها تزيمسكس على الروس أنظر الملحق السادس .

٤٩ ـ بخصوص نصوص الاتفاقية البيزنطية الروسية ارجع الى :
Russian Primary Chronicle (Eng. trans. Cross, 1953) p. 89 ff.
انظر كذلك شلومبرجيه ص ١٤٩ ـ ص ١٦٨

(50) Ostrogorsky, p. 262 ; شلومبرجيه ص ١٧١ ـ ١٧٢

البيزنطى فى جنوب ايطاليا وصقلية اهتمام تزيمسكس ، ولو أن الأحوال فى هذه الانحاء لم تتطور بشكل خطير يستدعى تدخلا عسكريا كبيرا على النحو الذى حدث فى الميادين الاخرى . وللمحافظة على ما كان لبيزنطه من نفوذ فى إيطاليا ، لجأ تزيمسكس إلى الطرق الدبلوماسية للاتفاق مع الامبراطورية الغربية التى كانت تمثل إحدى القوى المنافسة له جنوب ايطاليا ، وذلك بعقد اتفاقية معها ، ودعمها بعقد زواج سياسى بين الطرفين الغربى والبيزنطى. فقد وصلت إلى بيزنطة فى أواخر سنة ٩٧١ م سفارة المانية جديدة لتفتح من جديد باب المفاوضات التى كانت توقفت فى عهد نقفور فوقاس ، والخاصة بالتمهيد لعقد هذا الزواج . وتم الاتفاق على زواج ثيوفانو ، ابنة رومانوس الثانى وأخت الامبراطور باسيل الثانى ، من وريث العرش الامبراطورى فى الغرب الذى توج فيما بعد باسم الامبراطور أوتو الثانى Otto II . وأرسلت هذه الاميرة إلى ايطاليا وتم عقد قرانها فى روما فى ١٤ أبريل سنة ٩٧٢ (٥١) م. وهكذا فإن الصراع مع الامبراطورية الغربية الذى كان تطور فى ايطاليا بسبب موقف نقفور الشديد ، قد خمد على الأقل لفترة من الزمان ، مع المحافظة على الحدود فى حالتها الراهنة .

أما القوة السياسية الرئيسية الأخرى التى كانت تواجه البيزنطيين فى جنوب ايطاليا وصقلية ، وهى قوة المسلمين ، فلم تقم بتهديد كبير للنفوذ البيزنطى هناك وخاصة فى المرحلة الأولى من عهد تزيمسكس . اذ أن الفاطميين الذين دأبوا على فرض نفوذهم فى هذه الأنحاء ، نقلوا مركز حكمهم من شمال أفريقيا إلى القاهرة وعهدوا بحكم ممتلكاتهم فى صقلية إلى عمالهم .

---

(51) C. M. H., vol IV, p. 81

وترتب على ذلك أن خفت حدة الهجوم الاسلامى هناك لفترة من الزمان.(٥٢)

ومنذ بداية عهده كان تزيمسكس متحمساً ،مثل سلفه نقفور فوقاس ، لمواصلة الهجوم ضد المسلمين فى الشرق الأدنى واسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة ،الأمر الذى سنوضحه فيما بعد . الا أن مشاكله الأوربية لم تمكنه من تكريس جهوده فى الشرق فى الفترة الأولى من عهده . وعلى كل حال ، فإن تزيمسكس أثناء هذه الفترة ، وفى علاقاته الأوربية حاول أن يستغل ما كان للامبراطورية من نفوذ ،لكى يمهد لما كان ينوى القيام به من هجوم على الشرق ، وذلك باتخاذ خطوات خاصة لإضعاف قوى المسلمين العسكرية. ذلك أنه أدرك منذ بادىء الأمر خطورة آثار حركة التجارة التى قامت بها المدن التجارية الايطالية وخاصة البندقية مع المسلمين . اذ كان التجار من هذه البلاد يمدون المسلمين بما يلزمهم من الحديد والأخشاب اللازمة لبناء السفن ، كما أمدوهم بأنواع من الاسلحة مثل الدروع والتروس والسيوف والرماح وغيرها. حقيقة أن هذه التجارة عادت على التجار الايطاليين بالربح الوفير ، الا أنها كانت خطيرة فى نتائجها،من حيث أنها عملت على زيادة القوة العسكرية لدى المسلمين،الذين كانوا أعداء للبيزنطيين . ولم يكن هذا الوضع بالذى يرضى عنه الاباطرة المقدونيون. وحيث أن البندقية كانت تحت السيادة البيزنطية ، فقد عمل تزيمسكس على التدخل لايقاف هذه التجارة . وتذكر المصادر التاريخية أن تزيمسكس أرسل فى يوليو سنة ٩٧١ م وفداً خاصاً إلى البندقية للاحتجاج على هذه التجارة التى تقوم بها سفنها مع المسلمين .

---

٢ ـ بخصوص تفاصيل العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين فى جنوب ايطاليا فى عهد تزيمسكس أنظر : شلومبرجيه ص ٢٠٧ ـ ص ٢١٨ ، الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ، حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المعز لدين الله الفاطمى (القاهرة ـ ١٩٤٨) ص ٦١ ـ ص ٦٦ .

وهدد هذا الوفد، باسم الأمبراطور، بإحراق هـــذه السفن وما عليها من شحنات إذا لم يحرم البنادقة تجارتهم المذكورة . وعلى ذلك اضطر البنادقة إلى أن يتخذوا من الاجـراءات مايلزم لترضية الامبراطور . وقد اجتمـع الدوج Dogo بطرس الرابع كانديانو Candiano مع المسئولين فى البندقية وعدد كبير من أعيان المدينة وأهلها . وبعد نقاش طويل ، اتخذ المجتمعون قراراً بعدم بيع السلع المحظورة للمسلمين .(٥٣) وأن هـذا القرار يبين لنـا ما كان تزيمسكس يمارسة من نفوذ على البندقية ، كما أنه فى نفس الوقت يدل على مدى اهتمامه بالصراع الذى اعتزم القيام به ضد المسلمين فى الشرق.

وعلى كل حال فبعـد أن نجح تزيمسكس فى القضاء على خطـر الروس وثورة بارداس فوقاس ، وتسوية علاقاته مع الأمبراطورية الغربية ، أصبح فى استطاعتـه أن يولى اهتمامه لشئون الامبراطورية فى الشرق الأدنى . وبدءا من منتصف سنة ٩٧٢ م كرس نشاطه لهذا الميدان حيث ظهر بنفسه على رأس عدة حملات لينازل المسلمين ويشرف شخصياً على تنفيذ السياسة البيزنطية .

٥٣ ــ أنظر الوثيقة الخاصة بضغط تزيمسكس على البنادقة والتعهد الذى أتخـذه دميهم وحكومتهم بحظر الاتجار فى سلع معينة مع المسلمين ، فى الملحق الثانى للكتاب .

الفصل الثالث

الشرق الأدنى الاسلامى قبيل هجوم تزيمسكس

اضمحلال الدولة العباسية وتغلب بنى بويه على العراق — حكم امير الامراء البويهى بختيار – امارة الحمدانيين فى اقليم الجزيرة : ابو تغلب الحمدانى ومشاكله – الاضطرابات الداخلية فى العراق : الصراع بين الاتراك والبويهيين وآثاره

اضطراب الاحوال السياسية فى الشام – الاخشيديون وصراعهم مع امارة حلب الحمدانية – القرامطة وتدخلهم فى الشام – نشاط القبائل العربية بداية التوسع الفاطمى فى الشام – الصراع بين الفاطميين وخصومهم فى الشام : مقاومة السنيين وحروب القرامطة ، حركة المغامر التركى افتكين

موقف المسلمين بالنسبة للجهاد ضد الهجوم البيزنطى – الحالة المعنوية بين المسلمين امام الخطر البيزنطى

عند اعتلاء الامبراطور تزيمسكس عرش الامبراطورية البيزنطية ، كانت ظروف المسلمين فى الشرق الأدنى مهيأة إلى حد كبير لكى يواصل هذا الأمبراطور عملية الهجوم التى كان البيزنطيون قد بدأوها ضد المسلمين فى الشرق . فمنذ أواخر القرن التاسع الميلادى ، وفى الوقت الذى كانت فيه قوة بيزنطة آخذة فى الإزدياد والنمو ، كان عهد قوة الدولة الاسلامية الكبرى التى شيدها العباسيون الأول قد ولى ، وأخذت هذه الدولة تعانى من الانحلال السياسى وما ترتب على ذلك من ضعف . فقد تجزأت تلك الدولة إلى دويلات متنافسة متعددة ، فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة العباسيين المركزية . ولقد أصبح خلفاؤهم مغلوبين على أمرهم فى العراق بل وفى نفس عاصمة دولتهم ، حتى أصبحوا أشبه بالألعوبه فى أيدى العناصر التى

حكمت بغداد والعراق . فقد تغلبت على الجـزء الشرقى من الدولة العباسية العناصر الفارسية ووطدت سلطتها على حساب نفوذ الخلفاء العباسيين . وقد قام السامانيون فى الجزء الشرقى من بلاد فارس متخذين من بخارى وسمرقند عاصمتين لهم وحكموا فترة أستغرقت معظم القرن العاشر الميلادى (٩٠٣ ـ ٩٩٠ م) . كما قامت أسرة فارسية أخـرى فى الجـزء الغربى من بلاد فارس وأخضعت العراق وبغدادلحـكمها.وكانت هذه هى الأسرة البويهية الشيعية التى استمر حكمها فى بغداد من سنة ٩٤٥ حتى سنة ١٠٥٥ م .

حقيقة أن أمراء هذه الأسرة البويهية لم يقضوا على حكم بنى العباس فى بغداد ، إلا أنهم أستأثروا بالسلطة الفعلية من دونهم . وللاستشهاد على مدى ضعف العباسيين حينئذ ، يكفى أن نشير إلى ما حـدث فى عهد أول أمرائهم ، معز الدولة . فان هـذا الأمير الذى أصبـح يشغل وظيفة « أمير الأمراء » أصر على ذكر اسمه مع اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، وأن يسك اسمه كـذلك على العملة .[1] بل لقد تمـكن من القبض على الخليفة المعاصر له وهو المستكفى وعزله وسمل عينيـه ، وقام بعد ذلك بتعيين خليفة له وهو المطيع (٩٤٦ ـ ٩٧٤م) .[2] ولا يخفى ما كان فى ذلك من الضعف والإذلال اللذين عانى منهما الخلفاء العباسيون فى عصر بنى بويه. والواقع أن البويهيين طوال حكمهم واصلوا سياستهم القائمة على ابعاد الخلفاء عن ممارسة شئون الحـكم ، وصاروا يولونهم ويعزلونهم وفق هواهم بعـد أن صارت السلطة الحقيقة لهم .

وقد كان لظهـور العناصر الفارسية على مسرح الحـوادث السياسية

---

١ ــ مسكويه : كتاب تجارب الأمم (نشرة ف اميدروز ــ القاهرة القاهرة ، ١٩١٥ ج ٢ ص ٨٤ ــ ٨٥

٢ ــ كان خلـع للمستكفى فى ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ــ ابن الأثير ج ٨ ص١٧٦ ــ ص ١٧٧ ، مسكويه ج ٢ ص ٨٦ ــ ص ٨٧

واستحواذهم على السلطة فى بغداد وما يتبعها فى العـراق ، آثاره السيئة على حدود الاسلام المشتركة مع الامبراطورية البيزنطية . فإن محور اهتمام هذه العنـاصر كان بلادفارس والاقاليم التابعة لهـا . ولم يكترثوا كثيراً بشئون شمال العراق (اقليم الجزيرة) أوالبلاد الشامية أومايليها من البلاد الاسلامية. وفضلا عن ذلك فإن المنافسات التى قامت بين أمراء البيت البويهى لم تـكن بالتى تساعدهم فى التغلب على مشاكلهم المحلية والاهتمام بشئون اقليم الجزيرة والشام التى أصبحت هدفا للهجوم البيزنطى .

وكان أمير الأمراء البويهى المسئول عن شئون الخلافة العباسية ببغداد والعراق عامة أثناء الهجوم الذى قام به كل من نقفور فوقاس وتزيمسكس هو عز الدولة بختيار[٣] وهو ابن معز الدولة وثانى الأمراء البويهيين الذين حكموا فى العراق . وكان أقل من أبيه خـبرة ودراية بالشئون السياسية بدولته ، ولم تتوفر لديه المقدرة لمواجهة المشاكل المختلفة التى كان عليه أن يواجهها . وأن الوصية التى اوصاه بها أبوه عند موته ، والتى وصلت إلى أيدينا ، تشير إلى السياسة التى نصحه أبوه باتباعهـا كما تدل على المشاكل والعناصر التى كانت يخشى منهاعلى حكمه وقد قال المؤرخ مسكويه فى ذلك « كانأبوه معز الدولة حين أيقن بالتلف ،وصاه بطاعة ركن الدولة واستشارته فى كل ما يعرض له من مهم ، وكذلك بطاعته لابن عمه عضد الدولة ، لأنه أسن منه وأقوم بالسياسة . ووصاه باقرار كاتبيه أبىالفضل العباسى بنالحسين وأبى الفرج محمد بن العباس ، فإنهما أكفى من غيرهما وأعـرف بوجوه الخدمة . ووصاه بمداراة الديلم وازاحة عللهم عنـد أوقات استحقاقتهم ،

٣ — كانت مدة حكم بختيار هي ٣٥٦ — ٣٦٧ هـ = ٩٦٦/٩٦٧ — ٩٧٧ — ٩٧٨ م)

لئلا يخرقوا هيبته بالشغب وطلب الفتن. ووصاه بالإحسان إلى الاتراك ، فانهم جمرة عسكره ، وإذا رابه الديلم ريب أمكنه أن يقمعهم . ووصاه بالإحسان إلى الأتراك بكبار الحاشية وصغارهم وأن يجريهم على عادتهم ورسومهم . » [٤]

وبالرغم من توجيهات أبيه وما أوصاه به وما كانت تقتضيه الظروف الداخلية والخارجية بدولته من حذر وحزم وحسن تصرف ، أنصرف بختيار إلى حياة المجون . وكان ما أظهره من سوء التصرف وسوء تدبير أمور الدولة ، موضع نقد ولوم من جانب عدد من مؤرخي هذا العصر أمثال مسكويه وابن الأثير .[٥] كما أن ذلك أدى إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية وظهور ضائقة مالية عانت منها البلاد ، هذا إلى جانب ما تسبب فيه بختيار من اثارة العناصر المعادية له مما أدى إلى كثرة الفتن والاضطرابات بداخل مملكته . ونشاهد أثناء عهده إستياء العناصر التركية التى كانت تكون جزءاً كبيراً من جيش بغداد والتى كان على رأسها الحاجب التركى سبكتكين وقد تطور هذا الشعور وأدى إلى اشتباكات عسكرية وقتال بين الأتراك والديلم من أنصار بختيار. كما عانى السلطان فى عهده بختيار من كثرة قيام الاشتباكات بين أهل السنة والشيعة واشتراك العامة فيها . وقد أسهمت جماعة « العيارين » كذلك بقدر كبير فى اضطراب الأحوال ببغداد . وهذه الجماعة نوع من نظام الفتوة يشبه جماعة « الأحداث » التى ظهرت فى بعض مدن الشام . وكانت عناصر العيارين تتجمع عادة من الحاربين من العناصر الفقيرة . وبشكل عام كان مسلكهم أكثر عنفا

٤ ـ مسكويه ج ٢ ص ٢٣٤ ـ راجع كذلك الرواية المشابهة لهذه الوصية التى جاءت فى ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٧

٥ ـ مسكويه ج ٢ ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٧

من « الاحداث » فى الشام . وقد لعب العيارون دوراً هاما فى تشكيل جبهة معارضة أهلية ضد السلطات الحكومية ، كما أسهموا فى بعض الحالات فى الجهاد فى مناطق الثغور . وقد كان للعيارين نشاط ملحوظ فى أحداث العراق عامة وبغداد خاصة خلال الفترة التى تعرضت فيها بلاد الجزيرة لهجوم الامبراطور تزيمسكس .(٦) وفضلا عن ذلك ، فلم يكن بختيار صاحب السلطة العليا على البويهيين ، إذ كان عليه أن يعمل حساب عمه ركن الدولة صاحب الرى وهمذان ، وابن عمه عضد الدوله الذى كان يحكم فارس . وقد كان هذا الأخير على قدر كبير من القوة ، وكان مصدر إزعاج كبير لبختيار . فان عضد الدولة كان طموحا راغبا فى التوسع وضم أملاك بختيار . وكان عضد الدولة هو الذى تمكن فى النهاية من بلوغ أكبر درجة من القوة تصل اليها دولة البويهيين .

هذا وقد نجح الحمدانيون فى إقتطاع إمارة أو دويلة خاصة بهم باقليم الجزيرة فى شمال العراق مركزها مدينة الموصل[٧] . واستمرت هذه الإمارة

٦ — امتد نشاط العارين فى الفترة الممتدة من القرن الربع الهجرى (١٠ م) إلى القرن السادس الهجرى (١٢ م) . وبخصوص تفاصيل ما قام به العيارون فى عهد هجوم تزيمسكس راجع أحداث السنوات ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ هـ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤ ، ص ٣٤٨ ، ٢٥٠ — ص ١٥٥ ، مسكويه ج ٢ ص ٢٣٤ — ص ٢٣٧ ص ٣٠٤ — ص ٣٠٥ ، ص ٣٢٨ ، كتاب الفتوة (تـد . مصطفى جواد وغيره ـ ١٩٦٠م) ص ٢٤ ، ص ٢٧ ، ص ٣٠ وغيرها — أنظر كذلك التعليق على نظم العيارين فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٧ الحاشية (١) ،

Fr. Taeschner, « Ayyar », The Encyclopaedia of Islam (New Edition) vol. I, 794.

٧ — عرف اقليم الجزيرة الواقع فى شمال العراق عند بعض الجغرافيين العرب باسم « أقورة » ولتحقيق هذا الاسم أنظر الملحق السابع .

من سنة ٩٢٩ إلى سنة ٩٩١ م . وكان المسئول عنها وقت هجوم تزيمسكس الأمير أبو تغلب الابن الأكبر لناصر الدولة الحمدانى .(٨) وقد وقع على عاتق هذه الإمارة العبء الأكبر فى مواجهة الهجوم البيزنطى على شمال العراق . وبشكل عام لم تكن الأحوال الداخلية أو الخارجية لهذه الإمارة بالتى تسمح لها بالاستعداد أو التفرغ لمقابلة الخطر البيزنطى . فقد عانت من الصراع الداخلى الذى قام بين أبناء ناصر الدولة الذين إنقسمو إلى قسمين متنافسين ، أحدهما يناصر أبا تغلب والآخر يناصر أخاه حمدان . وعلى أثر انتصار أبى تغلب على أخيه لجأ الأخير إلى أمير الأمراء البويهى بختيار طالبا المساعدة (٩) .وكان من الطبيعى أن يرحب بختيار بهذه الفرصة ليتدخل فى شئون إمارة الموصل ويفرض سلطانه عليها متذرعا برغبته فى نصرة الأمير حمدان . وترتب على ذلك إعلان الحرب بين بختيار وأبى تغلب . فقد توجه بختيار على رأس حملة إلى الموصلة فى ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٣ م) بغرض الاستيلاء عليها . ولما بلغت أبا تغلب هذه الأخبار ، أخلى المدينة من الميرة ثم رحل عنها وتمكن بختيار من دخولها أما أبو تغلب فقد أنتهز فرصة تغيب عدوه عن بغداد وخلوها من جنده، فأتجه وعسكر عندها وكاد أن يستولى عليها . واستمر الخلاف بين الطرفين إلى أن أتفقا على عقد صلح ، كان من شروطه رحيل بختيار عن الموصل ورجوع أبى تغلب اليها ، وعقد زواج سياسى ، حيث وافق بختيار على زواج ابنته من أبى تغلب . كما أنعم بختيار على أبى تغلب بلقب سلطان . وتم رحيل بختيار عن الموصل فى ١٧ رجب ٣٦٣ هـ (١٣ أبريل سنة ٩٧٤ م) .(١٠)

---

٨ ـ مدة حكم أبى تغلب كانت (٣٥٨ ـ ٣٦٩ هـ = ٩٦٨ / ٩٦٩ ـ ٩٧٩ / ٩٨٠)

٩ ـ كان انتصار أبى تغلب عليه اخيه سنة ٣٥٩ هـ (نوفمبر ٩٦٩ ـ ٩٧٠ م)

١٠ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٩ ـ ص ٢٥٠

وتلت هذه المشكلة السياسية مشكلة أخرى أكبر منها وأكبر خطراً على اقليم الجزيرة والعراق عامة . فلقد تعرضت هذه البلاد لمرحلة خطيرة من الإضطراب الداخلي نتيجة لتصارع القوى السياسية المختلفة بها . وبدأت هذه المرحلة قبيل الحملة الكبرى، التي قام بها الامبراطور تزيمسكس في خريف سنة ٩٧٤ م على بلاد الجزيرة وأراد أثناءها أن يستولى على بغداد نفسها، واستمرت إلى ما بعد رجوع هذا الإمبراطور إلى بلاده . وقد شهدت هذه المرحلة اصطداما بين أهل السنة والشيعة ، كما شهدت نشاط العيارين في بغداد . وفضلا عن ذلك فقد وقع قتال خطير بين الديلم وعلى رأسهم بختيار ، والاتراك وعلى رأسهم الحاجب سبكتكين ، ومن بعده القائد التركي أفتكين . واشتركت في هذا التصارع الداخلي قوات ركن الدولة البويهي صاحب الري وهمذان وقوات عضد الدولة البويهي صاحب فارس، وكذلك قوات بعض الأمراء العرب بما فيهم أبي تغلب صاحب الموصل ، على أثر استدعاء بختيار لهم وطلب النجدة منهم . ومن الواضح أن هذا الإضطراب العام الذي ساد العراق في هذه الفترة الحرجة التي وقع فيها هجوم تزيمسكس قد أدى إلى إضعاف مقاومة المسلمين في البلاد الواقعة في طريق تقدم البيزنطيين ، وذلك لانشغال المسئولين في العراق بصراعهم الداخلي . وقد ترتبت على ذلك نتائج وخيمة بالنسبة للمسلمين .

ولتفسير هذه المرحلة المذكورة من الإضطراب يجب أن نرجع أولا إلى الضائقة المالية التي عاني منها بختيار وازدادت شدة ، في الوقت الذي طالب فيه الجنود باجورهم المتأخرة . وقد تحرج مركز بختيار . وإلى جانب ذلك، فقد كان بختيار متضايقا من نفوذ زعماء الأتراك وعلى رأسهم سبكتكين وما كان تحت أيديهم من اقطاعات وثروة . ولذا ، فلما أشار عليه بعض

مستشاريه بالقبض عليهم ومصادرة اقطاعاتهم حتى يحد من نفوذهم ويزيد من موارده المالية ، صادف ذلك هوى فى نفسه . وعلى ذلك ، فقد أصدر وهو بالأهواز أمرا بالقبض على زعمائهم ومصادرة أموالهم واخراج عدد منهم من البلاد التابعة له . وكتب بختيار إلى أتباعه فى بغداد بذلك مع النص على مصادرة اقطاع سبكتكين وعزله من الحجابة .

وكان لهذه الإجراءات التى اتخذها بختيار رد فعل كبير بين الاتراك ، وسرعان ما نشب الصراع بينهم وبين عناصر الديلم فى كثير من بلاد العراق . فقد جمع سبكتكين أنصاره من الاتراك فى بغداد لمقاومة البويهيين . وانحازت اليه كذلك طوائف العامة من السنيين . أما الشيعة فتحيزوا لجماعة بختيار . وقد تمكن سبكتكين من التغلب على أخوى بختيار فى بغداد ونهب بيوتهما وأحرقهاوأخرجهما وأقاربهما من المدينة . وأثناء هذا الإضطراب الداخلى ببغداد، نسمع عن مهاجمة جماعات العيارين للتجار واعتدائهم على أموالهم ومنازلهم وحريمهم . وقد جاء فى تاريخ ابن الجوزى فى وصف نشاطهم اذ ذاك ، أن العيارين « ركبوا الخيل وتلقبو بالقواد وأخذوا الخفر من الاسواق والدروب » ولما خشى الخليفة المطيع على نفسه من اضطراب الاحوال وحاول الخروج من بغداد ، قبض عليه أنصار سبكتكين الذى اجبره على التنازل عن الخلافة لابنه الطائع فى ٥ أغسطس ٩٧٤ م (١٣ ذى القعدة ٣٦٣ هـ) . واعترف الخليفة الطائع بسبكتكين أميراً للأمراء ، كما منحه لقب ناصر الدولة . وهكذا فقد صارت للاتراك الغلبة على بغداد (١١) .

١١ — مسكويه ج ٢ ، ص ٣٠٣ — ص ٣٢٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٥٠ ، — ص ٢٥٢ ، يحيى الانطاكى ص١٤٢ — ص١٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢٧٩

وأمام هذه الأحداث ، اضطر بختيار للقيام من الاهواز والإتجاه إلى بغداد لمواجهة التطورات التي كادت أن تعصف بملكه، ووصل إلى واسط. وإلى جانب ذلك طلب المساعدة من عمه ركن الدولة وابنه عضد الدولة فناخسرو . وجهز ركن الدولة عسكراً مع وزيره ابن العميد ، وكتب إلى ابنه عضد الدولة يحثه على القيام لمساعدة بختيار ، إلا أن عضد الدولة تلكأ في عمل ذلك . فإنه مع ما أظهره من استعداد لنجدته ، كان في حقيقة الأمر ، يرغب في تحقيق مصالحه الذاتية ، وضم العراق لممتلكاته الخاصة . وعلى ذلك فقد آثر عضد الدولة الانتظار حتى تضعف قوة المتحاربين في القتال ، فيتدخل بعد ذلك . وطلب بختيار كذلك المساعدة من ولاة الأطراف التابعين له بما فيهم أبي تغلب الحمداني أمير الموصل ، وزوج ابنته : ووعد بختيار أبا تغلب بأن يسقط عنه الجزية التي كان يفرضها عليه .[١٢] وقد رحب أبو تغلب بهذه الفرصة ليتدخل في هذا الصراع ويستغله لصالحه. وسارع بارسال أخيه أبا عبدالله الحسين إلى تكريت على رأس جيش ،مترقباً خروج الأتراك من بغداد لمقابلة بختيار لينزل عليها ويحتلها .[١٣]

ولقد خرج الأتراك تحت قيادة سبكتكين وساروا لمقابلة بختيار عند واسط . ولما توفى سبكتكين قدموا للرئاسة عليهم أفتكين ، الذي كان أحد كبار الأتراك في بغداد .[١٤] وقد أخذ اسمه في الظهور في عهد بختيار .

---

١٢ ـ بخصوص المراسلات التي دارت بين بختيار والأمراء الذين طلب منهم المساعدة ، أنظر مسكوية ج ٢ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢

١٣ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥

١٤ ـ ذكر هذا القائد في بعض المصادر الغربية باسم « الفتكين » واسمه بالكامل أبو منصور التركي الغرابي ، وهو في الأصل مولى معز الدولة بن بويه - وقد كانت وفاة كل من سبكتكين والخليفة المعزول المطيع في دير العاقول وقد حملا بعد ذلك إلى بغداد ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٤

وكان هذا القائد فارساً مبرزاً تميز بالشجاعة وشدة المراس والمهارة فى القتال ، كما كان رجـــل دولة يعرف كيف يقابل الظروف السياسية المختلفة بحنكة ومهارة وكانت هذه المميزات هى التى جعلت الاتراك يعقدون له ويولونه رئاستهم . واستمر القتال بين الاتراك والبويهيين عند واسط نحـو خمسين يوماً ، كانت الغلبة فيه للأتراك .

وعلى أثر تحرج موقف البويهيين ، جدد بختيار طلب النجدة من عضد الدولة ، الذى رأى أن الموقف أصبح مناسباً لحضوره وتدخله . وعلى ذلك تقدم ومعه ابن العميد وزير أبيـه ، على رأس قواتها إلى واسط . ولما بلغت هذه الاخبار أفتكين ،قرر الانسحاب إلى بغداد أما أبوتغلب الحمدانى الذى كان قد ذهب إلى بغداد منذ فترة سابقة ، وعمل على فـــرض النظام والأمن بها أثناء غياب كل من بختيار والاتراك ، فإنه لما تبين عزم أفتكين على الرجوع إلى هذه العاصمة ، وتوقـع قيام الموقعة الفاصلة بين الاتراك والبويهيين عندها ، فقـد آثر العودة إلى الموصل . وكان من الأسباب التى دعته إلى هذا القرار هو ما صادفه من متاعب مـع بعض أتباعه .[15] وفى هذه الظروف رجع أفتكين إلى بغداد :

واجه أفتكين بعد عودته إلى بغداد مجموعة من الصعاب . فإن أبا تغلب الحمدانى ، بعد ذهابه إلى الموصل ، أخذ يرسل سراياه لمنع وصول الميرة إلى أفتكين . وأرتفعت أسعار الطعام ببغداد . وتحرك العيارون وعناصر المفسدين ونهبوا الناس . وزاد فى سوء الحالة وصول قـوات عضد الدولة وبختيار ومحاصرتها لقوات أفتكين . وأخـــيرا وفى المعركة التى قامت بين الأتراك

---

١٥ ـ مسكويه ج ٢ ص ٣٢٧ ـ ص ٣٢٨

والبويهيين في ٣٠ يناير سنة ٩٧٥م (١٤ جمادى الأولى ٣٦٤ هـ) دارت الدائرة على الأتراك وأعوانهم من العيارين وقتل كثيرون منهم .(١٦) وعلى أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالأتراك ، توجه أفتكين مع من تبقى لديه من المحاربين الأتراك إلى الشام ليحاول انشاء امارة جديدة له هناك . وفي نفس الوقت دخلت قوات بني بويه بغداد . وهناك تلكأ عضد الدولة الذي كان راغباً في ضم العراق إلى حكمه ، ولم ينصرف إلا تحت ضغط من أبيه ركن الدولة ، وبعد أن أقسم له بختيار وأخوه يمين الولاء وتعهداً بإقامة الدعوة له بعد ركن الدولة .(١٧) والملاحظ أن هذه التسوية السياسية ، لم تتم إلا بعد رحيل تزيمسكس من شمال العراق بمدة شهور ، وقد كان هـــذا الصراع الداخلي بين المسلمين في العراق هو احـدى العوامل الرئيسية التي تساعدنا في تفسير ما أستطاع الامبراطور تزيمسكس أن يحققه من انتصارات في حملته على العراق في خريف سنة ٩٧٤ م .

ونحن إذا إنتقلنا من العراق غرباً إلى البـلاد الشامية ، وجدنا أن هذه البـلاد بدورها كانت تعـاني من اضطراب الأحوال السياسية وتفتقر إلى الأستقرار . فقد تنازعت السيادة عليها عدة قوى اسلامية مختلفة ممثـلة في الاخشيديين والحمـدانيين والقرامطة والقبـائل العربية والفاطميين على أثر

---

١٦ ــ أبن الاثير ج ٨ ص٢٥٦ ـــ ص ٢٥٧ ، مسكوية ج ٢ ص ٣٣٨ ـ ص ٣٤١ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٤ ـــ ص ١٤٥ ، انظر كذلك الخطاب الذي كتبه أبو اسحق الصابي إلى الأمير ركن الدولة في موضوع الصراع بين الأتراك والبويهيين في «المختار من رسائل أبي اسحـق ابراهيم الصابي» (ت . شكيب الرسلان ، ط . بيروت ، ١٨٩٨ م) ج ١ ص ١٠ ـــ ٢٨ (سوف نشير إلى هذا المرجع الأخير فيما يلي باسم رسائل الصابي .

١٧ ــ مسكويه ج ٢ ص ٣٤٣ ـ ص ٣٤٤ .

انتقالهم من المغرب إلى مصر. فإن الإخشيديين الذين حكمو فى مصر (٩٣٥-٩٦٩ م) قد حرصوا على ضم الشام إلى حكمهم وتحقيق الوحدة بين البلدين على النحو الذى حدث فى فترات متعددة من العصور التاريخية المختلفة . ولكن الإخشيديين سرعان ما اصطدموا فى الشام بالحمدانيين الذين أنتقل فرع منهم سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) إلى الشام تحت قيادة سيف الدولة الحمدانى . وقد انتزع هذا الأمير حلب وحمص وغيرها من المدن من الوالى الأخشيدى مؤسسا دولة الحمدانيين فى شمال الشام ومركزها حلب . واستمرت هذه الدولة من ٩٤٤ إلى ١٠٠٣ م وأصبح لسيف الدولة حكم حلب وانطاكية واللاذقية وشيزر وحماه وحمص وكذلك أجزاء من قيليقيه واقليم الجزيرة . وأثناء حكمه (٩٤٤ - ٩٦٧ م) كان عليه بحكم موقع دولته الجغرافى أن يواجه ما قام به البيزنطيون من هجوم . وأبلى سيف الدولة فى ذلك بلاء حسنا ، وحقق فى المرحلة الأولى من حكمه أمجاداً سجلتها صفحات التاريخ كما أشاد بذكرها الشعراء ومنهم المتنبى . إلا أن سيف الدولة لم يكن فى مركز يحسد عليه فإنه كان يحكم دولة محدودة الموارد . وفى نفس الوقت كان عليه أن يعمل حساب جيرانه المسلمين المنافسين له وخاصة الأخشيديين فى جنوبى دولته الذين ظلوا يحاولون إعادة فرض نفوذهم واسترداد ممتلكاتهم القديمة فى الشام . كما كان على سيف الدولة أن يكبح جماح أمرائه الذين أرادوا الخروج عليه والإستقلال باقطاعاتهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان موت سيف الدولة فى فبراير ٩٦٧ (صفر ٣٥٦ هـ) خسارة كبيرة لحقت بالمسلمين . فإن موت هذا القائد المحنك

الشجاع كان مما هيأ للبيزنطين الفرصة لمواصلة تقدمهم هناك . كما أن ابنه سعد الدولة أبا المعالى الذى خلفه فى الحكم (٩٦٧ - ٩٩١ م) لم يكن له من الكفاءة ما يمكنه من مواجهة الهجوم البيزنطى عند استئنافه . كما كانت تنقصه شجاعة أبيه ومهارة السياسة . وأخذ الضعف يدب فى جسد دولة الحمدانيون فى شمالى الشام. وفقد الحمدانيون مدينة انطاكية الهامة للبيزنطيين فى أخريات سنة ٩٦٩م . كما أن الأمير قرغويه ، وهو أصلا أحد غلمان سيف الدولة ، قد خرج على سعد الدولة واستولى على حلب عاصمة الحمدانيين فى الشام ليقيم بها ست سنوات . واضطر سعد الدولة للاقامة بمعرة النعمان وحمص . وان الصلح الذى تم بينه وبين قرغويه والذى خطب بمقتضاه لسعد الدولة على منابر حلب ، لم يؤد إلى تصفية الجو بينهما نهائيا . (١٨) هذا ولم يستطع قرغويه الاحتفاظ باستقلال تام فى ادارة شئون حلب أمام التهديد البيزنطى ، واضطر للتسليم بما فرضه البيزنطيون عليه من سيادة وشروط أحالته إلى تابع للدولة البيزنطية . هذا وقد استمر النزاع بين الحمدانيين وامرائهم فى الشام مما أدى قيام حرب أهلية بينهم . وأخذ كل من الجانبين يستعين بقوات خارجية من البيزنطيين والفاطميين بعد ظهورهم على مسرح الحوادث . ولم يكن هذا التدخل الخارجى لصالح أى من الطرفين ، وكان لدولة الحمدانيين الغرم وللفاطميين والبيزنطيين الغنم .

وفضلا عن الأخشيديين والحمدانيين ، فقد ظهر القرامطة كقوة هامة كان لها تأثيرها الكبير على مجريات الأحداث فى الشام . وقد نشأ القرامطة أصلا فى العراق فى المنطقة المحيطة بواسط فى أواخر القرن التاسع الميلادى.

---

١٨ - كان هذا الصلح فى ٣٥٩ هـ (بدأت فى نوفمبر ٩٦٩ م) - أنظر ابن الأثير ج ٨ ص ٧٤١ ، كانار ص ٦٧١ - ص ٦٧٤ .

وهم شعبة من شعب الباطنية أو الشيعة الاسماعيلية . وينتسبون إلى حمدان قرمط (١٩). ويحيط الغموض بأصل عقيدة القرامطة وأهدافهم الأولى. إلا أن حركتهم أصبحت حركة دينية اجتماعية سياسية. وعلى أثر قيام الخلافة العباسية بمحاربتهم وتتبعهم، اتجهوا تحت زعامة أبى سعيد الجنابى إلى شبه الجزيرة العربية حيث وضعوا أساس دولتهم فى الاحساء بمنطقة البحرين على الخليج الفارسى . وقام حكم وراثى فى بيت أبى سعيد هذا. كما أخذ القرامطة فى بسط نفوذهم على كثير من أرجاء الجزيرة العربية. وأشتهر القرامطة منذ باكورة تاريخهم بالعنف وشدة المراس فى القتال. وحفلت المصادر التاريخية المعاصرة باخبار حروبهم وأغاراتهم المخربة، والفظائع التى لم يتورعوا عن ارتكابها مع قوافل الحجاج، وكانت اغارتهم على مكة نفسها ونزع الحجر الأسود من الكعبة واستلاؤهم عليه من المآخذ الكبرى التى سجلها التاريخ ضدهم .(٢٠) وفى تصوير انطباعات المعاصرين من خطرهم وقوتهم العسكرية نذكر رواية أبى المحاسن حيث قال عنهم . « فكانت القرامطة إذا كانوا فى ألف حطموا مائة ألف وأنتصفوا » .(٢١)

وعمل القرامطة على مد نفوذهم إلى الشام . وفى عهد أميرهم، أحمد بن أبى سعيد الجنابى، قاموا بحملتين لغزو هذه البلاد : وكانت الحملة الأولى

---

١٩ ـ الظاهر أن قرمط كلمة آرامية معناها الأستاذ السرى .

٢٠ ـ كانت اغارة القرامطة على مكة فى ٣١٧ ﻫ (٩٣٠ م) . وقد احتفظوا بالحجر الأسود فى دولتهم ولم يعيدوه الا فى (٣٣٩ ﻫ) ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٧٧ ص، ١٩٢ .

٢١ ـ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٥ .

فى ٣٥٣ هـ (بدأت فى يناير ٩٦٤ م) وأثناءها نلحظ تعاون القرامطة مع الحمدانيين لمحاربة الأمير الإخشيدى المسئول عن الممتلكات الإخشيدية فى الشام ، وهو الحسن بن عبيدالله بن طغج . وتمكن القرامطة من إلحاق الهزيمة بقواته عند طبرية . وكانت الحملة الثانية أكثر أهمية من الحملة الأولى ، وقد وجهت كذلك ضد الإخشيديين . وتمكن القرامطة من فتح دمشق والرملة ، واضطر الإخشيديون لعقد صلح معهم على أساس أن يدفعوا لهم جزية سنوية .(٢٢) وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف رسمى بامتداد نفوذ القرامطة إلى الشام فى أواخر عهد الإخشيديين وقبيل ظهور الفاطميين هناك بوقت قصير .(٢٣)

ومن العوامل الرئيسية التى أدت إلى اضطراب الأوضاع السياسية فى الشام فى هذا العصر ، كانت انتفاضة القبائل العربية ومحاولتها التحرر من سيطرة عمال الخلافة وتحقيق استقلالها الذاتى . فقد ظلت الاحلاف القبلية الكبرى متماسكة . ونجد من القبائل اليمنية أو عرب الجنوب ، بنى طى فى فلسطين ، وبنى كلب فى أواسط الشام . أما عرب الشمال أو القيسيون فنجد

---

٢٢ ـ كان مقدار هذه الجزية السنوية ١٢٥ ألف دينار مصريا طبقا لتقدير للمؤرخ يحيى الأنطاكى ، أما ابن القلانسى فقد ذكر أنها ٣٠٠ ألف دينار ـ يحيى الأنطاكى ص ١٣٢ ، ابن القلانسى ص ١

٢٣ ـ ذكر يحيى الأنطاكى ان هذه الحملة الثانية للقرامطة بالشام كانت فى ٣٥٧ هـ ، وحدد تاريخ المركة التى استولوا على أثرها على الرملة بأنها كانت فى ذى الحجة من السنة المذكورة (بدأ هذا الشهر فى ٢٧ أكتوبر ٩٦٨ م) . أما المقريزى فقد أشار باختصار ان هذه الحملة فى ٣٥٨ هـ - يحيى الأنطاكى ص ١٣٢ . المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا (ت د . الشيال القاهرة ١٩٤٨ م) ص ٢٤٧ ـ ص ٢٤٨ (سوف أشير الى هذا المصدر فيما بعد باسم اتعاظ الحنفا)

منهم بنى كلاب فى شمال الشام وبنى نمير وبنى عقيل فى الجزيرة العراقية .(٢٤)
هذا وكان الحمدانيون أنفسهم من قبيلة تغلب ، وهى احدى القبائل العربية المعروفة ، ونجحوا فى تأسيس دولتين لهم على ماسبق ذكره . ولعبت هذه القبائل العربية المتعددة دوراً هاماً فى تشكيل تاريخ الشام السياسى فى هذا العصر ، واستغلت ما وجد من الانقسامات والقوى السياسية المتنافسة لتحقيق مصالحها الذاتية . فإن كل من الحكام الحمدانيين والاخشيديين والقرامطة ، وكذلك الفاطميين والبيزنطيين ، كثيرا ما اعتمدوا فى تكوين أحلافهم السياسية على هذه القبائل - بل أن شيوخ تلك القبائل قد زجوا بأنفسهم فى هذه الأحوال السياسية المضطربة ، وكثيرا ما أتخذوا عنصر المبادأة فى عقد الأحلاف أو الدخول فى خصومات بالشكل الذى قدروا أن يعود عليهم بالنفع :

هذا وظهر على مسرح الحوادث فى الشام عنصر جديد له أهميته ممثلا فى الفاطميين . ذلك أن القائد الفاطمى جوهر الصقلى قد تمكن من القضاء على دولة الإخشيديين فى مصر ، وفرض الحكم الفاطمى على هذه البلاد (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها بدلا من الخليفة العباسى . ويسجل ذلك تاريخا هاما فى منطقة الشرق الأدنى عامة ، وذلك لأنه يحدد بداية قيام الحكم الفاطمى فى هذه المنطقة ليستمر حتى سنة ١١٧١ م أى إلى حين القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر . وفى أثناء هذه الفترة ، قدر للعالم الاسلامى فى المشرق أن يظل منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين متنافسين ، الخلافة العباسية السنية ببغداد ، والخلافة

---

(2) Gibb, « The Caliphate & the Arab States », History of the Crusades (Ed. Setton, Philadelphia, 1958) vol, I p. 8 .

الفاطمية الشيعية ومركزها القاهرة . وكان هذا الوضع وما ترتب عليه من إنقسام وتنافس ، من العوامل التي أدت إلى ضعف قوة المسلمين في الشرق الأدنى في عصر كل من الهجوم البيزنطي والهجوم الصليبي اللاتيني فيما بعد .

وكان لابد وان يتطلع الفاطميون الدائبون على نشر دعوتهم ونفوذهم، بعد أن فتحوا مصر ، لمد دعوتهم إلى البلاد الشامية وضمها إلى حكمهم . وكان التوسع الفاطمي في هذه البلاد مسألة طبيعية وضرورية اقتضها الظروف السياسية والأسباب الاستراتيجية . فإن حالة الشام بما هي عليها من انقسامات كانت من الطبيعي أن تغري دولة قوية مثل دولة الفاطميين على التدخل وضم هذه البلاد . هذا إلى جانب أن توحيد مصر والشام تحت حكومة واحدة كان ظاهرة تاريخية طبيعية تكررت في العصور السابقة . هذا وكان من المحتمل بعد نجاح الفاطميين في فتح مصر ، أنهم سيتعرضون لهجوم من جانب القوى المنافسة الموجودة في الشرق الأدنى من إسلامية أو بيزنطية . وأن الفاطميين بضمهم لبلاد الشام سوف يتمكنون من جعل الخط الأول للدفاع عن ممتلكاتهم في البلاد الشامية وليس في مصر .

وفضلا عن ذلك كله ، فان الفاطميين بما هم عليه من قوة ، وما علموه عن مشاكل المسلمين وانقسامهم في الشرق الأدنى ، قد حرصوا على القيام بدور المدافعين عن البلاد الإسلامية وحمايتها ضد العناصر المهددة لها وخاصة البيزنطيين والقيام بالجهاد ضدهم . ويتضح ذلك في عهد الأمان الذي أعلنه جوهر في يوليو ٩٦٩ (شعبان ٣٥٨ هـ) بعد فتحه مصر ، وكان هذا العهد موجها لأهل مصر وغيرهم من المسلمين في بلاد المشرق . وجاء في هذا العهد (٢٥) : « باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب –

---

٢٥ ـ أنظر النص الكامل لهذا العهد في « اتعاظ الحنفا » ص١٤٨ — ص ١٥٣

عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله – صلوات الله عليه – لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم .. وهو أنه (المعز) صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفورة ، إلا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الايدى ، واستطال عليكم المستذل واطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه ، والإحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ؛ فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – بإخراج العساكر المنصورة وبادره بإنفاذ العساكر المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى ، وشملتهم المذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثاتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم فلم يغثهم إلا من أرمضة أمرهم ومضة حالهم ، وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – فرجا – بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأجراه عليه – استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل(٢٦) ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ... ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء

---

٢٦ – يقول المحقق (د . الشيال) لعلها « الوهل » أى الفزع — اتعاظ الحنفا ص ١٤٩ ، حاشية ٢

عليكم ، ولا فى الإستطالة على قويكم فضلا عن ضعفيكم ... » . ولا بد أن القائد جوهر كان يقصد أن يشير فى هذا العهد الذى أصدره ، إلى أن الخطرين البيزنطى والقرمطى ، وهما أشد الأخطار على المسلمين فى هذا العصر . والواقع أن العهد المذكور ، الذى يعتبر من الوثائق الهامة التى صنفها الفاطميون للدعاية لمذهبهم وحكمهم ، قد حمل كذلك تأكيداً عن عزم الفاطميين على مد نفوذهم وتوسعهم فى بلاد المشرق بعد الاستيلاء على مصر . وكانت الشام هى أول البلاد الواقعة فى طريق تقدمهم .

ولم يمض وقت طويل بين فتح مصر وقيام جوهر الصقلى لفتح الشام وضمها إلى الحكم الفاطمى . فقد أرسل هذا القائد فور استقرار الفاطميين فى مصر حملة إلى البلاد الشامية فى الجزء الأول من سنة ٣٥٩ هـ (بدأت فى نوفمبر سنة ٩٦٩ م) تحت قيادة جعفر بن فلاح الكتامى الذى كان من كبار قادة المعز ، وقد عرفت عنه الشجاعة وحسن قيادة الجيوش . وكان الهدف الأول لحملة جعفر هو الإستيلاء على بقايا الممتلكات الإخشيدية فى فلسطين وأواسط الشام ، التى كانت تحت حكم الأمير الإخشيدى الحسن بن عبد الله وقرر هذا الأمير مقاومة الجيش الفاطمى والدفاع عن ولايته . إلا أن الإمكانيات التى كانت تحت تصرفه لم تكن بالتى تمكنه من تحقيق ذلك نظرا لما وجده من مصاعب فى فرض كلمته على الولاة الإخشيديين فى المدن المختلفة بعد سقوط دولة الإخشيديين فى مصر . وأهم هؤلاء الولاة كان شمول الأخشيدى الذى حكم فى دمشق والذى كان يضمر الحقد للأمير الحسن ، والصباحى الذى كان يلى بيت المقدس ، وفاتك والى طبرية (٢٧) .

---

٢٧ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٣

اتجه الأمير الأخشيدى الحسن إلى مدينة الرملة ليتخذ منها مركزا لمقاومة الأخطار التى هددت امارته . وكان لهذه المدينة أهمية خاصة، وقد كتب عنها الجغرافى المعاصر ابن حـوقل : « فلسطين أزكى بلدان الشام ربوعا ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها فى الكبير (٢٨) ». أما الجغرافى المقدسى فقد ذكر عنها : « والرملة هى قصبة فلسطين » . (٢٩) ووجه القائد الفاطمى جعفر قواته إلى هذه المدينة الهامة لمنازلة الأمير الحسن والإستيلاء عليها قبل أن يتابع عملياته العسكرية الأخرى فى الشام . والملاحظ أن جعفرا إلى جانب اعتماده على قـوة السلاح ، أرسل دعاة إلى ولاة البـلاد الشامية « يعدهم بالإحسان ، ويدعوهم إلى طاعة المعز . » (٣٠) وقد صادفت هذه الدعوة قبولا عند عدد منهم . كما أن الأمير الحسن لما طلب المساعدة من الولاة الإخشيديين ، تقاعد بعضهم عن نصرته مثل شمول والى دمشق والصباحى والى بيت المقدس . وعلى ذلك فلما ألتقت قـوات الفاطميين بقوات الأمير الحسن فى الرملة ، دارت الدائرة على الأخير وهزمت قواته وأسر مع كثيرين من جنده . وكان استيلاء الفاطميين على المـدينه فى ٢٤ مايو سنة ٩٧٠ م (منتصف رجب سنة ٣٤٩ هـ) .(٣١) وقبل أن يواصل جعفر طريقه لفتـح غيرها من البلاد عين ابنه واليا على الرملة (٣٢) .

---

٢٨ ـ ابن حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض (ط . ثانية — ابريل ، ١٩٣٨) ج ١ ص ١٧١

٢٩ ـ المقدسى : أحسـن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (ط . ابريل ، ١٩٠٩ ص ١٦٤

٣٠ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٣

٣١ ـ المرجع السابق ص ١٧٣ — وبخصوص الشخصيات الكبيرة التى وقعت فى الأسر إذ ذاك أنظر نفس المرجع ص ١٧١

٣٢ ـ ابن القلانسى ص ١

وكانت طبرية هى الهدف التالى لجعفر ، وهى المدينة الكبرى فى الأردن (٣٣) وقد ملكها بدون أن يجد مقاومة كبيرة . وكان عليه بعد ذلك اخضاع إمارة دمشق . ولتمهيد الطريق لتحقيق ذلك لجأ جعفر إلى كسب بعض القبائل العربية إلى جانب الفاطميين . ويذكر المقريزى أن جعفراً عمل على استمالة جماعة من بنى مرة وفزارة لإستعمالهم ضد بنى عقيل الذين كانوا يقيمون اذ ذاك ، باذن من الإخشيديين فى حوارن والبثنية من أعمال دمشق ، وقد تابعهم بنو فزارة ومرة إلى حمص. (٣٤) إلا أن الإتصال الأول بين جعفر وقواته وبين أهالى دمشق ، لم يكن بالذى يؤدى إلى اطمئنان الأخيرين واستكانتهم إلى الغزاة الجدد. ذلك أن الدمشقيين لما بلغتهم أخبار تقدم جعفر ، خشوا بأسه وأرسلوا اليه وفداً من مشايخ البلد . ولكن هذا الوفد لم يعامل معاملة كريمة ، وتعرض لاعتداء جنود جعفر الذين سلبوهم ما معهم وما عليهم . ويقول المقريزى أنهم بعد مقابلة لجعفر عادوا إلى بلدهم وهم « غير شاكرين ولا راضين ، فبسطوا ألسنتهم بذم المغاربة حتى استوحش أهل دمشق . » (٣٥)

وقد كان من الطبيعى أن يقرر الدمشقيون بعد هذه التجربة الأولى السيئة التى مر بها وفدهم مع الفاطميين ، مقاومة الغزاة والدفاع عن كيانهم . إلا أنه أصبح عليهم الإعتماد على أنفسهم فى ادارة شئون المدينة وتحمل مسئولية الدفاع عنها . ذلك أن شمول والى المدينة الإخشيدى ، فضل الإنضمام إلى صفوف الفاطميين وخرج منها والتحق بجعفر فى طبرية. وأصبحت

---

٣٣ ـ ابن حوقل ج ١ ص ١٧٣

٣٤ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٤

٣٥ ـ المرجع السابق ١٧٤

دمشق على أثر ذلك مفتقرة إلى حاكم مسئول عنها . ولفترة من الزمن تسبب هذا الوضع فى اضطراب الأحوال فى المدينة . ويقول فى ذلك المقريزى : « وصار البلد خاليا من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الزعار ، وحمال السلاح به . » (٣٦) الا أن أهالى المدينة عملوا على تنظيم حكومة لهم تشرف على شئونها وتنظم الدفاع عنها . وعهد الدمشقيون بالمسئولية إلى أحد أهالى البلد وهو الشريف أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى ، الذى كان يتميز بالشجاعة ويتمتع بالاحترام والتقدير . (٣٧)

حقيقة أن الدمشقيين استعانوا بمن تبقى من جنود شمول فى دمشق للدفاع عن المدينة ، إلا أن الاعتماد الأساسى كان على المقاومة الشعبية التى قام بها الاهالى وكان العنصر الرئيسى فى هذه المقاومة « أحداث » المدينة . والأحداث من جماعات الفتوة العربية ، وهم كثيرى الشبه بالحرس الوطنى فى العصور الحديثة . وكانوا من الشبان المحاربين المتطوعين من أبناء المدينة . كما كانوا يعيشون فى ظل نظام خاص . وقد عرف الأحداث فى مدينة دمشق بنشاطهم فى الوقوف ضد استبداد الحكام المحليين وكذلك فى الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة الأجانب . وازدهر نشاط الأحداث بشكل خاص فى الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجرى (من القرن العاشر

---

٣٦ - الزعار والزعرة والزعر ، جمع زاعر ، وهو اللص والمحتال والعيار . انظر اتعاظ الحنفاء ص ٧٤ ، حاشية ٤

٣٧ ـ ابن أبى القلانسى ص ١ ، الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ ، راجع رواية للمقريزى حيث قال « وكان رئيس اهل الشام فى هذه الحروب ابو القاسم بن أبى يعلى العباسى ، ومحمد بن عصودا ، وصدله الشوا » اتعاظ الحنفا ص ١٧٥

إلى الثانى عشر الميلادى) . (٣٨) وقد عانى الفاطميون الكثير من المقاومة العنيفة التى قام بها الأحداث ضدهم أثناء حكمهم بالشام ، وخاصة فى الفترة الاولى منه .

تقدمت قوات القائد جعفر مع من لحق بها من القبائل العربية المحالفة، ونزل الجميع بحى الشماسية عند دمشق فى ١٤ اكتوبر ٩٧٠ م (١٠ ذى الحجة ٣٥٩ هـ) . وهناك نشب قتال عنيف بينهم وبين المدافعين عن المدينة استمر عدة أيام ، ولكن ما لبث قوات جعفر أن تغلبت على مقاومة أهالى المدينة. ونجح هذا القائد فى دخولها وفرض شروطه عليها ، ومن أهمها اقامة الخطبة للخليفة الفاطمى المعز وقطعها بالنسبة للخليفة العباسى المطيع .(٣٩) وكان ذلك إيذانا بزوال ما تبقى من نفوذ العباسيين فى دمشق وبداية قيام الحكم الفاطمى بها . وعمل جعفر بعد ذلك على تنظيم ادارة المدينة وأقام مساكن خاصة لجنده بظاهر سورها كما بنى لنفسه قصراً كبيراً من الحجارة يتناسب مع هيبة قائد الجيوش الفاطمية فى الشام .(٤٠)

وليست لدينا معلومات كافية عما فعله جعفر فى الفترة التالية لاستيلائه

---

(38) C. Cahen, «Ahdath» The Encyclopaedia of Islam (New Edit.) Vol. I, p. 256, H.A.R. Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades (London, 1932), pp. 26 — 27.

انظر كذلك ابن القلانسى ص ٦ - ص ١٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ ، كتاب الفتوة (ت د . مصطفى جواد وغيره . بغداد ١٩٦٠ م) ص ٢٧ ، ص ٤٨ — ص ٤٩

٣٩ — اتعاظ الحنفا ص ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ — ويلاحظ هنا ان ابن الأثير قد جعل فتح دمشق فى ذى الحجة ٣٥٨ ، والصواب ان ذلك كان فى ٣٥٩ هـ حسب ما جاء فى اتعاظ الحنفا ويحيى الأنطاكى ص ١٣٨

٤٠ — اتعاظ الحنفا ص ١٧٧

على دمشق . ولكن من المؤكد أنه عمل على الدعاية للخليفة الفاطمى . ومن الجائز أيضاً أن قواته حاولت الاستيلاء على بعض المراكز فى البلاد الواقعة فى جنوبى وأواسط الشام . وعلى كل حال فهناك مايدل على أن الحمدانيين أقاموا الدعوة للخليفة الفاطمى فى حلب وحمص بدلا من الخليفة العباسى .(٤١) كما أرسل جعفر قائد فتوح على رأس جيش لمنازلة مدينة أنطاكية فى شمال الشام ومحاولة الاستيلاء عليها .(٤٢) إلا هذا الأخير لم يوفق فى مهمته بسبب مقاومة البيزنطيين والظروف التى اضطرت جعفر لإستدعائه إلى دمشق. وعلى كل حال فإن وصول القوات الفاطمية إلى انطاكية فى الشام يحدد اقصى مدى وصلت اليه هذه القوات فى المحاولة الأولى التى قام بها الفاطميون لاخضاع هذه البلاد .

حقيقة أن الفاطميين أحرزوا نجاحا سريعا فى حملتهم الأولى التى قادها جعفر بن فلاح على الشام ، نظرا لإستيلائهم فى وقت محدود على عدد من أهم مراكز الشام وتقدم قواتهم شمالا حتى أنطاكية . إلا أن هذا النجاح لم يقدر له أن يستمر زمنا طويلا وقد أصيب النفوذ الفاطمى بنكسة خطيرة . فان ظهور الفاطميين كقوة جديدة على مسرح الأحداث فى الشام والانتصارات التى أحرزوها على حساب القوى الموجودة هناك ، كان له ردفعل . وكان لايزال من الضرورى على الفاطميين بذل المضاعف من الجهود وانتظار

---

٤١ ـ جاء ذلك فى ذكر أحداث (٣٥٩ ﻫ) ، أنظر اتعاظ الحنفا ١٧٩ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤١ .

٤٢ – كان خروج حملة فتوح إلى انطاكية فى ربيع الأول ٣٦٠ ﻫ (يناير ٩٧١ م) . أنظر اتعاظ الحنفا ص ١٧٧ ـ بخصوص القتال الذى حدث بين الفاطميين والبيزنطيين ، فسوف نذكره تفصيليا فى الفصل التالى الخاص بالعلاقات بين البيزنطيين والمسلمين .

المزيد من الوقت حتى يتمكنوا من تدعيم نفوذهم فى هذه الأنحاء : ولتفهم ذلك يجب أولا أن نتذكر أن القوات الفاطمية فى تقدمها فى الشام أتت حاملة الدعوة للمذهب الشيعى وعملت على نشره فى البلاد التى أخضعتها . وأدى ذلك الى نفور العناصر السنية ووقوفها موقفا معارضا ، عامدة لمقاومة النفوذ الفاطمى والتخلص منه . وقد وصلت إلى أيدينا رواية طريفة توضح موقف السنيين ضد الفاطميين وقتئذ . فقد جاء فى بعض المصادر أن أحد الزهاد من أهل السنة ، ويعرف باسم النابلسى ، الذى أشتهر بتحمسه لمذهبه قال : « إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم وجب أن يرمى فى الفاطميين تسعة ويرمى العاشر فى الروم ! » ولا يتردد هذا الزاهد فى أن يعيد هذا القول على مسمع الخليفة المعز نفسه ، ويزيد عليه . « فأنكم غيرتم الملة وغيرتم نور الألهية ! » [٤٣] وقد تمسك النابلسى بموقفه بالرغم من تعرضه للتعذيب الشديد ، ومات شهيد عقيدته وهذه الرواية تشير الى شدة معارضة السنيين فى الشام للحكم الشيعى ، وأن بعضهم على الأقل ، قدروا أن الفاطميين أولى بأن يحاربوا من البيزنطيين أنفسهم . ومهما يكن من أمر ، فان النزاع المذهبى بين السنيين والشيعة كان من أهم العوامل التى تفسر الصعوبات التى صادفها الفاطميون فى فرض نفوذهم على الشام وفضلا عن ذلك فان سياسة العنف التى اتبعها الجنود المغاربة ، وخاصة مع أهالى دمشق وإساءة معاملتهم ، كانت من العوامل التى أدت الى زيادة سخط الناس على الفاطميين وترقبهم الفرص المواتية للتخلص منهم .

وقام القرامطة بدور بالغ الأهمية فى مقاومة الفاطميين والعمل على منع قيام حكمهم فى الشام فى السنوات الأولى التى تبعت ظهورهم فى الشرق

---

٤٣ ـ انظر ابن الجوزى : المنتظم (مذيل على تاريخ ابن القلانسى ص ٤)

الأدنى . ولتحقيق ذلك لم يتورع القرامطة عن إرسال حملات عنيفة ضدهم مدن فى كل الشام ومصر . حقيقـــة أن القرامطه فى أول اتصـــالاتهم مع الفاطميين ، وقبل انتقال هؤلاء إلى مصر ، كانوا حريصين على إقامة علاقات طيبة معهم واحترموا زعامتهم الروحية . وكان من مظاهر ذلك أخـــذ القرامطة بمشورتهم فى تعيين أمرائهم . إلا أن هذه الصورة تغيرت على أثر ظهور الفاطميين فى المشرق . ولقد شاهدنا من قبل كيف نجح القرامطة فى مد نفوذهم إلى الشام وكيف فرضوا جزية سنوية على الامارات الاخشيدية هناك . وكان القرامطة بطبيعة الحال حريصين على الابقاء على ما لهم من نفوذ فى هذه الأنحاء ، وكان ظهور الفاطميين فى الشام واستيـلاؤهم على دمشق وغيرها من البلاد بمثابة تحد لهم وتهديد لمصالحهم وقد طلب أميرهم الجديد الحسن الأعصم القرمطى (٤٤) ، من الفاطميين دفع الجزية التى كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة من قبل ، ولـكن طلبه قوبل بالرفض . وكان هذا هو السبب المباشر الذى أدى إلى قيام الحرب بين الجانبين القرمطى والفاطمى .

أخذ الأعصم يستعد لمنازلة خصومه وطردهم من الشام . وأرسل إلى بغداد لطلب المساعدة . ويروى أبو المحاسن أن الخليفة العباسى المطيـع ، الذى كان يكره كلا من الفاطميين والقرامطة امتنع عن بذل المساعدة المطلوبة ، وأنه قال فى ذلك : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فاما المصريين – يعنى بنى عبيد – فأماتوا السنن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء – يقصد القرامطة – فقتلوا الحجاج ، وقلعوا الحجر الاسود ، وفعلوا مافعلوا ! (٤٥) الا أن عز

٤٤ – عرف المؤرخ يحيى الأنطاكى هذا الأمير بلقب « الأعشم » وهذا خطأ والصواب « الأعصم » والاسم الكامل لهذا الأمير هو الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى – يحيى الأنطاكى ص ١٣٩ ، النجوم الزاهـرة جـ ٤ ص ٧٤

٤٥ – المرجع السابق ج ٤ ص ٧٤

الدولة بختيار ، الأمير البويهى فى العراق الذى كان يخشى على مركزه من تزايد الخطر الفاطمى ، قد تلاقت مصالحه مع مصلحة الأعصم وجمعتهما الرغبة فى التخلص من الفاطميين . ولذا قرر مساعدته بالسلاح والمال . وقد جاء أنه خصص له «ألف ألف درهم وألف جوشن وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جعبة .» (٤٦) كما طلب بختيار إلى أبى تغلب أمير الحمدانيين بالموصل أن يمد الأمير القرمطى بمساعدة مالية قدرها اربعمائة ألف درهم .(٤٧) وبعد الحصول على هذه المساعدات ، تقدم الأعصم بجيشه مع من كان إنضم اليه من أعداء الفاطميين من الإخشيديين الذين كانوا قد لجأوا اليه (٤٨) وكذلك جماعة من القبائل العربية . وسار على رأس هذه القوة الكبيرة لمنازلة القائد الفاطمى جعفر بن فلاح عند دمشق . والملاحظ على هذه الحملة التى قام بها الاعصم ضد الفاطميين ، أن بالرغم من كون الدعوة الاسماعيلية من أهم دعائم دولة القرامطة ، فإنه أمر جنوده بحمل الأعلام السود ، شعارالعباسيين ، وكتب عليها اسم الخليفة العباسى المطيع ، وتحته كتب « السادة الراجعون إلى الحق » (٤٩) والمرجح ان الدافع الذى جعله يفعل ذلك هو رغبته فى التقرب إلى العناصر السنية فى الشام تلك العناصر التى كانت لاترغب فى الحكم الشيعى .

---

٤٦ ـ ابن القلانسى ص ١

٤٧ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٨

٤٨ ـ المرجع السابق ص ١٨٨

٤٩ ـ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ ـ والملاحظ أن أقامة القرامطة الدعوة العباسيين على هذا النحو ، كانت موضع لوم ومؤاخذة فى الكتاب المطول الذى أرسله فيما بعد الخليفة المعز الى الأعصم . أنظر النص الكامل لهذا الخطاب فى « اتعاظ الحنفا » ص ٢٥١ ـ ص ٢٦٥ .

أما القائد جعفر بن فلاح قائد القوات الفاطمية فى الشام ، فعندما بلغته أخبار الاستعدادات التى أجراها الأعصم لقتاله ، فإنه أرسل إلى قائده فتوح ليستدعيه مع القوات التى كانت تعمل تحت امرته فى محاربة البيزنطيين عند انطاكية . وأسرعت هذه القوات بالعودة إلى دمشق ، وأخذ جعفر يستعد لمواجهة الهجوم المنتظر . وعلى اثر وصول القرامطة ، قامت معركة حاسمة فى ناحية الدكة ، على مقربة من دمشق ، انتهت بهزيمة الجيش الفاطمى ومقتل جعفر وعدد كبير من جنده ، فى ٣١ أغسطس ٩٧١ م.(٥٠) وتمكن الاعصم القرمطى على أثر ذلك من دخول دمشق واحتلالها .

ويرجع السبب الأساسى فى هزيمة الفاطميين عند دمشق إلى أن جعفر لم يتوقع أن يصحب القرامطة معهم فى هجومهم كل هذه الأعداد الضخمة التى جاءوا بها ، ولم يجهز ما يكفى من القوات لمقابلتهم . وهكذا كان التفوق العددى سببا هاما فى هزيمة الفاطميين . وعلى أية حال ، فان الأعصم بعد دخول دمشق أمن أهلها وعمل على كسب مشاعرهم والتقرب لهم باقامة الدعوة للخلافة العباسية . ولعن الأعصم المعز وأباه على منبر دمشق وطعن فيهم بقوله : « هؤلاء من ولد القداح كذابون مخترقون أعداء الاسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح ». (٥١) وقد فعل الأعصم ذلك تطبيقا لسياسته التى عمل فيها على التقرب إلى السنيين واكتساب ولائهم.

وكان الهدف التالى للاعصم هو الإستيلاء على مدينة الرملة التى كانت من المراكز الهامة التى فتحها الفاطميون فى جنوب الشام . وكان يحكمها من

---

٥٠ — ٦ ذى القعدة ٣٦٠ هـ — أتعاظ الحنفا ص ١٧٨ ، ابن القلانسى ص ١ — ص ٢ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٢ .

٥١ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ ابن القلانسى ص ٢

قبل الفاطميين وقتئذ سعادة بن حيان المغربي ولما بلغته أخبار تقدم القرامطة خرج من المدينة إلى يافا ليتحصن بها . وعلى ذلك تمكن الأعصم من فتح الرملة وعين عليها واليا من قبله ، وأقام فيها كذلك الدعوة للخلافة العباسية[٥٢] و لواقع أن على أثر هذه الحملة التى قام بها الأعصم ضد الفاطميين سنة ٩٧١ م وتدخله فى البلاد الشامية ، أصيب النفوذ الفاطمى فى هذه البلاد بنكسة خطيرة استمرت من آخر أغسطس ٩٧٠ حتى شهر مايو ٩٧٤ م (٥٣) ، أى منذ استيلاء القرامطة على دمشق حتى استرجاع الفاطميين لها وعملهم على اعادة تثبيت حكمهم فى الشام . وفى هذه الفتره المذكورة نلاحظ ضعف النفوذ الفاطمى فى الشام بسبب تدخل القرامطة ، كما أن الأعصم القرمطى تمكن من أتباع سياسة الهجوم ، وقام أكثر من مرة بمهاجمة الفاطميين فى البلاد المصرية نفسها .

كان الهجوم الأول الذى قام به الأعصم على الفاطميين فى مصر ، عقب استيلائه على الرملة . وقد زحف بقواته واستولى على مدينة القلزم — السويس — والفرما (٥٤) ، وأصبح له التحكم فى برزخ السويس كما خضعت له مدينة تنيس . وتوغل القرامطة داخل البلاد حتى وصلوا إلى القاهرة . وهناك فقط أمكن لجوهر أن يقف ضد الغزاة ويصد هجومهم . وساعده

---

٥٢ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٢ ، ابن القلانسى ص ٢ ، اتعاظ الحنفا ص ١٧٩

٥٣ — امتدت هذه الفترة من ذى القعدة ٣٦٠ هـ إلى رمضان ٣٦٣ هـ .

٥٤ — كان الاستيلاء على القلزم فى ذى الحجة ٣٦٠ هـ (بدأ فى ٢٥ سبتمبر ٩٧١ م) والاستيلاء على الفرما فى محرم ٣٦١ هـ (بدأ فى اكتوبر ٩٧١ م) أنظر اتعاظ الحنفا ص ١٨١ ، أبن القلانسى ص ٢ .

فى ذلك الخندق العظيم الذى حفره حولها .(٥٥) ونجح جوهـر فى التغلب على الهجوم الذى قام به القرامطة فى ٢٤ ديسمبر ٩٧١ م والحق بهم خسائر كبيرة حتى أن اعوانهم من الكافورية والاخشيدية أنفضوا من حولهم،(٥٦) وأرتد الأعصم على أعقابه بعد تكبد خسائر كبيرة ، ورجـع إلى الاحساء . واستغل جوهر الفرصة ليرسل جيشا استرجـع مدينة يافا . إلا أن ذلك لم يكن نهاية الخطر القرمطى . فان دمشق قد ظلت تحت حكم كل من ظالم بن موهوب العقيلى وأبى المنجا القرمطى اللذين كانا يحكمانها من قبل الأعصم . كما أن الأخير عند خروجه من مصر ، كان ينوى العودة اليها ليجدد هجومه على الفاطميين .

وعندما رجع الأعصم إلى الشام أستولى على الرملة ثم أخذ يعد العدة لمهاجمة مصر مرة أخـرى . (٥٧) وقد جهز أسطولا قويا لمهاجمـة تنيس وغيرها من سواحل مصر ، كما جمع جيشاً ضخما جمـع اليـــه ما أستطاع إستمالته من القبائل العربية . ولـكن كان على الأعصم هذه المره أن يواجه موقفاً جديداً فى مصر . إذ أن الخليفة الفاطمى كان قد انتقل من المغرب اليها مع المزيد من القوات الفاطمية . وأهتم هذا الخليفة بمناهضة القرامطة

---

٥٥ — ذكر المقريزى الحديث عن أختطاط القاهرة أن جوهر كان هدفه من ذلك « أن تصير (القاهرة) حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينـة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعسكره . . . واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراء من المدينة » الخطط (ط مصر ١٣٢٤ هـ) ج ٢ ص ١٧٩ — ص ١٨٠ .

٥٦ — يوافق هذا التاريخ ٣ ربيع الأول ٣٦١ هـ — ابن القلانسى ص ٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٠

٥٧ — كانت حملة الأعصم الثانية على مصر فى سنة ٣٦٣ هـ (اكتوبر ٩٧٣ — سبتمبر ٩٧٤ م) . ابن القلانسى ص ٣

والقضاء على خطرهم حتى يتمكن من تثبيت أركان دولتـه فى مصر والشام . وأنتصر الفاطميون على أسطول القرامطة عند تنيس . (٥٨) وبعث المعز فى هـذه الفترة للأعصم رسالته المطولة المعروفة ، والظاهر أنه أراد من وراء ذلك إثارة القرامطة على رئيسهم ، وكذلك التهديد باستعمال القوة للقضاء على الأعصم وجيشه . ومهما يـكن من أمر فإن الأخـير لايبدو أنه أهتم برسالة المعز والتهديد الذى جاء بها ورد عليه : « وصل كتابك الذى قـــل تحصيله وكثر تمصيله ، ونحن سائرون اليك على أثره والسلام . » (٥٩) وقام الأعصم بعد ذلك بهجومه بما لديه من قوات ضخمة ، وبث السرايافى البلاد لنهبها ، فى الوقت الذى أتجهت فيه قواته الرئيسية إلى القاهرة وعسكرت على مقربة من خندقها . وكان خطر القرامطة كبيراً لـكثرة أعـداد جيشهم وما أشتهروا به من الشدة فى القتال . وأمام هذا الموقف العصيب ، لجأ المعز إلى الحيلة وعمل على تفريق كلمة العدو . وقد أتصل بأحـــد حلفاء الأعصم الخطرين ، وهو القائد العربى حسان بن الجـراح الطائى ، الذى كانت تحت إمرته أعداد كبيرة من المقاتلين العـرب ، وبذل له مائة ألف دينار على أن يخـذل حليفه فى القتال : ومقابل ذلك المبلغ الضخم انسحب محاربو بنى طيء .(٦٠) وأمكن للقوات الفاطمية على أثر ذلك أن تلحق الهزيمة بالقوات

---

٥٨ — اتعاظ الحنفا ص ١٩٤ — ص ١٩٥

٥٩ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢

٦٠ — يذكر كل من ابن القلانسى وابن الأثير ان الفاطميين ، لما استكثروا المبلغ الذى وعدوا به حسان بن الجراح ، قاموا بتزييف عدد من الدنانير وأن هذا القائد قد جازت عليه الحيلة — أنظر ابن القلانسى ص ٣ ، ابن الأثير ج ٨ ٢٥٢

القرمطية فى المعركةالتى قامت بين الطرفين.(٦١) واضطر القرامطة للانسحاب من مصر ، وأرسل الخليفة المعز وراءهم جيشاً قوامه عشرة آلاف محارب لمطاردتهم تحت امرة قائده ابراهيم بن جعفر فلاح . وتثاقل هذا فى سيره لخوفهمن أن يرجع عليه القرامطة نظراً لما أشتهروا به من جرأة وشدة. وعلى كل حال فقد فضل هؤلاء الإنسحاب والعودة إلى بلادهم . ولم يضطر الفاطميون بعد ذلك لمواجهة خطرهم من جديد الا فى أوائل عهد الخليفة العزيز .

وبعد هزيمة القرامطة فى مصر وانسحابهم إلى الاحساء ، عزم المعز على القضاء على ما كان لهم من نفوذ فى الشام وإعادة الحكم الفاطمى اليها . وكانت دمشق هى المركز الرئيسى لما تبقى من المقاومة القرمطية هناك ، ولذا وجه المعز جهوده للاستيلاء عليها . وكان الأعصم قد عين عليها منذ فترة سابقة أبا المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقلى . ولكن على أثر الخلاف الذى قام بين هذين الرجلين حول خراج المدينة ، ناصر الأعصم أبا المنجا وأبقاه على حكم دمشق وأبعد ظالم العقيلى بعد أن أعتقله مدة من الزمان .(٦٢) وقد رأى المعز أن يستغل هذه الظروف واستياء ظالم العقيلى ليستعين بالقبائل العربية التى كانت تحت امرة ظالم فى إسترداد المدينة . وعينه المعز واليا على دمشق وأرسله لامتلاكها باسم الفاطميين . وقد وصل ظالم إلى المدينة فى ٣ يونيو ٩٧٤م ، وتمكن من دخولها والقبض

---

٦١ — كانت هذه الموقعة فى رمضان ٣٦٣ هـ (٢٦ مايو / ٢٤ يونيو ٩٧٤ م) — ابن القلانسى ص ٣

٦٢ — اتعاظ الحنفا ص ٢٥٠

على واليها القرمطى أبى المنجا وأتباعه، وأقام بها الحكم باسم الفاطميين(٦٣)

وللأسف فإن الروايات التى جاءت بها المصادر العربية ،التى وصلت إلى أيدينا ، لا تساعدنا بشكل كاف لرسم صورة كاملة دقيقة لعملية فتح الفاطميين للبلاد الشامية ، فى الفترة الأولى من تاريخ ظهورهم فى الشرق الأدنى ، تلك الفترة التى صاحبت الهجوم البيزنطى الذى قام به الامبراطور تزيمسكس . فقد أقتصرت هذه المصادر فى ذلك على بيان الظروف التى أستولى فيها الفاطميون على الرملة وطبرية ودمشق ويافا ، ولم تذكر شيئا عن فتحهم لغير ذلك من البلاد والمدن مثل بيت المقدس أو طرابلس . الا أن الباحث المدقق ، يستطيع أن يستنتج مما جاء فى المصادر التاريخية أن الفاطميين لا بد وأن تعرضوا لبلاد ومدن شامية أخرى وأنهم نجحوا فى اخضاعها لحكمهم ، خاصة بعد أن تم لهم القضاء على مقاومة الإخشيديين والقرامطة واستمالة عدد من القبائل العربية . فقد جاء فى خطاب الامبراطور تزيمسكس عن حملته على الشام،أن المقاومة الرئيسية التى صادفها فى فلسطين قد جاءت من جانب «الأفريقيين الملاعين » يقصد القوات الفاطمية ، (٦٤) مما يشير إلى قيام الفاطميين فى هذه الأنحاء . كما نرجح أن الفاطميين قد نجحوا فى مد سلطانهم على كثير من المدن والمراكز الساحلية حتى مدينة طرابلس على الأقل . فمن الثابت أنهم تمكنوا من الاستيلاء على طرابلس فى هذه الفترة،اذ تذكر المصادر صراحة أنه كان يتولاها من قبلهم ريان الخادم. (٦٥) كما أن تزيمسكس ذكر أن القوات الاسلامية التى قاومته فى طرابلس كانت

---

٦٣ — يوافق هذا التاريخ ١٠ رمضان ٣٦٣ — أنظر : ابن القلانسى ص ٤

٦٤ — متى الرهوى ص ١٦

٦٥ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٤ ، ابن القلانسى ص ١٠

قوات « افريقية » أى فاطمية(٦٦) والواقع ان امتداد الحكم الفاطمى على المراكز الساحلية فى الشام كان مسألة طبيعية نظرا لقوة البحرية الفاطمية فى عهد المعز.(٦٧)

ومهما يكن من أمر رجوع الحكم الفاطمى إلى دمشق ، وامتداده إلى مناطق أخرى فى الشام ، فان الفترة التى امتدت من استرجاع الفاطميين لدمشق فى يونيو ٩٧٤ م حتى مجىء الامبراطور تزيمسكس إلى الأراضى المسيحية المقدسة فى العام التالى ، قد شهدت مشاكل جديدة بالنسبة للفاطميين . وترجع هذه المشاكل إلى الاضطرابات الداخلية التى قام بها أهالى دمشق . كما ترجع لظهور القائد التركى أفتكين على مسرح الحوادث فى الشام .

أصبحت دمشق فى الفترة المذكورة مسرحا للكثير من الاضطرابات الداخلية نتيجة للاشتباكات التى قامت بين المغاربة والدماشقة وما صاحب ذلك من كثرة التغيير فى ولاتها والمسئولين عنها . فأن القائد الفاطمى ابراهيم بن جعفر بن فلاح ، بعد اطمأن إلى رجوع الإعصم القرمطى إلى بلاده ، جاء بجيشه من المغاربة إلى دمشق .(٦٨) ولا بد أن المعز أمره بذلك حتى يعاون ظالم العقيلى فى المحافظة على دمشق ، وحتى لا يستأثر ظالم بحكم هذه الامارة . إلا أن الجنود المغاربة لم يحسنوا التصرف فى مسلكهم مع أهالى المدينة وأساءوا اليهم ، وارتكبوا من أعمال النهب ما تسبب فى تذمرهم .

---

٦٦ ـ متى الرهوى ص ١٨

٦٧ ـ ذكر المقريزى أن الأسطول الفاطمى فى عهد المعز كان يتجاوز عدده ستمائة قطعة ـ أنظر : الخطط ج ٢ ص ١٩٣

٦٨ ـ كان وصول القائد الفاطمى أبى محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح إلى دمشق فى أواخر شهر رمضان ٣٦٣ هـ (يونيو ٩٧٤ م) . أنظر : ابن القلانسى ص ٤

وسرعان ما قامت الاشتباكات وتكررت بين الجنود المغاربة والدماشقة وخاصة عناصر الاحداث الذين كان على رأسهم اذ ذاك شخص يعرف بالمارود (٦٩) وحاول ظالم أن يحد من سوء تصرف المغاربة ويقمع الفتن. وليس من المؤكد إذا ما كان قد أراد بهذا العمل أن يتقرب إلى الدمشقيين ليستقل بدمشق عن حكم الفاطميين ، أم أنه كان يريد اقرار الأمن فى الولاية التى كان مسئولا عنها . ومهما يكن من أمر ، فالمعروف أنه لم ينجح فى تسوية الخلافات وقمع الفتن ، كما أن تصرفه لم يلق الرضا من جانب القائد الفاطمى. وقد تمكن هذا الاخير من اقرار اتفاقية بينه و بين الدمشقيين لعزل ظالم العقيلى عن ولايته واخراجه من البلد . وحل محله بعد ذلك القائد جيش بن الصمصامة، وهو ابن أخت القائد ابراهيم جعفر وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٣٦٤ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٤ م ـ يناير ٩٧٥ م)(٧٠) .

إلا أن الأمر لم يستقر بدمشق فى عهد الوالى الجديد جيش بن الصمصامة، وتجددت الاشتباكات بين المغاربة وأهالى المدينة ، الأمر الذى استدعى تدخل المعز . وكتب هذا الخليفة إلى قائده ريان الخادم والى طرابلس ، وقلده امارة دمشق وأمره بالتوجه اليها والعمل على فرض النظام والأمن بها، كما أمره بصرف القائد ابراهيم بن جعفر عنها . (٧١) ولكن بالرغم مما بذله الوالى الجديد من جهد لأصلاح الأمر فى دمشق والتوفيق بين المغاربة وأهل

---

٦٩ ـ بخصوص تفاصيل الاضطرابات والفتن التى قامت فى امارة دمشق أثناء ولاية ظالم العقيلى ، أنظر : ابن القلانسى ص ٤ ـ ص ٩

٧٠ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٣ ، ابن القلانسى ص ٩

٧١ ـ رحل ابراهيم بن جعفر عن دمشق فى اعداد بسيطة من عسكره ، إلى مدينة الرملة وبقى معظم جنده للخدمة تحت امرة القائد ريان ـ أنظر : ابن القلانسى ص ١٠ ـ ص ١١ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٤

المدينة ، والتغلب على الصعوبات التى هددت حكم الفاطميين فيها ، فإن حكمه لم يستمر طويلا ، وذلك أن العلاقات بين الدمشقيين والجنود المغاربة كانت سيئة لدرجة أنهم كانوا ينتظرون الفرصة المواتية للتخلص من المغاربة الذين أساءوا اليهم والذين كانوا على مذهب لا يقروه . هذا وكان أعيان المدينة بصفة خاصة متضايقين لما كان من تغلب عناصر الأحداث عليهم وعلى مصالحهم (٧٢) . وعلى كل ، فقد سنحت الفرصة للدماشقة للتخلص من هذه الأوضاع ، بظهور القائد التركى أفتكين على مسرح الحوادث فى الشام .

كان أفتكين ، بعد هزيمة الأتراك على أيدى البويهيين فى يناير سنة ٩٧٥ م (جمادى الاولى سنة ٣٦٤ هـ) ، قد قرر أن يجرب حظه فى مكان آخر . وعلى ذلك غادر العراق مع جماعة من أتباعه إلى البلاد الشامية . (٧٣) ونزل أول الامر ، عند حمص التى كانت تابعة للحمدانيين ، وأقام هناك عدة أيام . ومن الجائز أنه حصل هناك على بعض المساعدات ، وعلى كل حال فانه أتجه بعد ذلك جنوبا إلى دمشق ونزل بظاهرها . ويبدو أنه حتى هذه

---

٧٢ — ابن القلانسى ص ٨ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠

٧٣ — ذكر ابن القلانسى ان انتقال افتكين إلى الشام كان سنة ٣٦٣ هـ ، وهذا خطأ ، إذ الثابت ان هذا القائد قد اشترك فى الاحداث التى قامت فى العراق فى الجزء الأول من سنة ٣٦٤ هـ ثم انتقل بعد هزيمته هناك إلى الشام — هذا وقد ذكر نفس المؤرخ عن القوة العسكرية التى صاحبت افتكين إلى الشام بأنها « فرقة وافرة من الأتراك تناهز الثمانمائة فارس من طراخين الغلمان » . ونرجح ان افتكين كانت لديه كذلك عناصر أخرى من المحاربين إلى جانب مماليكه ، فانه كان لا يستطيع ان ينجز ما فعله فى الشام باعتماده فقط على هذه القوة المحدودة التى ذكرها ابن القلانسى — انظر : ابن القلانسى ص ١١ ، يحيى الأنطاكى ص ١٤٤ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٨

الفترة لم يكن قد حدد بعد هدفه، وأنه كان لا يزال يتلمس الفرص المناسبة. ويقول المؤرخ يحيى الانطاكي أن أفتكين أرسل إلى الخليفة المعز يستأذنه في الذهاب اليه في مصر (٧٤). ومن الجائز جدا أن أفتكين قد أراد اذ ذاك أن يلحق نفسه بخدمة هذا الخليفة الذي كان يحكم اذذاك دولة فسيحة قوية. هذا ولم يكن اختلاف المذهب وكون أفتكين على المذهب السني بالأمر الذي يجعل هذا الامير يحجم عن العمل في خدمة الخليفة الشيعي . فان طموحه كان أقوى من أن يجعل الاختلاف المذهبي يقف في طريق مشروعاته السياسية . ويجب ألا ننسى أنه كان أصـلا يعمل في خـدمة البويهيين الشيعة .

ومهما يكن من أمر فإن أفتكين لم ينتظر وصول الرد من الخليفـة الفاطمي ، اذ تطورت الأحوال بشكل جعله يقرر أن يتخذ من دمشق قاعدة لانشاء إمارة جديدة له في الشام : وذلك أنه أثنـاء اقامته بظاهر دمشق ، جاءه وفد من شيوخ المدينـة وأشرافها الذين أرادوا التخلص من حـكم الفاطميين وسيطرة « الأحداث » وعرض أعضاء هـذا الوفد عليه حـكم إمارتهم . وتم الاتفاق بينهم وبين افتـكين على أن يتولى إمارة دمشق ، واشترط هذا عليهم أن يقدموا له الطاعة والولاء والمساعدة ، كما تعهد لهم بحمايتهم واصلاح شئونهم ولم تأت المصادر بمعلومات عن كيفية تغلب أفتكين على الوالي الفاطمي بدمشق ، إلا أنه من الثابت أن أفتكين نجـح في دخول المدينة وطرد ريان الخادم منها وذلك في آخر شعبان ٣٦٤ هـ (١٤ مايو ٩٧٥ م). وعلى أثر ذلك قطع افتكين الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي، ولا ريب أن ذلك كان ممـا يرضي الدماشقة السنيين . كما أخذ أفتكين في

---

٧٤ ـ يحيى الأنطاكي ص ١٤٥

تنظيم شئون امارته وتدبيرها . ومن أول ما عمله كان الضرب على أيدى القبائل العربية التى كانت أستولت على سواد المدينة ونجح فى فرض كلمته عليها . كما أرجع الاقطاعات إلى أهلها وخلصها من مغتصبيها ، والمرجح أن هؤلاء كانوا من الأحداث . كما نظم مالية البلاد ونجح فى اقامة الأمن فأصبح حاكما مطاعا بدمشق . (٧٥)

ولقد توقع أفتكين أن يقوم الفاطميون بمحاولة استرجاع دمشق . ولذا فانة جدد اتصاله بالخليفة الفاطمى ، محاولا كسب الوقت لتثبيت مركزه فيها. ويذكر ابن القلانسى أن أفتكين « كاتب المعز مكاتبه على سبيل المداجاة والمغالطة والتمويه والانقياد له والطاعة لأوامره . » كما يقول نفس المؤرخ أن المعز « أجابه بالأحماد والارتضاء بمذهبه والاستدعاء له إلى حضرته ليشاهده ويصطنعه لنفسه ويعيده إلى ولايته بعد ذلك مكرما مولى مشرفا». (٧٦) إلا أن أفتكين لم يطمئن إلى ذلك ، وامتنع عن الذهاب إلى المعز الذى قرر أن يعد العدة لإرسال جيش ضده . ولكن لم تسمح له الظروف بذلك . إذ صاحب قيام أفتكين فى ولاية دمشق ، مجىء حملة الأمبراطور تزيمسكس إلى الشام فى ربيع سنة ٩٧٥م وأصبح على الفاطميين مواجهة هذا الخطر البيزنطى الكبير الذى أستمر حتى أواخر السنة المذكورة . هذا وفى ديسمبر من نفس السنة مات الخليفة المعز . (٧٧) وأصبح على الخليفة الفاطمى الجديد، وهو العزيز، أن يواجه خطر أفتكين الذى تزايد بشكل خاص على أثر استدعائه

---

٧٥ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠ ، ابن القلانسى ص ١١ — ص ١٢

٧٦ — المرجع السابق ص ١٢ . أنظر كذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠

٧٧ — كان موت الخليفة المعز فى ١٧ ربيع الآخر ٣٦٥ هـ (٢٤ ديسمبر ٩٧٥ م)
انظر : ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٣ . ابن القلانسى ص ١٤

للقرامطة ، الذين سارعوا لمساعدته ضد عدوهم القديم . ولم يتمكن العزيز من القضاء على خطر أفتكين والقرامطة إلا فى موقعة الرملة (أغسطس ٩٧٨م). (٧٨) ، التى على أثرها استرجع الفاطميون ولاية دمشق ، وبدأ إستقرار النفوذ الفاطمى فى أواسط وجنوب الشام . ومهما يكن من أمر ، فان حركة أفتكين كانت عاملا آخر أدى إلى زيادة اضطراب الأحوال السياسية بين المسلمين فى الشام وتمهيد السبيل أمام هجوم الإمبراطور تزيمسكس .

ولا يجوز القول أن المسلمين قد نسوا ، أثناء تعرض بلادهم لخطر الهجوم البيزنطى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى، وخاصة فى عهد تزيمسكس ، مبدأ الجهاد فى سبيل الاسلام . فاننا نجد دعاة اهتموا بحث المسلمين على طرح خلافاتهم المحلية والجهاد فى سبيل الاسلام ونصرته ضد البيزنطيين . ويرى بعض المشتغلين بدراسة تطور الأدب العربى أن هذا العصر شاهد بعث وانتعاش الخطابة ممثلة فى خطب الجهاد العديدة التى وصلت إلى أيدينا .(٧٩) ولقد جاء هذا البعث نتيجة لاشتداد الخطر البيزنطى وازدياده . وهب المتحمسون ليعتلوا المنابر ويحثوا المسلمين على الجهاد والدفاع عن « دار الاسلام » . وكان من أبرز الشخصيات التى قامت بمجهود كبير فى الدعوة للجهاد ، هو الخطيب والفقيه المعاصر ابن نباته الذى عمل على تقوية الروح المعنوية عند المسلمين وحثهم على الجهاد .

---

٧٨ ـ كانت هذه الموقعة فى السنوات الأولى من حكم العزيز ـ وقد ذكر يحيى الأنطاكى أنها كانت فى ٧ المحرم ٣٦٨ هـ (١٥ أغسطس ٩٧٨ م) ، اما ابن الأثير فقد جعل الموقعة فى المحرم ٣٦٧ هـ ـ أنظر : يحيى الأنطاكى ص ١٥٥ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٢

٧٩ ـ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمدانى (القاهرة ـ ١٩٥٩) ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩

ولإبن نباته مجموعة كبيرة من خطب الجهاد .(٨٠) ومن خطبه كانت تلك الخطبة التالية التى عمد فيها إلى لوم وتوبيخ المسلمين على تقاعسهم عن الجهاد محذراً اياهم من ذلك . وقد جاء فيها : « أيها الناس ، ان الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاب . وان الآخرة قد أقبلت وأذعنت باقتراب . فلا نحن لما أدبر من هذه ذوو اجتناب . ولا لما أنذر من تلك أولو ارتقاب . كأن قلوبنا من الصم الصلاب .(٨١) أو كأن نفوسنا واثقة بحسن المآب . كلا بل ران عليها خبث الإكتساب . وأعمى بصائرها طول الالعاب . (٨٢) فليس ينفعها قرع العتاب . ولا يردعها صدع الكتاب .(٨٣) ولا تعضها اذالة الأحساب .(٨٤) قد دخلت علينا الفتنة من كل باب . وأطمعتنا الدنيا أطماع السراب . نتهارش على حطامها تهارش الكلاب ... (٨٥) » وقد جاء فى خطبة أخرى لإبن نباته فى ترغيب الناس فى الجهاد : « أيها الناس ، أن الجهاد باب الجنة الأعظم وطريقها الأقوم . من سلكه أمن المهالك . ومن أدركه قطن الممالك . ومن شمر له كفى الفاقرة . (٨٦) ومن أهمله

---

٨٠ ــ أنظرا : ديوان خطب ابن نباته (ط . بيروت ١٣١١ هـ) الجزء الخاص بخطب الجهاد ص ١٧٧ ــ ص ٢٤٠

٨١ ــ المراد بالصم الحجارة

٨٢ ــ الالعاب : اللعب

٨٣ ــ صدع الكتاب أى تأثيره فى القلوب

٨٤ ــ ومضه والعضه : أو جمه ــ الاذالة : الاهانة والابتذال

٨٥ ــ تهارش الكلاب أى تخاصمها على الجيف ــ أنظر : ديوان خطب ابن نباته ص ١٧٨ ــ ص ١٧٩

٨٦ ــ الفاقرة : الداهية التى تكسر الفقار أى الظهر

خسر الدينا والآخرة . فخسران دنياه الذل والعار . وخسران أخراه الخزى والنار ... »(٨٧)

وكان لفكرة الجهاد والجهود التى بذلها الدعاة للحث عليه ، آثارها فى دفع المسلمين فى الشرق الأدنى على القيام لمحاربة البيزنطيين وخاصة فى أوقات الأزمات . ونستطيع القول أن عامة المسلمين كانوا ينظرون إلى مجاهدة الروم والدفاع ضدهم عن « دار الاسلام » كفرض واجب عليهم لا يستطيع أحد أن ينكره . ونحن نسمع عن حالات وجد فيها رد فعل بين المسلمين وذلك عند اشتداد الخطر البيزنطى ونجاح البيزنطيين فى إلحاق هزائم كبيرة بقوات المسلمين . وكان رد الفعل هذا يأتى على شكل قيام عامة المسلمين فى بعض البلاد بمظاهرات لحث المسئولين على ارسال المساعدات . كما نجد أن الغيورين على مصلحة الاسلام يقومون بمواجهة المسئولين وتوجيه اللوم لهم فى حالة اهمالهم للجهاد وانشغالهم فى تحقيق مصالحهم الخاصة . وسوف نوضح ذلك تفصيلياً فيما بعد عند دراسة الحملات التى قام بها تزيمسكس ضد المسلمين .

ومهما يكن من أمر ، فلم يفلح ما كان هناك من أهتمام بين المسلمين بالجهاد ولا المحاولات التى بذلها أبن نباته وأمثاله من الدعاة إلى الجهاد ، ولا الإنتصارات التى أحرزها البيزنطيون وتقدمهم فى البلاد الإسلامية وخطرهم المتزايد ، فى إيجاد حركة رد فعل عامه وتكوين جبهة اسلامية متحدة تجمع بين المسلمين فى الشرق الأدنى للجهاد ضد هذا الخطر البيزنطى ومواجهته .

---

٨٧ — ديوان خطب ابن نباته ص ١٩٦ — أنظر كذلك النص الكامل للخطبة التى قالها ابن نباته لتشجيع المسلمين على الجهاد بمناسبة انتصارهم على الدمستق البيزنطى ملحق فى الملحق الثالث

حقيقة أنه وجدت بعض الحالات التى نسمع فيها عن أرسال نجدات من بغداد لمساعدة المسلمين فى أقاليم الجزيرة ضـــد البيزنطيين ، إلا أن هـذه المساعدات كانت محـدودة ، ولم تأت بشكل دائم بل جاءت فى حالات معينة .

وإن ماساد من الأضطراب فى أحوال المسلمين السياسية فى الشرق الأدنى ، وانقسامهم فى هذه المنطقة إلى عدد من الدويلات والقوى المختلفة المتصارعة أثناء القرن العاشر الميلادى ، تلك الصورة التى تـكرر ظهورها فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الميلاديين ، هو الذى يفسر النجاح الذى أحرزته كلتـا الحروب الصليبية البيزنطية ، والحروب الصليبية اللاتينية ضد المسلمين .

ومما يجب ملاحظته فى هذا الموضع ، الحالة المعنوية بين المسلمين فى الشرق الأدنى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . فبالرغم مما قام به البيزنطيون من هجوم وما أحرزوه من نجاح ، وأستسلام بعض المدن والمراكز الأسلامية لهم ، وخوف بعض المسلمين الواقعين فى طريق هجماتهم ، فلم يعتر المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى شعور عام بالخذلان أو الرهبـة والخوف أمام الامبراطورية البيزنطية . ونستشهد فى هذا الصدد بما كتبه الرحالة الجغرافى المعاصر ابن حوقل(٨٨) الذى يمثل رأيه آراء كثيرين من المسلمين الذين كانوا حتى هذا العصر يعتزون بقوة الأسلام وبما حققوه من فتوح وإنتصارات كبرى على حساب الامبراطورية البيزنطية وغيرها منـذ

---

٨٨ — حدد فيليب حتى عصر نشاط ابن حوقل واتجاهه بالمدة الواقعة بين سنتى ٩٤٣ — ٩٧٧ م — أنظر :

Hitti, History of the Arabs (3 rd ed. London, 1946) p. 385.

أيام حركة الفتوحات الأسلامية الأولى (٨٩). وهو لم يتأثر بنهضة الامبراطورة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية وما وصلت إليه من قوة فى القرن العاشر الميلادى . فقد جاء فى وصفه لهذه الامبراطورية: «بلد الروم عند الكثير من خاصة أهل الاسلام ومؤلفى الكتب ، بخلاف ماهو عليه بالحقيقة من صغر المحل وتفه الخطر ونزور الدخل ، وضعة الرجال ، وعزة الأموال . وخسيس الاعمال والاحوال.. »(٩٠) وقد أرجع ابن حوقل أسباب انتصار البيزنطيين على المسلمين ، إلى إنشغال هؤلاء فى خصوماتهم وحروبهم المحلية بدلا من تكوين جبهه متحدة ضد العدو الكافر . وهو يقول فى ذلك : « غير أن للاسلام فيما عليه نفوس أهله وقلوبهم شأنا فى إنتشار الكلمة وفساد الحال وكثرة العناد والخلاف والاشتغال بطلبة بعضهم لبعض ما حلا به للروم سربهم(٩١) فطالت أيديهم إلى ما كانت مغلوله عنه وأطماعهم محسومة منه . »(٩٢)

---

٨٩ ــ ومما يدل أيضا على انتشار هذا الشعور بين المسلمين ما جاء فى القصيدة المعاصرة لهذه الفترة التى نظمها القفال الشاشى ، وفى « الفريدة الاسلاميه » التى وضعها ابن حزم . أنظر تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ ، ص ١٨١ ــ ص ١٨٤ ، الملحق الرابع

٩٠ ــ ابن حوقل ج ١ ص ٢٠٠

٩١ ــ السرب : الطريق

٩٢ ــ ابن حوقل ج ص ٢٠١



الفصل الرابع

العوامل التى أدت إلى الهجوم البيزنطى على الشرق الأدنى الاسلامى فى عهد تزيمسكس

- الهجوم البيزنطى على الشرق كجزء من حركة التوسع الخارجى .
- وجود مركز الثقل البيزنطى فى آسيا الصغرى واثر ذلك فى توجية الهجوم نحو الشرق .
- رغبة البيزنطيين فى استرجاع مستعمراتهم القديمة فى الشرق .
- الارتباط الروحى بين البيزنطيين والاراضى المسيحية المقدسة وآثارها الدينية .
- اعتبار البيزنطيين استرجاع الاراضى المسيحية مهمة مقدسة .
- موقف كنيسة القسطنطينية من فكرة الحرب المقدسة .

عندما نستهل هذا الموضوع ، يجب أن نضع فى مقـدمة إعتبارنا أن الغزوات الـكبرى التى قـام بها البيزنطيون فى الشرق الأدنى الاسلامى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى بما فى ذلك الحملات التى قـام بهـا الامبراطور تزيمسكس ، إنما كانت جزءاً من حركة التوسع الخارجى العام الذى قام به البيزنطيون والذى جاء نتيجة لنهضة الامبراطورية البيزنطية وما وصلت إليه من قوة فى عهد الأسرة المقدونية .

هذا وقد وجدت كـذلك عوامل خاصة أدت إلى اهتمام البيزنطيين بشن الهجوم على منطقة الشرق الأدنى ومن ذلك أن اقليم آسيا الصغرى البيزنطى ،

المجاور للبلاد الإسلامية ، كانت له أهمية خاصة فى هذا الوقت . ففى هذه الحقبة من التاريخ كان مركز الثقل بالنسبة للعالم الهلينستى فى آسيا الصغرى أكثر منه فى الأجزاء الأوربية من الأمبراطورية البيزنطية . وكان الطابع الهلينستى قويا وسائدا بين سكان المدن والريف فى هذا الاقليم ، وكانت العقيدة الأرثوذكسية هى عقيدة أهالى خلقدونه ونيقوميديا ونيقية وغيرها . كما كانت « الثيمات » المختلفة بآسيا الصغرى هى المسئولة إلى حد كبير عن إمداد خزانة الامبراطورية بإيراداتها . كما كان بين أهالى هذه « الثيمات » أن جمعت الأمبراطوريه خيرة قوداها وجنودها. وكانت آسيا الصغرى البيزنطية موطنا للعائلات الاقطاعيه الكبيرة مثل آل كوركواز Curcuas وآل فوقاس Phocas وآل تزيمسكس Tzimisces وآل ديوجين Dicgenes وآل كومنين Comneni . وكانت اقطاعات آل قوكاس فى قبدوقية وآل تزيمسكس وآل كوركواز فى أرمينية ، وآل دوكاس ممتدة بين بيثينيه وبفلاجونيا ، وأملاك آل ديوجين فى قبدوقيه وآل بوتانياتيس حول عمورية . [1] وقد خبرت هذه العائلات الاقطاعية ، بحكم موقعها الجغرافى ، شئون القتال ضد المسلمين المجاورين . والواقع أن معظم القادة فى حروب بيزنطة ضد المسلمين جاءوا من هذه المنطقة . وكان من الطبيعى أن يهتم كل من الامبراطور نقفور فوقاس وتزيمسكس بأمور الأنحاء التى نشأوا فيها والتوسع على حساب جيرانهم المسلمين .

وكان من العوامل التى أدت إلى الهجوم الذى قام به البيزنطيون فى هذا العصر رغبتهم فى استعادة مستعمراتهم القديمة فى الشرق الأدنى ، تلك المستعمرات التى فقدوها فى القرن السابع الميلادى عندما قام العرب بحركة

---

(1) J. Laurent. Byzance et les Turcs Seldjoucides. p. 103,

فتوحاتهم الكبرى ولابد أن هذه الرغبة ازدادت شدة نتيجة لما شعر به البيزنطيون من نمو قوتهم فى القرن العاشر الميلادى ، وكذلك على أثر الانتصارات الأولى التى أحرزوها أثناء تقدمهم فى الشرق . ونستطيع أن نتبين تمسك البيزنطيين بما اعتبروه حقاً قديماً لهم ومطالبتهم به ورغبتهم فى استرداده ، فيما جاء فى تلك الرسالة التى بعث بها الامبراطور نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسى المطيع حوالى سنة ٩٦٤ م ، أى قبيل اعتلاء تزيمسكس العرش بنحو خمس سنوات . وكانت هذه الرسالة على شكل قصيدة نظمها على لسانه أحد كتابه باللغة العربية ، وقد اشتهرت باسم القصيدة الأرمينية .[٢] وخاطب فيها هذا الامبراطور العباسيين باعتبارهم أصحاب السلطة العليا فى بلاد المشرق ، وأمرهم بالعودة إلى أرض صنعاء والحجاز وإخلاء ما كانوا يحكمونه من « بلاد الروم » .[٣] كما نادى « بحق البيزنطيين » فى حكم

---

٢ ــ ذكر المؤرخ ابن كثير أنه نقل هذه القصيدة أصلا عن كتاب « صلة الصلة » للفرغانى وهو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى . وفى هذا العصر الذى نشط فيه الاتصال بين البيزنطيين والعرب ، لم يكن من الصعب الحصول على من يقوم بكتابة هذا الشعر بالعربية . والظاهر ان قائلها غير عربى ومن الأرمن إذ وجدت معنونة باسم « القصيدة الأرمينية » أنظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٤ — ص ٢٤٧ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى (ط . أولى — المطبعة الحسينية ــ تاريخ الطبع غير مذكور) ج ٢ ص ١٧٩ ــ ص ١٨١

٣ ــ مما جاء فى ذلك :

ويا قاطنى الرملات ويلكم ارجعوا ∴ إلى أرض صنعا راعين البهائم

وعودوا إلى أرض الحجار أذلة ∴ وخلوا بلاد الروم أهل المكارم

أنظر : ابن كثير ج ١١ ص ٢٤٦

عدد من بلاد الشرق الأدنى ، وعزمه على فتحها ، مثل دمشق ومصر وبعض البلاد فى شمال العراق .(٤)

ومع أهمية الدوافع العلمانية التى أدت إلى قيام حركة الهجوم البيزنطى على المسلمين ، فانه لا يكون من الصواب أن نغفل عن أثر الدافع الدينى . وان الباحث المدقق لابد وأن يتبين تلك الحماسة والمشاعر والأهداف الدينية التى تظهر بوضوح وبشكل خاص فى حملات الامبراطورين نقفور فوقاس وتزيمسكس ، على نحو يذكرنا بما حدث أثناء الحروب الصليبية التى قامت بها العناصر الأوربية اللاتينية بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان .

وسبب ظهور تلك الحماسة الدينية فى الدولة البيزنطية فى الفترة المذكورة انما يرجــــع للارتباط الروحى الشديد بين البيزنطيين والأراضى المسيحية المقدسة . والواقع أنه قد وجد رباط روحى بين أوربا المسيحية بشقيها ، البيزنطى واللاتينى ، وهــــذه الاراضى طيلة العصور الوسطى . ففى تلك الأراضى ظهر السيد المسيح ، وبشر برسالته ، ثم صلب على حـد اعتقاد المسيحيين . ثم أن الديانة المسيحية كانت ديانة شرقية فى عهـدها الأول ، وقد ظهر كثير من قديسيها وشهدائها الأول فى هذه البلاد التى تركوا فيها آثارهم ومخلفاتهم المادية . وأصبح المسيحيون يعتقـدون أن زيارة تلك الاراضى المسيحيـة المقدسة وآثار القديسين تكسبهم ثوابا وتحقق لهم

---

٤ ــ جاء فى القصيدة الأرمينية ما يأتى :

ومسكن آبـائى دمشــق فاننى ∴ سأرجع فيهـا ملكنـا تحت خاتمى
ومصـــر سأفتحها بسيفى عنـــوة ∴ وآخــذ اموالا بهـا وبهـائمى
كذلك نصيبـين وموصلهـا إلى ∴ جزيرة آبـائى وملـك الأقـادم

انظر : المرجع السابق ج ١١ ص ٢٤٥ ــ ص ٢٤٦

الكرامات . كما كانوا حريصين على الحصول على ما يمكن التوصل اليه من آثار السيد المسيح والقديسين بغرض التبارك بها . وكان وقوع الأراضى المسيحية المقدسة تحت حكم غير مسيحى مسألة تثير مشاعر المسيحيين وتدفعهم على القيام لتخليصها على النحو الذى حدث عندما تمكن الفرس فى الجزء الأول من القرن السابع الميلادى من فتح بيت المقدس وحمل الصليب المقدس إلى عاصمة دولتهم .

وكان من الطبيعى أن يعم الاستياء أهالى أوربا المسيحية عندما تمكن المسلمون من فتح بيت المقدس سنة ٦٣٧ (أو ٦٣٨) لتبقى فى أيديهم حتى سنة ١٠٩٩ م . وظلت أوربا على اهتمامها بالاراضى المسيحية المقدسة ، ولكنها بقيت فترة طويلة وهى شاعرة بالعجز عن القيام بأى تدخل عسكرى مباشر لإسترجاع هذه البلاد . فإن قوى الاسلام السياسية كانت لاتزال آخذة فى الازدياد، كما دأب المسلمون أثناء ذلك على مواصلة حركة الفتوحات الاسلامية بهمة ونشاط ، حتى اضمحل النفوذ البيزنطى فى الشرق ، وانكمشت أملاك بيزنطة هناك وتراجعت حدودها وبقى الاسلام بلا منازع فى الاراضى المسيحية المقدسة . وفى هذه الأحوال أصبح استرجاع تلك الاراضى أملا بعيداً عن أفق السياسة البيزنطية .

ولكن مع النجاح الملحوظ الذى أحرزه البيزنطيون فى دفع حدودهم شرقاً على حساب المسلمين منذ أواسط القرن العاشر الميلادى ، تجدد اهتمام البيزنطيين بالاراضى المقدسة وما بها من آثار دينية ، كما تجدد وأملهم اهتمامهم باسترجاع هذه الاراضى . وهناك عدة شواهد تدل على مدى قوة ارتباط البيزنطيين روحيا بالاراضى المسيحية المقدسة وازدياد اهتمامهم بكل ماحوته فى العصر الذى عاش فيه تزيمسكس . ويروى لنا المؤرخ المسيحى يحيى

الانطاكى المسألة الخاصة بأيقونة منديل المسيح . (٥) ذلك أنه فى سنة ٩٤٣ م (٣٣١ هـ) بلغت الجيوش البيزنطية فى تقدمها إلى مدينة الرها لمنازلتها . ويقوم المؤرخ المذكور « ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه . وبذل لهم الروم انهم اذا سلموهم هذا المنديل أطلقوا من الأسارى المسلمين الذين بيدهم عدداً ذكروه لهم . » ثم يبين هذا المؤرخ كيف وافق أهل الرها على طلب البيزنطيين بعد استشارة أهل الرأى فى بغداد . كما يذكر كيف حمل البيزنطيون هذا المنديل فى موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور وبطريرك القسطنطينية وغيرهما من كبار القوم ، وأن هذا المنديل حمل إلى كنيسة أيا صوفيا ثم إلى القصر الامبراطورى للإحتفاظ به .(٦) ويروى لنا يحيى الانطاكى كذلك رواية أخرى عن اهتمام البيزنطيين بالآثار الدينية الموجودة فى الشرق ورغبتهم فى جمعها وهذه الرواية توضح حرص الامبراطور نقفور على أخذ القرميدة التى كانت تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) ، وكيف أخرجها اليه أهل المدينة فأخذها منهم ولم يعرض لهم بمكروه .(٧)

---

٥ ـ تعرف هذه الأيقونة فى المصادر الغربية باسم Manditlon

٦ ـ كان لهذا المنديل قدره بين المسلمين كذلك . فان أهل الرها لم يتصرفوا فيه قبل أخذ رأى الخليفه المتقى ببغداد . واستلزم الأمر هناك عقد مجلس من القضاة والفقهاء ليفتوا فى المسألة . ولم يكن من السهل على هؤلاء أن يوافقوا فى أول الأمر على تسليم المنديل : اذ اعترض بعضهم على ذلك ان المسلمين أحق بمنديل عيسى ولم يوافق المجتمعون على تسليمه إلا مجبرين وذلك لكى يخلصوا الأسرى المسلمين من « دار الكفر » . انظر : يحيى الأنطاكى ص ٩٨ ـ ص ٩٩

٧ ـ المرجع السابق ، ص ١٢٧

هذا ومن أقوى الشواهد على أرتباط للبيزنطيين بالاراضى المقدسة فى هذا العصر ما جاء فى تلك الوثيقة التاريخيه البالغة الأهمية ، والتى كانت على شكل رسالة بعث بها الامـــبراطور تزيمسكس إلى حليفه آشوط الثالث Ashod III ملك أرمينيـة المسيحى ، تلك الرسالة التى حفظها لنا المـؤرخ الأرمينى متى الرهوى .(٨) فقد ذكر تزيمسكس أنه أثناء الحملة التى قام بها على البلاد الشامية لم يعرض بعض مدنها لويلات الحـــروب لإرتباطها بفجر تاريخ المسيحية . كما نلحظ اهتمامه البالغ بالحصول على عدد من الآثار الدينية وافتخاره بذلك . ومن النصوص الهامـة التى جاءت عن ذلك فى خطاب تزيمسكس ، كان النص الخاص بمنازلة مدينة طبرية حيث قال : « ثم اتجهنا نحو بحيرة طبرية ، هناك حيث أتى مولانا المسيح بمعجـزته — بسمكتين وخمسة أرغفة من الخبز . وعزمنا على محاصرة المدينة ، إلا أن الاهالى أتوا ليعلنوا خضوعهم ... عندئذ تركناهم أحراراً من نير الاستعباد ، وامتنعنا عن تخريب مدينتهم وديارهم . لقد جنبناهم مغبة النهب لأن بلدهم كانت موطن الحوار بين المقدسين . »(٩) وبشأن ماحدث عند الناصرة فقد جاء فى الرسالة المذكورة : «وحدث نفس الشىء فى الناصرة ، حيث كانت أم الرب القديسة مريم العذراء سمعت النبأ السعيد من فم الملاك . »(١٠) ويذكر تزيمسكس فى اعتزاز ما حصل عليه عند مدينة جبلة وما فعله به ، فيقول : اننا عثرنا فى

---

(8) Chronique de Matthieu d'Édesse, Recueil des Historiens des Croisades. Documents arméniens, vol. I, pp. 13 - 20:
ـ سوف اشير إلى هذا المرجـع فيما يلى باسم « متى الرهوى » ـ انظر ترجمتنا العربية الكاملة لخطاب تزيمسكس فى الملحق الأول .

٩ ـ متى الرهوى ص ١٥ ـ ص ١٦

١٠ — المرجع السابق ص ١٦

حبيلة على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الارض ، كما وجدنا أيقونة المخلص ـ المسيح ـ ، تلك الأيقونة التى كان قد طعنها اليهود فسال منها فى التو دم وماء . ولكن نحن لم نلحظ فى هذه الأيقونة طعنة الحربة. ووجدنا كذلك فى المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول ، وهو شىء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلفات ، حملناها معنا لنحتفظ بها فى مدينتنا ـ القسطنطينية ـ التى يكلأها الرب برعايته .(١١)

وإن هذا الأرتباط والاهتمام المتزايد بالبقاع المسيحيه المقدسة وما حوتة من آثار دينية ، قد بعث بين البيزنطيين حماسة دينية حثتهم على القيام بما كان بالنسبة لهم مهمة مقدسة أو حروب دينية فى طابعها ، من حيث أنها هدفت لنصرة المسيحية وتحقيق مجدها ، بما فى ذلك استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة وإقامة الحكم المسيحى بها ، والقضاء على قوى الاسلام . وكان أول ظهور هذه الحماسة الدينية بشكل واضح فى عهد الأمبراطور نقفور فوقاس . وجاءت فى القصيدة الأرمينية السابقة الذكر، أبيات تظهر بوضوح الدافع الدينى فى حروبه ضد المسلمين . فقد أعلن عن عزمه للقيام بالغزو لنشر الدين المسيحى فى مشارق الأرض ومغاربها (١٢) ،

---

١١ ـ المرجع السابق ص ١٩ ـ ص ٢٠

١٢ ـ مما جاء فى ذلك القصيدة الأرمينية :

سأفتح ارض الله شرقا ومغربا ∴ وانشر دنيا للصليب بصارمى

فعيسى علا فوق السموات عرشه ∴ يفوز الذى والاه يوم التخاصم

وصاحبكم بالترب اودى به الثرى ∴ فصار رفاتا بين تلك الرمائم

انظر : ابن كثير ج ١١ ص ٢٤٧

كما أبان عن رغبته الأكيدة فى استرجاع بيت المقدس[١٣] بل لقد هدد كذلك بإخضاع مدينة مكة ، المركز المقدس الرئيسى للمسلمين فى العالم أجمع ، واقامة الحكم المسيحى بها .[١٤]

والواقع أن نقفور تملكته الحماسة الدينية ، وكان ينظر إلى حروبه ضد المسلمين على أنها مهمة مقدسة . وبنى كنيسة تذكارية خاصة تمجيداً لمن سقط من المحاربين البيزنطيين فى حومة الوغى.[١٥] بل لقد صرح برأيه أن من يموتون من البيزنطيين فى الحرب ضد المسلمين يجب أن يمنحوا امتيازات روحية خاصة ، مثل تلك التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب. فقد طلب من الكنيسة البيزنطية الموافقة على اعتبارهم شهداء يغفر لهم ماتقدم من ذنوبهم .[١٦] وأن هذه الإمتيازات من الأركان الرئيسية المميزة للحروب الصليبية اللاتينية . ويمثل هذا المطلب الذى طلبه نقفور من الكنيسة بوضوح الاحساس الذى ظهر فى الدولة البيزنطية فى هذا العصر بأن الحرب ضد المسلمين فى الشرق هى حرب مقدسة ، هـذا الاحساس الذى أمد البيزنطين بدافع قوى للتوسع على حساب المسلمين وإسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة .

---

١٣ ـ كان مما اعلنه نقفور عن عزمه على استرجاع بيت المقدس :

اعود الى القدس التى شرفت بنا ∴ بعز مكين ثابت الأصل قائم
واعلو سريرى للسجود معظما ∴ وتبقى ملوك الأرض مثل الخوادم

١٤ ـ هدد نقفور باخضاع مكة بقوله :

واخرج منها نحو مكة مسرعا ∴ اجر جيوشا كالليالى السواجم
فاملكها دهرا عزيزا مسلما ∴ اقيم بها للحق كرسى عالم

المرجع السابق ج ١١ ص ٢٤٦

(15) La Monte, The World of the Middle Ages (New York, 1949) p. 140

١٦ - المرجع السابق ص ١٤٠ ، انظر : كذلك :
Ostrogorsky, p. 127; C. M. H., vol. IV, p. 74;

وهكذا وضع الامبراطور نقفور فوقاس سابقة هامة لخليفته على العرش البيزنطى ، للقيام بحرب دينية لنصرة المسيحية والقضاء على قوى المسلمين واسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة. وكان تزيمسكس متحمسا لهذة القضية المقدسة مثل نقفور ، ويدل على ذلك اهتمامه بالقيام بحملات ضد المسلمين فى الشرق الأدنى والتصريحات التى جاءت فى رسالته إلى الملك الأرمينى أشوط . فقد جاء فى مقدمة هذه الرسالة ، التى بعث بها بعد رجوعه من الحملة التى قام بها على الشام سنة ٩٧٥ م ، ما يأتى : « يا أشوط ، ياشاهنشاه أرمينيه الكبرى ، يا بنى الروحى، إنصت إلى وأعلم الأعاجيب التى أتاها الرب لصالحنا ، وانتصاراتنا التى تتم عن أعجاز، والتى تدل على أنه يستحيل سبرغور العناية الإلهيه . وإننا نريد ياصاحب المجد يا آشوط ، يابنى ، أن نطلعك على الدلائل الساطعة على الفضل الذى أضافه الرب الى نعمه هذا العام ، على يدى جلالتنا ، وأن نبصرك بها . فأنت بوصفك مسيحيا وصديقا وفيا لجلالتنا ، سوف تسعد بذلك وتلهج بعظمة مولانا المسيح السامية . وهكذا ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين ... » (١٧) وقد جاء فى ختام رسالته عن إنجازاته فى هذه الجملة « ان الصليب المقدس بسط سلطانه على نطاق واسع ، فى جميع البقاع وفى كل أتجاه – وقد أصبح الناس يسبحون باسم الرب فى جميع هذه البلاد » . (١٨) هذا وقد حدد تزيمسكس هدفه الأساسى فى حروبه فى البلاد الشامية بقوله : « كانت رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين . » (١٩)

---

١٧ – متى الرهوى ص ١٣

١٨ – المرجع السابق ص ٢٠

١٩ – المرجع السابق ص ٢٠

ولكن مع هذه الحماسة الدينية والرغبة التى وجدت بين البيزنطيين ، والتى صرح عنها الامبراطور لاسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة ، فإن كنيسة القسطنطينية وقفت موقفا سلبيا فى هذه المرحلة الهامة من التاريخ البيزنطى . وقد رفض بطريرك القسطنطينية بوليكيتس ، الذى عاصر كلا من نقفور وتزيمسكس ، أن يتعاون فى هذه المهمة التى هدفت لإسترجاع الأراضى المقدسة نفسها حقيقة أنه وجدت سابقة للتعاون بين بطريرك القسطنطينية وإمبراطورها لتحقيق هذا الهدف ، ترجع إلى الجزء الأول من القرن السابع الميلادى وذلك عندما قام سرجيوس Sergius بطريرك القسطنطينية وأمد الامبراطور هرقل بما لدى الكنيسة من كنوز ونفائس ليستعين بها فى صراعه ضد الفرس لاسترداد بيت المقدس والصليب المقدس كما أنه منذ القرن التاسع الميلادى ، وعند الاحتفال بانتصارات الأباطرة البيزنطيين على المسلمين ، أصبحت فرقة المرتلين الكنسيين تنشد : « المجد للرب الذى هزم المسلمين ! » (٢٠) الا أن كنيسة القسطنطينية وعلى رأسها البطريرك بوليكتيس ، أمتنعت عن مساعدة الامبراطور فى صراعه من أجل نصرة المسيحية ضد المسلمين ، فتعاونه بالتبشير بحرب مقدسة بين البيزنطيين وتشجعهم على ذلك بمنح امتيازات روحية لمن يشتركون فى هذه الحرب . وحتى عندما طلب نقفور من الكنيسة البيزنطية اعتبار الذين يموتون فى القتال ضد المسلمين شهداء ، نجد أن الأساقفة البيزنطيين وعلى رأسهم بوليكتيس يعارضون ذلك معارضة شديدة ولا يلبون طلبه . ولقد استمرت الكنيسة البيزنطية على هذا الرأى ، ولم نجد منها تعاونا مع الامبراطور تزيمسكس .

---

(20) Constantine Porphyrogennetus. «De Ceremoniis» (Bonn Ed.) vol. I. pp. 332 - 30.

ونحن إذا أردنا أن نعلل هذا الموقف الذي وقفته الكنيسة الأرثوذكسية فلابد وأن نرجع إلى العوامل الرئيسية التالية : أولا : موقف هذه الكنيسة التقليدي بالنسبة لمبدأ الحرب بصفة عامة ـ ثانيا : طبيعة العلاقة بين بطريرك القسطنطينية والامبراطور البيزنطي ـ ثالثا : موقف كل من نقفور فوقاس وتزيمسكس من رجال الكنيسة في بيزنطة وأثر ذلك على العلاقة بينهما والكنيسة . وبخصوص العامل الأول ، فالمعروف أن كنيسة بيزنطة قد تمسكت منذ نشأتها بتعاليم السيد المسيح وموقف آباء الكنيسة الأول ، تلك التعاليم التي نهت عن القتال وحرمته حتى ولو كان ذلك لخدمة الوطن المسيحي . فالكنيسة البيزنطية لم تعدل من موقفها بالنسبة للقتال على النحو الذي فعلته الكنيسة الغربية التي أخذت تشجع الناس على الاشتراك في القتال على أن يكون ذلك لخدمتها .

ولتفسير العامل الثاني ، يجب أن نتذكر أن بطريرك القسطنطينية بفرض قيامه بالموافقة على تلك الامتيازات الدينية للمحاربين والتبشير بحرب مقدسة والدعاية لها ، لم يكن من المحتمل أن يعود ذلك عليه بفائدة خاصة تؤدي إلى تقوية مركزه على النحو الذي حدث للبابوية في غرب أوربا عندما قامت بالتبشير بالحركة الصليبية وتزعمتها . ذلك أن العلاقة بين السلطة الايكليركية والسلطة العلمانية في الدولة البيزنطية كانت تختلف عنها في غرب أوربا . فإن امبراطور القسطنطينية منذ أن اعترف بالمسيحية كديانة رسمية للدولة في القرن الرابع الميلادي ، حرص على فرض سلطته على رجال الكنيسة وممارسة نفوذه في شئونها . ومما يدل على ذلك قول الامبراطور ليو الثالث الأيسوري في خطابه إلى بابا روما : « انى امبراطور وقسيس » ، كما قال أنه : « حامل مفاتيح السماوات وراعى القطيع مثل بطرس أمير الرسل » وذلك

على عهد ما جاء المجموعة القانونية الكبيرة التي وضعت فى عهده وهى الإيكلوجا Eclo a . (١) فلقد أصبحت بذلك للامبراطور سلطة كبيرة فى الشئون الكنيسة فى الامبراطورية البيزنطيه مارسها على حساب سلطة بطريركها نفسه فى كثير من الاحيان . وكانت سلطة الامبراطور فى عهد نقفور فوقاس وتزيمسكس قوية داخل الدولة ، وكانت المرجح أن الكنيسة فى حالة موافقتها على الاشتراك فى حرب مقدسة ، أن يعود ذلك بالفائدة على الامبراطور أكثر منها على البطريرك ، ويؤدى إلى إزدياد سلطة الامبراطور ، الأمر الذى كان البطريرك لا يرغب فيه بطبيعة الحال .

ويخص العامل الثالث تصرفات نقفور فوقاس وتزيمسكس فقد اتخذ الاول منهما من الخطوات ما أدى إلى استياء وسخط رجال الكنيسة . فإنه كان غير راض عن ظهور طبقة اقطاعية من رجال الدين استحوذت على اقطاعات كبيرة داخل الامبراطورية ، الأمر الذى زاد ثروتهم وقوتهم. وفضلا عن ذلك رأى نقفور أن هذا التطور كان ينذر بانحراف رجال الدين عن أسس العقيدة الحقة ويعرضهم لإرتكاب المعاصى نتيجة لحياة البذخ التى توفرت لهم . ولذا أصدر هذا الامبراطور مرسوماً يعرف باسم Novel سنة ٩٦٤ م ، عرض فيه بازدياد ثروة رجال الدين وتكالبهم على جمع المال والاقطاعات ، قائلا أن ذلك لا يتفق مع المسيحية وتعاليم الآباء الأول . وصرح بأنه أراد بإصدار هذا المرسوم أن يعمل على استئصال هذا « الطموح » لدى رجال الدين الذى هو « شر مكروه لدى الرب » . وعلى ذلك فإنه منع انشاء أية أديرة أو وقف أية اقطاعات جديدة على الأديرة والمراكز الدينية الموجودة.(٢٢) وأثار هذا المرسوم سخط رجال الدين عليه

(21) Runciman, Byz. Civil., p. 66.

(22) Zacharia von Li·genthal Jus graeco-romanum, vol. III, pp. 292 - 96.

وكانت العلاقة بين الامبراطور تزيمسكس والكنيسة أحسن نسبيا مما كانت فى عهد نقفور . إلا أن الامبراطور الجديد مع احترامه لرجال الدين وحسن معاملته لهم وموافقته على المطالب التى طلبها البطريرك بوليكتيس، فانه كان حريصا على التمسك بما كان له من نفوذ فى الأمور الكنسية . فهو الذى قام بترشيح كبار رجال الكنيسة لتولى مناصبهم وعزلهم عنها إذا ما استدعى الأمر . وكان هذا الوضع إستمرارا للوضع التقليدى فى الامبراطورية من حيث تفوق سلطة الامبراطور على سلطة البطريرك بها . وهكذا فان موقف كل من نقفور وتزيمسكس بالنسبة لرجال الكنيسة البيزنطية لم يكن بالذى يجعلهم يرغبون فى تعديل موقفهم بالنسبة لفكرة القتال ويبشرون من جانبهم بحرب مقدسة .

ويتضح مما سبق ذكره موقف كنيسة القسطنطينية بالنسبة لفكرة الحرب ، وأنها لم تكن هى التى اضطلعت بمسئولية الحروب المقدسة أو «الحروب الصليبية» والاشراف عليها على النحو الذى فعلته البابوية فى غرب أوربا . وهكذا فلم تكن القوة الايكليركية ، بل القوة العلمانية ممثلة فى الأباطرة هى المسئولة عن قيام تلك الحروب البيزنطية ضد المسلمين التى عرفت باسم الحروب الصليبية . وإن اطلاق هذا الأسم على تلك الحروب لايرجع إلى أن الكنيسة قد بشرت بها ولا لأنها منحت المشتركين فيها امتيازات روحية ، أو لأنها أمرتهم بلبس شارة الصليب على النحو الذى حدث فى غرب أوربا . وإنما جاء اطلاق هذا الاسم على هذه الحروب ، وخاصة حروب نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ، لما هدفت لتحقيقه من غرض سام بالنسبة للمسيحيين ، ألا وهو استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة من أيدى المسلمين ، والقضاء على قوى المسلمين . والمعروف أن

استرجاع الأراضى المقدسة كان الهدف الأساسى الذى قامت من أجله الحركة الصليبية اللاتينية . وان وجود هذا الهدف بشكل واضح فى حروب تزيمسكس مع ما صاحب ذلك من مشاعر وحماسة دينية هو الذى يجيز لنا أن نطلق على حروبه اسم الحروب الصليبية .(٢٣)

ويجب أن ندخل فى إعتبارنا ، عند تحليل العوامل التى أدت إلى قيام الهجوم البيزنطى على الشرق الأدنى فى عهد تزيمسكس ، أنه إلى جانب العوامل العلمانية والدوافع الدينية التى انبثقت من نفس كيان المجتمع البيزنطى ، فلا بد وأن ما عانى منه المسلمون فى الشرق الأدنى من انحلال واضطراب فى أوضاعهم السياسية فى هذا العهد ، كان عاملا هاماً آخر أسهم فى دفع البيزنطيين على القيام بهجومهم .

٢٣ ـ انظر المقالة الممتازة التى ناقش فيها لامونت الحروب المختلفة التى اطلق عليها اسم « الحروب الصليبية » .

La Monte, «La Papauté et Les Croisades,» Renaissance - Revue trimestrielle publiée par l'École libre des hautes études de New-York (New York, 1945), pp. 154 -55.

الفصل الخامس

تزيمسكس والشرق الأدنى الاسلامى
فى المرحلة الأولى من عهده

ـ مناطق الارتكاز الامامية البيزنطة فى الشرق ـ الجبهة البيزنطية فى شمال الشام : الدفاع عن انطاكية ضد الهجوم الفاطمى ـ الجبهة البيزنطية الاسلامية فى شمال العراق : بنو حبيب وصراعهم ضد المسلمين

عند اعتلاء تزيمسكس العرش كانت الامبراطورية البيزنطية قد أصبحت لها مناطق ارتكاز أمامية هامة فى الشرق الأدنى . ففى شمال الشام كانت إمارة أنطاكية الهامة خاضعة للحكم البيزنطى ، وكان يشرف على شئونها حاكم بيزنطى يعينه امبراطور القسطنطينية . كما أن إمارة حلب ، وإن كانت قد استمر يحكمها أمراء من المسلمين ، إلا أنهم كانوا تابعين للسيادة البيزنطية بمقتضى اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ (ديسمبر ٩٦٩ — يناير ٩٧٠ م) . وبناء على ذلك أصبح السبيل ممهدا أمام تزيمسكس ليواصل الهجوم البيزنطى ويدفعه جنوبا إلى أواسط الشام وحنوبها ، ويحاول تحقيق حلم البيزنطيين بشأن استرجاع بيت المقدس . ومن ناحية أخرى كان البيزنطيون أحرزوا نجاحا هاما فى مد نفوذهم إلى إقليم الجزيرة فى شمال العراق . فقد أمتدت الممتلكات البيزنطية إلى مشارف مدينة آمد . كما أن إقليم طرون (Tar n) الأرمينى ، الواقع على الجانب الغربى من بحيرة فان Van ، والمتاخم لاقليم الجزيرة ، بدأ خضوعه للامبراطورية البيزنطية منذ سنة ٩٦٦ - ٩٦٧ م . هذا وقد استولت القوات البيزنطية على مدينة ملازكرد،

وهى أيضا من أعمال أرمينية ، وكانت هذه المدينة خاضعة وقتئذ للمسلمين [١].
ونجد صدى لخوف المسلمين فى هذه النواحى من تقدم البيزنطيين فى قول ابن الأثير : « وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد ، وصارت كلها سائبة لا تمنع عليهم ، يقصدون أيها شاءوا . » [٢] وقد أصبح من المتوقع أن يحاول تزيمسكس التقدم فى إقليم الجزيرة ليخضع ما يستطيع من مدنه ومراكزه الرئيسية . كما كان من الطبيعى أن يفكر فى تحويل نفس إمارة الموصل الحمدانية إلى إمارة تابعة للسيادة البيزنطية على النحو الذى حدث من قبل فى حالة إمارة حلب . بل لقد قال المؤرخ البيزنطى المعاصر ليون الشماس الذى كتب عن حملات تزيمسكس ، أن الامبراطور عقد العزم على الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية نفسها [٣].

ومهما يكن من أمر ، فلم يتمكن تزيمسكس فى المرحلة الأولى من حكمه من تكريس قواه والتدخل شخصيا لتنفيذ سياسته فى الشرق الأدنى ، وذلك لإنشغاله وقتذاك فى تثبيت ملكه داخليا ، واضطراره للاهتمام بمشاكله الاوربية . وقد شغله ذلك حتى أواسط ٩٧٢ م . ولكن فعلى الرغم من ذلك ، أبدى هذا الامبراطور اهتمامه فى هذه الفترة بحدوده المشتركة مع المسلمين فى الشرق ، وحرص على الإحتفاظ بممتلكات الامبراطورية فى هذه الناحية والاعداد لما عزم على القيام به من حملات كبرى فيما بعد .

---

١ ـ كان الاستيلاء على ملازكرد فى ٣٥٩ هـ (١٤ نوفمبر ٩٦٩ ــ ٣ نوفمبر ٩٧٠ م) ــ انظر ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٨ ــ ولم يوضح هذا المؤرخ الذى انفرد بذكر استيلاء البيزنطيين على ملازكرد ، اذ ما كان ذلك فى اخر عهد نقفور او اول عهد تزيمسكس .

٢ ـ المرجع السابق ج ٨ ص ٢٣٨ .

٣ ــ انظر : شلومبرجيه ص ٢٠٩ .

والأسف فإن المعلومات التى جاءت بها المصادر التاريخية عن العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين فى الفترة الأولى من عهد تزيمسكس ، قليلة ومحدودة ولا تساعدنا كثيرا فى تتبع هذه العلاقات بشكل كامل .

وعلى أية حال ، فبخصوص الجبهة البيزنطية فى شمال الشام ، نسمع عن تعرض مدينة أنطاكية لهجوم قامت به قوات اسلامية . فهناك من المؤرخين البيزنطيين أمثال سكيليتزيس Skylitzés ، وسيدرينوس Cedrenus ، وزوناراس Zonaras ، من يقولون بأنه قام تحالف شامل بين قوى المسلمين ، منذ أواخر سنة ٩٧٠ م ، بغرض القيام بهجوم عام ضد البيزنطيين فى الشام لإسترجاع إمارتى أنطاكية وحلب ، والقضاء على الحكم والسيادة البيزنطية فيهما . وقد ذكر هؤلاء المؤرخون اشتراك قوات نظامية وغير نظامية من المحاربين المسلمين وخاصة القوات المغربية ، وان قوات المسلمين بلغت المائة ألف مقاتل ، وانها كانت تحت رئاسة القائد « Zohar » .[٤] وإن هذه الرواية التى تركها هؤلاء المؤرخون البيزنطيون ، لم تكن فى الواقع إلا صدى للهجوم الذى قامت به القوات الفاطمية على امارة أنطاكية . ذلك أن القائد الفاطمى جعفر بن فلاح الذى قاد الحملة الأولى للفاطميين لفتح الشام ، بعد أن استقروا فى مصر ، قد أرسل فى ربيع الأول ٣٦٠ هـ (بدأ ٢ يناير ٩٧١ م) أحد غلمانه ، وهو القائد فتوح ، على رأس جيش لمنازلة تلك المدينة الهامة . ونحن نعرف أن جعفرا جمع لهذا الهجوم ما استطاع

٤ ـ انظر شلومبرجيه ص ٢١٩ ـ ص ٢٢٠ ـ يقصد هؤلاء المؤرخون بالقائد « Zohar » المشار اليه ، جوهر الصقلى الذى كانت له القيادة العليا على جيوش الفاطميين فى مصر والشام . إلا انه يجب ان نلاحظ ان هذا القائد لم يذهب بنفسه على رأس الحملة الفاطمية الأولى إلى الشام .

جمعه من المحاربين من أعمال دمشق وطبرية وفلسطين، التي خضعت للفاطميين. وقامت هذه القوات بمحاصرة أنطاكية لمدة خمسة أشهر وضيقت عليها الحصار، حتى اشتدت الحالة على المحاصرين بالداخل، خاصة بعد أن تدعمت القوات الاسلامية بوصول مدد يتكون من أربعة آلاف مقاتل.(٥)

ولا بد أن هـــذا الهجوم الفاطمى على أنطاكية تسبب فى أزعاج الامبراطور. فإن البيزنطيين قد سبقت لهم مقابلة القـوات الفاطمية فى صقلية وخبروا مالها من بأس ومهارة فى القتال. وكان ظهور الفاطميين فى هـذه الفترة على مسرح الحوادث فى الشام ينذر بتهديد المصالح البيزنطية هناك. وعلى ذلك بادر تزيمسكس بإصدار أوامره الى حاكم « ثيم » إقليم الجزيرة البيزنطى، وهو أقـرب القادة البيزنطيين الـكبار فى الشرق الى أنطاكية، وأمـره بالتوجه فـــوراً لمساعدة حامية المدينة. كما أرسل الامبراطور قائده المعروف البطريق نيقولاوس Nicholaos إلى أنطاكية، وعهد اليه بالقيادة العليا على العمليات البيزنطية.(٦) ويذكر المقريزى تقدم قوات فاطمية إلى الاسكندرونة، والظاهر انها قامت لمواجهة بعض النجدات البيزنطية قبل وصولها إلى أنطاكية. وهناك وقـع اشتباك بين البيزنطيين والفاطميين، ولحقت الهزيمة أثناءه بالفاطميين، وقتـل منهم الـكثير.(٧) وعلى أثر ذلك انسحب الفاطميون من أنطاكية إلى دمشق.

وفى تعليل أسباب فشل الفاطميين عند أنطاكية وانسحابهم إلى دمشق،

---

٥ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٧ ـ ص ١٧٨، وراجع كذلك يحيى الانطاكى ص ١٣٩

٦ ـ شلومبرجيه ص ٢٢٢ ص ٢٢٣

٧ ـ اتعاظ الحنفا ص ١٧٨

يجب ألا نسلم برأى شلومبرجيه ، الذى يعزو ذلك لتفوق البيزنطيين فى الشجاعة والفنون العسكرية على الفاطميين .(٨) ويجب أن ندخل فى الاعتبار عاملا رئيسياً آخر ويرجع إلى مركز الفاطميين أنفسهم فى الشام فى هذا الحين. فإن الفاطميين حينئذ لم يكونوا قد تغلبوا بعد على كافة العناصر الاسلامية المناوئة لنفوذهم فى الشام . وكان هجوم القرامطة على دمشق السبب الرئيسى الذى دعا جعفر بن فلاح يصدر أمره إلى فتوح بالإنسحاب بقواته إلى دمشق للإشتراك فى مواجهة خطر القرامطة .(٩)

ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكى أن على أثر انسحاب الفاطميين من أمام أنطاكية قام الامبراطور تزيمسكس بتعيين ميخائيل بورتزيس Michael Burtzes ، المعروف فى المصادر العربية باسم ميخائيل البرجى ، حاكماً على المدينة ، وكان هذا الرجل من كبار القادة البيزنطيين ، وكان لعب دوراً هاماً فى الحروب البيزنطية فى الشام وبالذات فى الإستيلاء على أنطاكية فى أواخر عهد نقفور فوقاس . وكان بورتزيس هذا أحد أعوان تزيمسكس فى المؤامرة التى قام بها وأوصلته إلى العرش . والمرجح أن تزيمسكس أراد بهذا التعيين مكافأة بورتزيس على مساعدته له ، وكذلك أن يجعل على حكم انطاكية التى كانت تعتبر المركز الرئيسى للبيزنطيين فى الشام ، رجلا كفئا وخبيراً بشئون هذه البلاد ويضيف المؤرخ المذكور أن بورتزيس أصطحب معه أثنى عشر ألف بناء وفاعل لاصلاح الاضرار التى لحقت بسور أنطاكية بسبب الزلزلة الكبيرة التى حدثت بعد أنسحاب الفاطميين .(١٠) ولا بد أن

---

٨ — شلومبرجيه ص ٢٢٣

٩ — انظر ما سبق ص ٧٢

١٠ — يحيى الانطاكى ص ١٣١ ، ١٢٩ — ذكر كل من المؤرخين البيزنطيين Cedrenus و Skylitzes عرضا ، تعيين ميخائيل بورتزيس حاكما على انطاكية بدون أن يوضحا ظروف تعيينه — أنظر : شلومبرجيه ص ٢٢٣ ، حاشيه (١)

هؤلاء العمال كان عليهم كذلك اصلاح ما نتج من أضرار بسبب الهجوم الفاطمى على المدينة .

أما امارة حلب ، فكان المتسلط عليها فى هذه الفترة الحاجب قرغويه الذى قبض على زمام الأمور بها بعد خروج الأمير الحمدانى سعد الدولة . وكان قرغويه هذا هو المسئول عن عقد إتفاقية صفر ٣٥٩ﻫ مع البيزنطيين. والمرجح أن هذا الأمير لكى يتمكن من الاحتفاظ بمركزه ، قد واظب على دفع الجزية للبيزنطيين طبقا للاتفاقية المذكورة . أما سعد الدولة فقد إتخذ مقامه فى معرة النعمان وأشرف على شئون إمارته رقطاش وهو مولى سيف الدولة الحمدانى ، وكان يلى حصن برزويه . وامتنع سعد الدولة عن دفع ما هو مقرر من الجزية على البلاد التى فى يده والتى هى جزء من إمارة حلب .[١١] وكان ذلك سببا فى أن تزيمسكس عند ما قام بحملته على الشام فى الفترة التالية من حكمه ، جعل البلاد الخاضعة لسعد الدولة هدفا لهجومه بما فى ذلك حمص وبرزوية .

وباستثناء ما سبق ذكره ، فإن المصادر التاريخية لم تذكر شيئا آخر عن أية اشتباكات بين البيزنطيين والمسلمين فى الجبهة الشامية وذلك حتى الحملة الكبرى التى قام بها تزيمسكس على الشام سنة ٩٧٥ م .

وكانت المعلومات التى وصلت إلى أيدينا عن الحدود الاسلامية البيزنطية فى جبهة إقليم الجزيرة بشمال العراق ، أقل من المعلومات التى وصلتنا عن الجبهة الشامية . وتشير المصادر التاريخية إلى انه كان يحكم فى مدينة آمد وال يعرف باسم أبى الفوارس هزار مرد ، وكان يليها من قبل أبى تغلب الحمدانى.

١١ – ابن العديم ج ١ ص ١٦٩ ، ص ١٦٤ – ص ١٦٥

أما مدينة ميافارقين فكان يحكمها وال يحمل اسم سبك .(١٢) ويقول المؤرخ كانار بأنه من المرجح أن إمارة الموصل الحمدانية قامت سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠ م) بعمليات عسكرية ضد الممتلكات البيزنطية المجاورة . وقد كون هذا الرأى مستنداً إلى التصريحات التى أدلى بها بعض قواد أبى تغلب عن عزمهم على القيام بالجهاد ضد الروم .(١٣) إلا أن هذه مسألة غير مؤكدة . وبفرض حدوث أى هجوم من الجانب الحمدانى فلا بد أنه كان على نطاق محدود ولم يؤد إلى تغيير يذكر على الموقف . وذلك لما كان يعانيه الأمير الحمدانى أبو تغلب من مشاكل الصراع الداخلى الذى قام بينه وبين إخوته. وفى نفس الوقت ، فمن المرجح أن القواد البيزنطيين فى الشرق أخذوا يعدون العدة للاشتراك فى الغزوات الكبيرة التى قام بها الامبراطور تزيمسكس فى الفترة التالية .

وفضلا عن ذلك ، فيجب أن ندخل فى اعتبارنا عند التحدث عن الحدود الاسلامية البيزنطية فى شمال العراق ، نشاط وجهود فرق المحالفين Foederati الذين كانوا يقيمون على منطقة الحدود ، وكانوا يمهدون السبيل لما يقوم به إمبراطور القسطنطينية من حملات ، ويرافقون جيوشه عند خروجها للهجوم . وقد ترك لنا ابن حوقل نصا بالغ الأهمية ، يوضح لنا الدور الكبير الذى قامت به قبائل بنى حبيب العربية فى هذا المجال ، لخدمة البيزنطيين ضد المسلمين فى إقليم الجزيرة . وذكر هذا الرحالة الجغرافى المعاصر ، أن بنى حبيب الذين كانوا يقيمون أصلا فى منطقة نصيبين، وعلى أثر ماشعروا به من شدة وطأة حكم الحمدانيين « خرجوا بذراريهم وعبيدهم

---

١٢ ـ ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة (مخطوط ـ صورة شمسية بدار الكتب تاريخ ٨٩٠) ورقة ١٢ (ب)

١٣ ـ كانار ص ٨٣٨ ـ ص ٨٣٩

ومواشيهم وخفهم الذى يمكن بمثله النقلة(١٤) ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغصب لعقارهم ، فى نحـو عشرة آلاف فارس على فرس عتيق وسلاح شاك، من درع وجوشن مذهب ومغفر مدبج ، وسيف يقل شبهه ، ورمح خطى وآلة وعدة ، لم تزل على بلد الروم مطلة ، يقمع بها شوكتهم ويسبى بها ذراريهم ويخربون بالاستطالة حصونهم ويجـوسون ديارهم ، يقدمهم نحو هـذه العدة من الجنائب العتاق والبغال الفره ، عليها الخدم والخول (١٥) والموالى ، فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ونفائس الحبى والمتاع ، وخيرهم القـرى والمنازل . ورفدهم بالنواحى الحسنة والمواشى العوامل (١٦) فعادوا إلى بلد الاسـلام على بصيرة بمضاره وعـلم بأسباب فساده ، وخبرة بطرقه ومعرفة بخلله ودقة ، وقلوبهم تضطرم حقـدا وتفور كيداً وتلتهب ضبا .(١٧) وقد كاتبوا من خلفـوه وراسلوا من عرفـوه

---

١٤ ـ ذكر ابن حوقل أن خروج بنى حبيب من نصيبين إلى أطراف الامبراطورية البيزنطية كان بعد امتداد حكم الحمدانيين إلى أقليم الجزيرة وكان ذلك سنة ٣٣٠ هـ (٢٦ سبتمبر ٩٤١ ـ ١٤ سبتمبر ٩٤٢ م) . إلا أن ابن حوقـل الذى عاصرهم هجوم تزيمسكس على الشرق الأدنى ، قد ذكر أن بنى حبيب قد دابوا على الخروج إلى بلاد الجزيرة كل عام . انظر ابن حوقل ج ١ ص ٢١١

١٥ ـ الخول : جمع خولى : الرقيق والاماء وغيرهم من الحاشية

١٦ ـ لاحظ ما هناك من أوجـه الشبه بين عمل كل من البيزنطيين والعناصر الصليبية اللاتينية على اكتساب جماعات من المسلمين بمنحها امتيازات خاصة . والسبب الذى دفع كلا من البيزنطيين والصليبيين إلى ذلك هو الحاجة إلى خبرة المسلمين وضرورة الاعتماد عليهم . وقد كانت الجماعات الاسلامية التى تعاونت مع الأعداء من هذا النوع الذى يفضل الفائدة المادية العاجلة على أى اعتبـار آخر ـ انظر للمؤلف : مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ـ ١٩٥٨) ص ١١٣ ـ ص ١١٧ ، رحلة ابن جبير (ت . د. حسين نصار ـ القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٩١

١٧ ـ الضب : الحقد

ولا مافوه بذكر ما بلغوه ونالوه ، وكان الأكثر قد قصد فى ضياعه وحيل بينه وبين أملاكه ، ووظف عليه مالا يعرفه ، وألزم من الكلف مالم يجر بمثله عليه رسم ، فاطمعوهم فيما نالوه ، وعرفوهم ماوصلوا اليه وما جاؤوا فيه وله ، من قصد بلد الاسلام واجتياحه واصطلام نواحيه وبقاعه ، وأن ملكهم أيدهم وقواهم وأنعم عليهم وآواهم فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم ، وأنتمى اليهم من لم يك منهم ، فشنوا الغارات على بلد الاسلام وأفتتحوا حصن منصور وحصن زياد ، وساروا إلى كفر توثا ودارا فأتوا عليها بالسبى والقتل وألحقوا أسوارها بالأرض ، وضروا بذلك ، فصار لهم عادة وديدنا يخرجون فى كل سنة عند أوان الغلات ، إلى أن أتوا على ربض نصيبين نفسها والغربى من ضياعها .. وتزايدت ثقة الملك بهم، والروم فى السكون اليهم إلى أن جعلت لهم الأرزاق ورسمت لهم الأعطية وصاروا خاصة الملك . وآراء العرب أثقف من آراء الروم لما يقترن بهم من الجسارة والبسالة ، ففتحوا له المضايق ، وتقدموا فى المسالك وأطمعوه على مر الأيام وتعاقب الأعوام ... (١٨)

وهكذا فإن قبائل بنى حبيب ، بما لها من قوة عددية ومهارة فى القتال وحسن دراية بشئون المشرق ، وإرتباطها بالبيزنطيين وتنصرها ورضاها عن معاملتهم لها ، كانت بمثابة عنصر هام ساعد البيزنطيين فى حروبهم ضد المسلمين فى شمال العراق ، ومهد للهجوم الكبير الذى قام به الامبراطور تزيمسكس كما عاونه فى الحملات التى قام بها .

---

١٨ ـ ابن حوقل ج ١ ص ٢١١ ـ ص ٢١٣

الفصل السادس

حملات تزيمسكس على شمال العراق

(٩٧٢ — ٩٧٤ م)

ـ مشكلة تاريخ حملات تزيمسكس على اقليم الجزيرة ـ خصائص طريقة الهجوم البيزنطى ـ حملة تزيمسكس ٩٧٢ م ونتائجها ـ حملة الدمستق مليح (٩٧٢ ـ ٩٧٣ م) : المقاومة الاسلامية وهزيمة البيزنطيين ـ حملة تزيمسكس ٩٧٤ م الاتفاق مع الأرمن ـ الهجوم على المسلمين ونتائجه

بعد أن انتهى تزيمسكس من التغلب على مشاكله الأوربية الداخلى منها والخارجى ، كرس جهوده وإمكانيات دولته فى المرحلة التالية من حكمه ، لتحقيق أهدافه فى الشرق الأدنى. وفى خلال الفترة الممتدة من سنة ٩٧٢ حتى سنة ٩٧٥م قام هذا الإمبراطور بأربع حملات هامة فى هذا الميدان. وتنقسم هذه الحملات إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول وهو خاص بحملاته الثلاث الأولى وكانت على شمال العراق فى إقليم الجزيرة فى الفترة الممتدة من سنة ٩٧٢ إلى سنة ٩٧٤ م . أما القسم الثانى فهو خاص بهجومه الكبير على البلاد الشامية وكان ذلك سنة ٩٧٥ .

ويلاحظ مما سبق أن تزيمسكس بدأ هجماته الكبيرة على الشرق الأدنى بمنازلة إقليم الجزيره قبل أن يذهب لمهاجمة الأراضى المسيحية المقدسة . فقد اجتذب هذا الاقليم إهتمامه، مثلما حدث فيما بعد عندما جاءت حشود العناصر الصليبية اللاتينية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وإتجهت جماعة منها إلى بلاد الجزيرة حيث أسست امارة الرها الصليبية التى كانت

أولى الامارات الصليبية فى الشرق من حيث تاريخ إنشائها ، وكان ذلك قبل أن يستولى الصليبيون على أية مدينة من مدن الأراضى المقدسة . ونحن لا نستطيع أن نجزم بالأسباب التى جعلت تزيمسكس يبدأ بالبلاد الجزرية قبل الشام . ومهما يكن من أمر ، فيجب أن نتذكر أولا ما تتمتع به إقليم الجزيرة من موارد طبيعية . وقد وصفه إبن حوقل بقوله : « والجزيرة إقليم جليل بنفسه شريف بسكانه وأهله ، رفة بخصبه ، كثير الجبايات لسلطانه » .. (١)وفى نفس الوقت ، لابد أن المشاكل الداخلية التى عانت منها إمارة الموصل الحمدانية كانت عاملا آخر شجعه على استغلال الفرصة ومهاجمة هذه المنطقة . (٢) وفضلا عن ذلك ، فلم يكن هناك من الأسباب القوية ما يدفعه على أن يسارع ويبدأ هجومه فى الشام . حقيقة أن ظهور الفاطميين فى الشرق الأدنى كان عاملا خطيرا هدد مصالح الإمبراطورية فى هذه المنطقة إلا أن هذا الخطر كان محدوداً فى السنوات الأولى التى تلت إنتقال الفاطميين إلى هذه البقاع ، وذلك بسبب المشاكل والصعوبات التى واجهتهم حينئذ وخاصة مشكلة تدخل القرامطة ولم يكن الفاطميون قادرين بعد على فرض نفوذهم بشكل فعال هناك وتركيز قواهم لمهاجمة البيزنطيين .

مشكلة تأريخ حملات تزيمسكس على إقليم الجزيرة :

ويواجه الباحث ، عندمعالجة موضوع حملات الامبراطور تزيمسكس على إقليم الجزيرة مشكلة تاريخية كبيرة ، طال النقاش فيها بين المؤرخين المحدثين . وقد قامت هذه المشكلة بسبب الاختلاف الكبير فى روايات المصادر التاريخية المختلفة التى كتبت فى هذا الموضوع ، وصعوبة التوفيق

---

١ ـ ابن حوقل ج ١ ص ٢٠٩ ـ ص ٢١٠

٢ ـ بشأن هذه المشاكل ، انظر ما سبق ص ٥١ ـ ٥٢

بينهما الأمر الذى يصعب مهمة الباحث فى تكوين صورة كاملة ودقيقة لما قام به تزيمسكس وأنجزه فى هذا الصدد . والمصادر الرئيسية التى يمكننا الاعتماد عليها فى دراسة هذا الموضوع هى ما تركه المؤرخون العرب مسكويه ، الصابى ، يحيى الانطاكى ، إبن الأثير ، ابن الازرق الفارقى ، وإبن ظافر ، وكذلك ما كتبه غير العرب من المؤرخين مثل ليون الشماس وهو المؤرخ البيزنطى المعاصر للامبراطور تزيمسكس ، ومتى الرهوى وهو المؤرخ الأرمينى الذى إهتم بتتبع أخبار حروب كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ضد المسلمين فى المشرق .

وقد ذكر ليون الشماس أخبار الحملة التى قام بها تزيمسكس على إقليم الجزيرة سنة ٩٧٤ م ولم يشر إلى قيام غيرها من الحملات . أما المؤرخ متى الرهوى فذكر أن هذا الامبراطور أرسل أولا الحملة التى كانت تحت قيادة الدمستق مليح Mleh (٩٧٢ _ ٩٧٣ م) ، وأنه بعد فشل هذه الحملة قام بنفسه على رأس حملة أخرى سنة ٩٧٤ م ، وهى الحملة التى تحدث عنها ليون الشماس . أما المؤرخون العرب ، فقد سجل معظمهم أخبار حملة رأسها الإمبراطور بنفسه سنة ٩٧٢ م ، وأنه بعد ذلك عين الدمستق مليح على رأس حملة أخرى أرسلها لمهاجمة المسلمين فى أخريات سنة ٩٧٢ وأوائل ٩٧٣ م . إلا أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا شيئا مطلقا عن الحملة التى ذكر كل من ليون الشماس ومتى الرهوى أن الامبراطور قد قام بها سنة ٩٧٤م . وهكذا فتتقابل هذه المصادر ، بإستثناء ليون الشماس ، فى ذكر حملة الدمستق مليح ، حين أنها لا تتفق بخصوص ما جاء عن حملة الإمبراطور سنة ٩٧٢ م التى جاء ذكرها فى المصادر العربية ، والحملة التى ذكر متى الرهوى وليون الشماس أن الامبراطور قام بها سنة ٩٧٤ م .

وقد أدى هذا الاختلاف فى روايات المصادر التاريخية إلى قيام التضارب بين المؤرخين المحدثين الذين تعرضوا لدراسة هـذا الموضوع . فان بعض هؤلاء المؤرخين التزموا برواية ليـون الشماس ولم يعترفوا إلا بحملة واحدة قام بها تزيمسكس إلى إقليم الجزيرة وهى حملة سنة ٩٧٤ م ، ومنهم جروسيه ورانسيمان . (٣) وجاءت جماعة أخرى من المؤرخين المحدثين ، وهم يرون أن الأمبراطور قام بحملتين على الأقليم المذكور إحداهما كانت تحت قيادته الشخصية والأخرى عهد بقيادتها للدمستق مليح ، إلا أن أفراد هذه الجماعة إنقسموا إلى قسمين قسم يرى أن الحملة التى قادها الامبراطور نفسه قد سبقت زمنيا حملة الدمستق ، فى حين تمسك أعضاء القسم الآخر برأيهم القائل بأن الأمبراطور لم يحضر إلى الشرق إلا بعد هزيمة الدمستق ، وكان حضوره بغرض الإنتقام لما لحق بالبيزنطيين . وكان من أول وأهم أنصار هذا الرأى الأخير المؤرخ شلومبرجيه الذى تأثر بما جاء فى تاريخ متى الرهوى . وقد تبعه فى اتخاذ هذا الرأى غيره من المؤرخين المعروفين مثل فاسيليف وبرييه .(٤)

وهكذا كان الاتجاه العام بين المؤرخين المحدثين نحو عدم الاعتراف بما جاء فى المصادر العربية عن قيام حملة سنة ٩٧٢ م ، وكان السبب الرئيسى الذى جعلهم يتخذون هذا الرأى ، هو اعتقادهم أن تزيمسكس كان منشغلا

---

(3) R. Grousset, Histore des Croisades (Paris, 1934). vol. I. p. XVI; S. Runciman, A History of the Crusades (Cambridge, 1951), vol. I, p. 31.

٤ ـ شلومبرجيه ص ٢٢٧ ـ ص ٢٢٨ ـ انظر كذلك :

Vasiliev, (C. M. H.) vol. IV, p. 147; Bréhier, Vie et Mort de Byzance, p. 205.

فى محاربة الروس حتى شهر يوليو سنة ٩٧٢ م ، واضطراره لتركيز جهوده ضدهم . ولتبرير وجهة نظرهم طعنوا فى روايات المؤرخون العرب ، وعلى سبيل المثال ، فان المؤرخ أناستاسيفيتش Anastasievich قد قال فى مقالته التى كتبها عن غـزوات تزيمسكس فى اقلـيم الجزيرة بأن المؤرخ يحيى الأنطاكى،الذى اعتبره المصدر الرئيسى فى دراسة هذاالموضوع اختلط عليه الأمر وسجل أحداث حملة سنة ٩٧٤ على أنها وقعت سنة ٩٧٢.(٥) وتصدى المؤرخ دولجر Dolger لبحث هذه المشكلة الخاصة بتاريخ حملات تزيمسكس، ونقد رأى أناستاسيفيتش ولم يوافق عليه ، ورد إلى رواية يحيى الأنطاكى إعتبارها ، وتوصل دولجر إلى رأيه القـائل بأن الامبراطـور تزيمسكس قام بثلاث حملات على اقليم الجزيرة،وهى الحملة التى رأسها سنة ٩٧٢ م ثم حملة الدمستق (٩٧٢ ـ ٩٧٣م) وأخيرا الحملة الثالثة التى قادها الامبراطور بنفسه سنة ٩٧٤ م . (٦) وقد نالت هذه المشكلة التاريخية أهتمام المؤرخ الفرنسى كانارالذى أقر دولجر على رأيه (٧) .

والواقع أن رأى تلك الجماعة من المؤرخين المحدثين ، الذين لم يسلموا بروايات المصادر العربية عن قيام الامبراطور تزيمسكس بحملة سنة ٩٧٢ م لا يقوم على أسس سليمة ولا يستطيع أن يثبت أمام ما يوجد من قرائن . فقد أصبح من الواضح الآن أن الامبراطور تزيمسكس قد تغلب على خطر

---

(5) Ana-tasievitch, Die Zahl der Araberzüge des Tzimisces BZ, XXX, 1929-30, p. 400 05.

(6) Dölger, Chronologie des gr. Feldzuges des Joh. Tzimiskees gegen die Russen, BZ, XXXII, 275-292.

(7) M. C nard, La date des expé litions mésopotamiennes de Jean Tzimisces, Melanges Gregoire II (1950) g; ff; Id. Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 841 - 44.

الروس وانتهى من مشكلتهم بعقد اتفاقية يوليو سنة ٩٧١ (٨) ، وأنه كان من الممكن له أن يتفرغ بعد ذلك لتنفيذ سياسته فى الشرق الأدنى . وفضلا عن ذلك فلا يوجد أى سبب منطقى يجعلنا نرفض التسليم بروايات المصادر العربية المتعددة وتجاهلها ، خاصة وأن منها من عاصر حملات تزيمسكس وكان على إتصال وثيق بأحداثها على النحو الذى سنبينه فيما بعد .

وان إجماع المصادر العربية على التزام الصمت المطلق بإزاء الحملة التى قام بها الامبراطور سنة ٩٧٤ م ، والتى ذكرها كل من ليون الشماس ومتى الرهوى ، لهو من المشاكل التى يواجهها الباحث فى تاريخ حملات تزيمسكس على الجزيرة . والواقع أن هذا الموقف الذى وقفته المصادر العربية مما يبعث على الدهشة والاستغراب خاصة لإتصال بعضها الوثيق بهذه الأحداث مثل ابراهيم بن هلال الصابى ، وكذلك مسكويه الذى كان على علم بأحداث القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وأسهب فى تدوين أخبار العراق فى هذا الزمن . ولا يكون من الصواب أن نقول بعدم قيام هذه الحملة ، اذ لا يوجد من الأسباب ما يدعو للتشكك فى رواية ليون الشماس ومتى الرهوى أو عدم قبولها . كما لا نستطيع القول بأن هذين المؤرخين قد التبس عليهما الأمر ، وأن حملة سنة ٩٧٤ م التى تحدثا عنها ما هى إلا حملة سنة ٩٧٢ م السابقة الذكر . اذ أن المعلومات التى ذكراها على أنها تتبع سنة ٩٧٤ تصف حملة تختلف عن الحملة التى وقعت قبل ذلك بسنتين والتى ذكرها المؤرخون العرب . وأمام ذلك فلا نستطيع إلا القول بأنه لابد وأن وجدت أسباب معينة جعلت المؤرخين العرب يسقطون ذكر هذه الحملة.وسوف

---

٨ ــ بشان تحقيق تاريخ هذه الاتفاقية انظر الملحق السادس

نتعرض لتحليل هذه الأسباب عند التحدث تفصيليا عن الحملة المذكورة .

وقبل أن ننتقل للخوض فى تفاصيل حملات تزيمسكس ، يستحسن أن نوضح أهم خصائص الطريقة التى اتبعها فى هجومه على المسلمين فى الشرق الأدنى ، تلك الطريقة التى فرضتها الظروف على البيزنطيين عند توسعهم فى هذا الميدان . فان البيزنطيين عند ارسال حملاتهم على منطقة الشرق الأدنى ، سواء أكان ذلك فى شمال العراق أو الشام ، كانوا يعانون من طول خطوط المواصلات وكان عليهم أن يمدوا عملياتهم العسكرية إلى مساحات كبيرة من البلاد الشرقية . وكان من الطبيعى أن تتعرض القوات البيزنطية إلى النقص فى المؤن اذا ما طالت عمليات القتال . وفى نفس الوقت فبالرغم من مشاكل المسلمين السياسية وخلافاتهم المحلية ، فان إقتحام مدينة أو مركز من مراكزهم الحصينة وأخذه عنوة ، لم يكن بالمسألة السهلة ، وكثيراً ما تطلب الأمر عامل الوقت، الأمر الذى كان البيزنطيون لا يستطيعون الإسراف فيه . ومن هنا كان من الضرورى أن يعتمد هؤلاء على العمليات الحربية السريعة أثناء هجومهم . وهذا الأمر هو الذى يفسر الطريقة التى إتبعها تزيمسكس ونقفور فوقاس من قبله : وقد قامت هذه الطريقة على تخريب وحرق المزارع المحيطة بالمدن والقرى والحصون الرئيسية التى تقصدها القوات البيزنطية ، وكذلك أسر العاملين فيها والإستيلاء على مواشيها . وغالباً ما كان خروج الجيوش البيزنطية فى وقت الحصاد لتقوم بإتلاف الغلات . وكان البيزنطيون يكررون ذلك عاماً بعد عام ، وهدفهم فى ذلك إضعاف تموين هذه المدن والمراكز الاسلامية حتى تضطر فى النهاية للتسليم.

وقد لفتت هذه الطريقة البيزنطية أنظار المؤرخون العرب وأشاروا اليها (٩) وحتى عند نجاح البيزنطيين فى الاستيلاء على بعض البلاد الاسلامية ، نجد أن الامبراطور البيزنطى فى غالبية الأحوال، كان لا يقيم حكما بيزنطيا مباشرا أو يترك حاميات بيزنطية للإحتفاظ بها ، بل كان يكتفى بعقد إتفاقيات مع الأمراء المسلمين ، يدفعون بمقتضاها الجزية أو الخراج للامبراطورية ، أو يعترفون بالسيادة البيزنطية ويلتزمون بما يترتب على ذلك من مسئوليات . ولكن نجـــاح البيزنطيين فى إجبار المسلمين على تنفيذ هذه الاتفاقيات كان يعتمد إلى حـد كبير على إشعارهم بقـوة بيزنطة العسكرية وهيبتها ، وكان هذا يستلزم مواصلة إرسال حملات عسكرية إلى الشرق . وكان من الطبيعى أن يستغل الأمراء المسلمون أية فرصة للتحلل من هذه الإتفاقيات. ومن هنا نستطيع القول أن الحملات التى قام بها تزيمسكس ، كانت مثل تلك التى قام بها من قبله نقفور فوقاس ، أقـــرب إلى الإغارات الكبرى السريعة منها إلى الحملات الطويلة التى تهدف إلى احتـلال دائم لجميع البلاد التى تستولى عليها .

حملة تزيمسكس سنة ٩٧٢ م : قبل أن يصل تزيمسكس بحملته الكبيرة الأولى إلى الشرق ، وردت إلى المسلمين أنباء هذه الحملة وما أعده لها من قوى كبيرة واستعدادات ضخمة . ونجد صدى هذه الأنباء فيما رواه المؤرخ سبط بن الجوزى عن أحـــداث سنة ٣٦١ هـ (١٠) حيث قال : « وفيها تواترت الأخبار أن ملك الروم عـزم القصد إلى بلاد المسلمين فى ستمائة

---

٩ — يحيى الأنطاكى ص ١٣٥ ، ص ١٣٩ — ص ١٤٠ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٤٤

١٠ - ٣٦١ هـ = ٤ نوفمبر ٩٧١ — ٢٣ اكتوبر ٩٧٢ م

الف مقاتل ، فأزعج أهل الشام والجزيرة ليفعل فيها مافعل بحلب .. »(١١) وبطبيعة الحال كان هذا التقدير لعدد قوات تزيمسكس التى أشتركت فى حملته مبالغا فيه ، إلا أنه يدل على ماشعر به المسلمون بعـدى إتساع إستعدادات الامبراطور فى هجومه المتوقع . كما أن هذا النص يبين خوف المسلمين فى كل من الجبهتين الشامية والجزرية من هجوم البيزنطيين ، وماقد يلحق بهم من مصير مثل هذا الذى لحق بإمارة حلب التى اضطرت للخضوع للسيادة البيزنطية منذ سنوات معدودة . وعلى كل فقد أتجهت هذه الحملة الكبيرة إلى إقليم الجزيرة . هذا وتؤكد المصادر العربية أن تزيمسكس نفسه هـو الذى جـاء على رأس الحملة وتولى قيـادتها . وأهم ماجاء فى ذلك ما كتبه ابراهيم بن هلال الصابى ، رئيس ديوان الانشاء فى بغداد فى هـذا العصر ، الذى ذكر إشتراك « عظيم الروم » فى هذه الحملة . وقد أقتصر المسلمون فى إستعمال هذا اللفظ فى هذا العصر للدلاله على إمبراطور الروم .(١٢)

عبر تزيمسكس على رأس جيشه نهر الفرات عند مدينة ملطية التى كانت تقع عند إحـــدى الممرات المؤدية من أراضى الدولة البيزنطية إلى إقليم الجزيرة(١٣) ، ودخل إقليم ديار ربيعة . والظاهر أن الامبراطور عرج فى

---

١١ — سبط بن الجوزى : مراة الزمان ـ ج ١١ ورقة ١٥ (صورة شمسية ـ مخطوط بدار الكتب ـ تاريخ ٥٥١)

١٢ ـ رسائل الصابى ص ٤٧ ، ص ٥٣، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣ ، سبط ابن الجوزى ص ٢٠ ، يحيى الانطاكى ص ١٣٩

١٣ ـ انظر وصف ابن حوقل : « ويخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية يومين ويجرى بينها وبين المدينة المعروفة » ج ١ ص ٢٠٨

طريقه على مدينة الرها فأغار عليها وعلى ما يحيط بها من بلاد .(١٤) إلا أنه جعل مدينة نصيبين هـدفا أساسيا وقرر الاستيلاء عليها . وكانت هـذه المدينة تتمتـع بمكانة خاصة بين مـدن الجزيرة . وقد جاء فى وصفها : « وكان من أجل بقاع الجزيرة وأحسن مدنها وأكثرها فواكه ومياها ومتنزهات وخضرة ونضرة إلى سعة غلات من الحبوب والقمـح والشعير والكروم الرائعة الزائدة على حد الرخص، نصيبين، وهى مدينة كبيرة »(١٥) وتمكن تزيمسكس من الاستيلاء على هـذه المدينة فى ١٢ أكتوبر سنة ٩٧٢ م (أول محرم سنة ٣٦٢ هـ .) (١٦) وتفيد المصادر أن القوات البيزنطية نهبت نصيبين وخربتها كما أسرت كثيرين من أهلهـا . وأقام تزيمسكس بها نحو عشرين يوما ، خربت قواته أثناءها البلاد المجاورة لها . وفى الوقت ذاته شعر أمـير الموصـل أبو تغلب الحمدانى ، بالعجز عن مقاومة الامبراطور ، وعلى ذلك دخل معه فى مفاوضات انتهت بالاتفاق على عقد هـدنة مقابل جزية سنوية يدفعهـا أبو تغلب إلى الامبراطـور . كما اشترط الأخـير على أبى تغلب المبادرة بدفع جزية سنة مقدما . واتجه تزيمسكس بعد ذلك إلى ميافارقين ، وهى من المدن الرئيسية فى ديار بكر ، وحاصرها عدة أيام

---

١٤ ـ ابن الأثير ج ٨ ٢٤٣

١٥ ـ ابن حوقل ج١ ص ٢١١ ـ هذا وقد ظلت هذه المدينة تتمتع بمميزاتها حتى عهد الجغرافى ياقوت الحموى الذى كتب عنها : « وهى مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصـل إلى الشام وفى قراها على ما يذكر أهلها أربعين ألف بستان .. بينها وبين الموصل ستة أيام » ياقوت ج ١٩ ص ٢٨٨ ـ ص ٢٨٩

١٦ ـ سبط بن الجوزى ص ٢٠ ، ابن ظافر ورقة ١٢ ب ، يحيى الانطاكى ص ١٤٠ ـ ويلاحظ أن ابن الأثير فى حين أنه اتفق مع غيره من المؤرخين أن الاستيلاء على نصيبين كان فى أول المحرم ، إلا أنه أخطأ فجعله فى ٣٦١ هـ بدلا من ٣٦٢ هـ ـ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣

الا أن حصانة هـذه المدينة ساعدت المدافعين عنها فى الامتناع على الامبراطور . وقد أشار الرحالة ناصر خسرو إلى حصانة ميافارقين بقوله : « ميافارقين محاطة بسور عظيم من الحجـر الأبيض الذى يزن الحجـر منه خمسمائه من(١٧) ، وعلى بعد كل خمسين ذراعا من هذا السور برج عظيم من الحجر نفسه ، وفى أعـلاه شرفات ، وهى من الدقة بحيث تقول أن يد بناء ماهر أكملتها اليوم . ولهـذه المدينة باب من الغـرب ، له عتبة عليها طاق حجرى ، وقد ركب عليها باب من حديد لاخشب فيه .»(١٨) وأمام مقاومة هذه المدينة ، وعدم رغبة تزيمسكس فى إطالة مدة حملته أكثر من ذلك ، فإنه رفع عنها الحصار ، وأكتفى بما فعله فى هذه الأنحاء هذا العام وقـرر العودة إلى القسطنطينية . وقبل عودته ترك على رأس قواته فى المشرق قائده الدمستق مليح فى الاقليم المعروف ببطن هنزيط ، وعهد اليه بقيادة الحملة التالية ضد المسلمين .(١٩)

حملة الدمستق مليح (٩٧٢ - ٩٧٣ م) : الا أن الدمستق مليح كان

---

١٧ ـ المن ٤٠ سيرا والسير ١٥ مثقالا . أنظر سفر نامة ص ١٣١

١٨ ـ المرجع السابق ص ٨ ـ كانت زيارة ناصر خسرو لمدينة ميافارقين فى نوفمبر ١٠٤٦ م وقد زار هذه المدينة واشار إلى ما كان لها من حصانة ، الجغرافى المعاصر المقدسى ، مسجلا ذلك فى كتابه الذى أخذ فى تصنيفه فى ٩٨٥ ـ ٩٨٦ . أنظر : المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ط . ثانيه ـ بريل ١٩٠٩) ص ١٤٠

١٩ ـ يحيى الانطاكى ص ١٣٩ ـ ص ١٤٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣ ـ ص ٢٤٤ ، ابن الازرق الفارقى : تاريخ ميا فارقين (نشر الجزء الثانى من هذا الكتاب د. بدوى عبد اللطيف عوض تحت اسم تاريخ الفارقى ـ القاهرة ١٩٥٩ ـ اما الجزء الأول من الكتاب وهو المتصل بهذا البحث فلا يزال مخطوط . ولم ينشر . وقد اعتمدت على نسخه « الميكرو فيلم » الموجودة بمكتبة جامعة الدول العربية ـ رقم ١٢٤٩ ـ إلا أن ارقام الصفحات غير واضحة بتلك النسخة

عليه أن يحارب المسلمين فى إقليم الجزيرة فى ظروف تختلف عن الظروف التى عملت فيها حملة تزيمسكس السابقة . فلقد قام رد فعل بين المسلمين نتيجة لانتصارات تزيمسكس ، وبقاء القوات البيزنطية تحت قيادة مليح على مقربة من المراكز الاسلامية فى الجزيرة ، وإستمرار تهديد البيزنطيين للمسلمين . وتذكر المصادر العربية أنه على أثر استيلاء تزيمسكس على نصيبين وما فعله بها ، نزلت جماعة ممن نجوا من أهلها ، وكذلك جماعة من أهل الموصل ، إلى بغداد لطلب النجدة وهناك إستنفروا الناس فى الجوامع والمشاهد ، وذكروا ما قام به الروم من النهب والسلب والقتل والأسر ، وحذروا أهل بغداد من خطورة انفتاح الطريق أمام البيزنطيين وتقدمهم إلى بغداد . وقد أثار ذلك عامة أهل المدينة وخاصة جماعات العيارين ، وقاموا بمظاهرات عنيفة حملوا فيها المصاحف وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء من الخطبة ، استنكاراً لموقف المسئولين وتهاونهم فى الجهاد ضد الروم . وقد سار المتظاهرون إلى الخليفة العباسى المطيع وأرادوا اقتحام داره عنوة . ويقول مسكويه أن المتظاهرين تطاولوا على الخليفة « فأسمعوه ما كره ونسبوه إلى العجز عما أوجب الله على الأئمة ، وتجاوزوا ذلك الى مايقبح ذكره . »(٢٠) ولم ينصرف المتظاهرون عن دار الخليفة الا بعد دفعهم بالقوة وقتل جماعة منهم الا أن بغداد أستمرت على ما بها من إضطراب لسخط المسلمين على هذا الموقف . وفى نفس الوقت خرج وفد منها « من أهل العقل والدين » ، حسب وصف المؤرخ أبى المحاسن ، لمقابلة أمير الأمراء البويهى بختيار ، المسئول عن شئون الخلافة العباسية والمسلمين ، وكان حينئذ بالكوفة . (٢١) ويقول

---

٢٠ — مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ — ص ٣٠٤

٢١ — كان من أعضاء هذا الوفد الامام أبو بكر الرازى الفقيه ، أبو الحسن على بن عيسى النحوى ، أبو القاسم الدراكى وابن الدقاق الفقيه . انظر النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٥

مسكويه أن أعضاء الوفد «عابوا على بختيار انشغاله عن مصالح المسلمين وانصرافه عن تدبير أمورهم ، إلى مجاهدة عمران وهو من أهـل القبلة ، وأهماله الروم وهم أعداء الملة ، ثم تشاغله بالصيد واللهو عن جميع مهمات المملـكة» .(٢٢) ولهذا النص أهميته من حيث أنه يصور أهتمام المخلصين من المسلمين بالجهاد في سبيل الاسلام ضد الروم ، وضرورة أعطاء هذا الواجب أولوية على غيره من المسئوليات التي كان على الحاكم أن يقوم بها . وقد وعد بختيار بأنه بعد عـودته إلى بغداد سوف يخرج لمحاربة البيزنطيين . وفي نفس الوقت أرسل إلى سبكتكين الحاجب التركي ببغداد ، أمرا بالاستعداد للقيام بالجهاد ، وأن يعلن بين عامة الناس وأهل المدينة هـذا النبأ . وعلى ذلك ، اجتمعت أعداد غفيرة من العامة بما لديها من أسلحة ، ويقدر يحيى الأنطاكي عددها بنحو ستين ألفا .(٢٣)

إلا أن هذه الفورة والحماسة التي ظهرت في بغداد من أجل الجهاد في سبيل الله ، لم يقدر لها أن تنتقل مباشرة بكامل قوتها إلى الجبهـة الجزرية لمنازلة البيزنطيين . فإن ما وجد في المدينة من عصبيات بين الاتراك والديلم، وخلاف بين السنيين والشيعة والإفتقار إلى حكومة قوية تستطيـع القبض على زمام الأمور ، قد أدى إلى قيام فتنة واضطراع داخلي خطير . وقد جاء في وصف ماحدث أن الناس « تركوا ذكر الروم وأعرضوا عنه جانباً وأخذ يقاتل بعضهم بعضاً وصارت بينهم حـروب عظيمة . »(٢٤) وكان للعيارين نصيبهم من النشاط في هذه الأحداث .

---

٢٢ ـ مسكويه ج ٢ ص ٣٠٤ ـ وعمران ابن شاهين المذكور هو والى البطيحة وهي من الولايات التابعة لأمير بغداد البويهي . ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤١

٢٣ ـ يحيى الانطاكي ص ١٤١

٢٤ ـ المرجع السابق ص ١٤١

ولم تخف حدة هذه الاضطرابات إلا بعد وصول بختيار إلى بغداد واستعمال الشدة وإعدام جماعة من العيارين .(٢٥) ونظراً لما كان يشكو منه بختيار من نقص موارده وتأخره فى دفع أجور جنده ، فقد طلب من الخليفة المطيع مالا متذرعاً فى ذلك بحاجته اليه للقيام بالجهاد . ولم تكن حال المطيع المالية بالحسنة . وقد رد على طلب بختيار بقوله : « ان الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين ، تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى إلى الأموال ، وأما إذا كانت حالى هذه ، فلا يلزمنى شىء من ذلك ، وانما يلزم من البلاد فى يده،وليس لى إلا الخطبة فإن شئتم اعتزلت .»(٢٦) وكان هذا الرد طبيعياً،نظراً لتغلب بنى بويه على الخلفاء العباسيين واستئثارهم بالسلطة دونهم . ولم يوافق المطيع على تقديم المساعدة المالية المطلوبة الا تحت تهديد بختيار : وعلى أية حال فإن المطيع لكى يدفع له مبلغ أربعمائة ألف درهم ، إضطر لبيع ثيابه وأنقاض داره ، وهذا الوضع يوضح مدى ضعف الخليفة العباسى أمام أمير الأمراء البويهى .

وهكذا فإن تلك الحركة الكبرى التى شاهدتها بغداد والتى كان هدفها القيام بالجهاد ضد البيزنطيين ، تشتت الكثير من قواها فيما قام من اشتباكات داخلية . وعلى أية حال ، فإن هذه الحركة لم تكن بدون فائدة بالنسبة لمسألة ارسال النجدة لمساعدة المسلمين فى قتالهم ضد البيزنطيين . فإن بختيار ، على الرغم من عدم اهتمامه بالجهاد ضد الروم وعدم اشتراكه شخصياً بجيشه الخاص فى ذلك ، كان يتحتم عليه أمام الظروف التى سادت فى بغداد ،أن يتخذ على الأقل بعض خطوات لتدبير نوع من المساعدة.

---

٢٥ — ابن الاثير ج ٨ ص ٢٤٤ ، يحيى الانطاكى ص ١٤٠ — ١٤١

٢٦ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤

ومما يشير إلى ذلك ، الخطاب المرسل من الخليفة المطيع إلى ركن الدولة البويهى الذى جاء فيه أن بختيار « أمتثل أمر أمير المؤمنين فى إنجاد أبى تغلب بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم ، بالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد ، فتوافت هذه الجموع اليه وتكاثرت لديه ». (٢٧) وإن هذه الرسالة مع ماجاء بها من مبالغة فى ذكر إهتمام بختيار بالجهاد ضد الروم والدور الذى قام به فى اعداد النجدة اللازمة ، فإنها تفيدنا فى التعرف على العناصر التى قامت لنجدة أهالى الجزيرة . ومن الواضح أن الكثير من أفراد النجدة كانوا من القبائل الكردية والعربية التى ظهر نشاطها فى هذا العصر . ومن الجائز أن هذه القبائل قامت للنجدة نتيجة لنداء المسلمين وطلب المساعدة ، أو لرغبة منها فى الاستفادة من القتال ، أكثر منها إستجابة لأوامر بختيار الذى كانت سلطة الداخلية محدودة فى العراق . هذا وتشير بعض المصادر العربية إلى إشتراك قوات كبيرة المتحمسين من عامة المسلمين ، ويقول فى ذلك أبو المحاسن أنه قد خرج « خلق كبير مثل الرمل . »(٢٨) وهكذا فقد أصبح على جيش الدمستق البيزنطى مليح أن يقابل المسلمين فى الجبهة الجزرية فى ظروف حركة رد الفعل الاسلامى الذى قام فى العـــراق عامة وبغداد خاصة ، نتيجة لحملة الامبراطور تزيمسكس السابقة .

العمليات العسكرية بين المسلمين وجيش مليح : وقد جاء فى نفس الخطاب المرسل من الخليفة المطيع إلى ركن الدولة ذكر الاصطدامات العسكرية التى

---

٢٧ ـ رسائل الصابى ص ٤٨ ـ ص ٤٩ . والملاحظ على هذا المصدر أنه بالغ فى ذكر اهتمام بختيار بالجهد ضد الروم والدور الذى قام به فى اعداد قوة محاربة

٢٨ ـ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٥ ـ ص ٦٦

قامت بين المسلمين والبيزنطيين قبل الموقعة الهامة التى هزم فيها الدمستق مليح وأسر فقد تجدد نشاط المسلمين فى منطقة الحدود على أثر وصول القوات الاسلامية ، وأوغلت قوة منهم وأغارت على بعض المراكز البيزنطية الحصينة عند موش Mousch ، عاصمة اقليم طرون Taron الأرمينى، وتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها وقتلوا كثيرين من الأعداء ، كما أمتلأت أيدى المسلمين من السبي والغنائم ، ثم انصرفوا عنها بعد ذلك .(٢٩) كما يفيد هذا الخطاب بأن قــوة بيزنطية خرجت تحت أمرة بعض قواد الأطراف البيزنطية من رتبة الزراورة Clisurarchs (٣٠) لمهاجمة حصن للمسلمين فى منطقة بدليس Bitlis .(٣١) إلا أن البيزنطيين فشلوا فى الاستيلاء على هذا الموقع وأرتدوا بعد أن أنزلت بهم الحامية الاسلامية الخسائر .(٣٢) هذا واهتم المسلمون كذلك بتدعيم استحكامات مدينة ميافارقين التى كان من المنتظر أن يعاود البيزنطيون مهاجمتها .

وفى الجزء التالى من نفس السنة الهجرية (٣٦٢) المقابل لسنة ٩٧٣ م، قرر الدمستق مليح القيام بهجـوم كبير ضد المسلمين . وأصبح لديه فى بطن هنزيط ونواحيه ومعبر الفرات وما يليه قوة قدرتها المصادر العربية بنحو خمسين الف رجـلا من المحاربين ، منهم عشرون ألف من المدججة

---

٢٩ ــ رسائل الصابى ص ٤٨

٣٠ ــ الزراورة جمع زروار . انظر تحقيق هذا المنصب البيزنطى فى الملحق الثامن .

٣١ ــ حدد ياقوت الحموى مكان بدليس ووصفها بقوله أنها :

بلدة من نواحى أرمينيه قرب خلاط ، ذات بساتين كثيره وتفاحها يضرب به المثل فى الجودة والكثرة والرخص ويحمل الى بلدان كثيرة » ج ٣ ص ٢٥٨ ــ ص ٢٥٩

(المحاربون المثقلون).(٣٣) ووصلت الاخبار إلى المسلمين عن عزم مليح على الاستيلاء على مدينة آمد Amith الواقعة فى طريق تقدم البيزنطيين . وقد كتب هزار مرد ، والى هذه المدينة اذ ذاك من قبل الحمدانيين ، إلى أبى تغلب طالبا النجدة ، وبادر الأخير بإرسال أخيه هبه الله بن ناصر الدولة على رأس جيش كثيف العدد كانت من أهم عناصره قبائل العرب والأكراد الذين وصلوا لإعانة المسلمين فى الجبهة الجزرية . وكان وصول هبة الله وجيشه إلى آمد فى أول يوليو سنة ٩٧٣ م (٢٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) . وقرر هبه الله وهزار مرد الخروج من آمد على رأس القوات الاسلامية المجتمعة لمقابلة البيزنطيين وهم مضيق جبلى يقع على مقربة من آمد. وكان هذا المضيق لا يسمح بتحركات الفرسان البيزنطيين الذين أحاطت بهم قوات المسلمين . وفى هذا المكان قامت موقعة كبرى فى ٤ يوليو ٩٧٣ م (آخر رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، (٣٤) الحق فيها المسلمون هزيمة كاملة بجيش الدمستق مليح ، وكثر القتل والأسر بين البيزنطيين ، كما حصل المسلمون على الكثير من الغنائم . وفضلا عن ذلك كله فقد وقع فى الأسر الدمستق نفسه(٣٥)

---

٣٢ — جاء فى الخطاب المذكور أن « سميرام » قد تعرضت لهجوم نفس القوة التى هاجمت بدليس ، ولكن هذا غير مرجح ، حيث أن سميرام تقع بعيدة وعلى الحدود الشرقية لأذربيجان - أنظر كلمة سميرم فى معجم البلدان ج ١١ ص ٢٥٧ ، رسائل الصابى ص ٤٨ — ص ٤٩ .

٣٣ - رسائل الصابى ص ٤٩ .

٣٤ — مسكويه ج٢ ص ٣١٢ ، رسائل الصابى ص ٥٠

٣٥ — استمر الدمستق مليح فى الأسر ، حيث عومل معاملة حسنة ، وذلك حتى مماته فى ٣٦٣ هـ - أبن الأثير ج ٨ ص ٢٤٨ ، مسكويه ج٢ ص ٣١٢ ص ٣١٣ ، يحيى الانطاكى ص ١٤٠ ، متى الرهوى ص ٨ .

ونائبه المعروف لدي المسلمين باسم ابن البلنطس Balantès . (٣٦) كما افتخر المسلمون بأسر جماعة من ذوى الرتب العالية فى الجيش البيزنطى من « البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة » . (٣٧) وهكذا فقد نجح المسلمون فى القضاء على خطر حمله الدمستق مليح التى تهددتهم وأنقذوا مدينة آمد وجنوبها وغيرها من بلاد الجزيرة مما كان من الممكن أن تتعرض له من أخطار .

وكان لهذا النصر الذى أحرزه المسلمون أهميته فى الصراع الدائم بينهم وبين البيزنطيين . فقد عم بسببه السرور والابتهاج بين المسلمين بعد أن كثرت هزائمهم أمام أعدائهم . ومما يصور فرحة المسلمين أن أبا تغلب أرسل إلى بغداد عددا كبيرا من رؤوس وأيدى القتلى البيزنطيين . (٣٨) كما كان من مظاهر ابتهاج المسلمين وافتخارهم ، تلك المراسلات التى كتبها المسئولون فى هذه المناسبة ، ومحاولة كل منهم أن يشيد بالدور الذى اسهم به لتحقيق هذا النصر . ومن هذه المراسلات

---

٣٦ — بخصوص ابن البلنطس فان المعلومات عنه محدودة ، ولكن نستطيع القول بأن أسرته أصبحت ذات حظوة عند تزيمسكس . وقد كان أحد أقاربه وهو ليو بلنطس أحد أعوان تزيمسكس فى المؤامرة التى رفعته إلى عرش بيزنطة .

٣٧ — رسائل الصابى ص ٥٠ — لهذا النص من رسائل الصابى أهمية خاصة حيث انه مما يدل على تعرف المسلمين على الرتب والمناصب البيزنطية المختلفة — والبطارقة ومفردها بطريق = Patrician . وكان من أعلى ألقاب الشرف التى تمنح فى الامبراطورية البيزنطيه — انظر :

Rnnciman, Byg. civil, pp. 92-93.

أما الزراورة فقد سبق التعليق عليهم — الأراخنة جمع أرخون Archen وهو كذلك من القواد العسكريين الذين يحكمون مناطق عسكرية تقل أهمية عن « الثيم » وتعرف باسم Archontatus . لتفسير كلمة « الطراخنة » أرجع إلى الملحق التاسع .

٣٨ — مسكوية ج ٢ ص ٣١٢ .

الرسالة التى أرسلها أبو تغلب إلى الخليفة العباسى المطيع ليبشره بهزيمة البيزنطيين . (٣٩) كما أرسل كل من الخليفة المطيع وعز الدولة بختيار خطابا بهذا المعنى إلى ركن الدولة البويهى . (٤٠) ولابد أن هذا النصر كان له أثره فى تقوية الروح المعنوية بين المسلمين .

وفى نفس الوقت الذى عم فيه المسلمين الإستبشار والإعتزاز بنصرهم فى موقعه ٤ يوليو ٩٧٣ ، كانت نتيجة هذه الموقعة صدمة كبرى ومصدر سخط بالنسبة للبيزنطيين ، الذين طالبوا بالقيام بحملة انتقامية. وقد سجل لنا هذا الشعور فى الخطاب الذى بعث به الدمستق مليح إلى الإمبراطور تزيمسكس حيث قال : « اننا لم نعتبر جديرين بأن ندفن وفقا للتقاليد المسيحية فى أرض خاصة بالمسيحيين . ولم نحظ ـ لمواراة رفاتنا ـ إلا بأرض ملعونة وقبور كقبور الأشرار . كلا أننا لانعترف بك كرئيس شرعى للامبراطورية الرومانية المقدسة : ذلك لأن الهلاك الأليم الذى لقيه عدد كبير من المسيحيين ، ودماؤهم التى أريقت عند أسوار آمد ، وموتنا فوق أرض أجنبية ، كل هذه مظالم تقع على رأسكم ، وستحاسبون عليها أمام المسيح عيسى ربنا يوم الحساب ، وذلك ما لم تثأروا من هذه المدينة ثأرا مشهودا . » (٤١) هذا وقد التزم المؤرخون البيزنطيون بما فيهم المؤرخ المعاصر ليون الشماس صمتا مطلقا أمام هذه الهزيمة. فبالنسبة لهم لابد وأنها

---

٣٩ ــ سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١١ ص ٢٢ .

٤٠ ــ انظر النص الكامل لرسالة الخليفة المطيع إلى ركن الدولة في الملحق الخامس، مختارات « رسائل الصابى » ص ٥٢ — ص ٥٦

٤١ ــ متى الرهوى ص ٩ .

كانت حدثا غير مرغوب فى تسجيله فى تاريخ تزيمسكس الحافل بالأمجاد العسكرية .

حملة تزيمسكس على الجزيرة سنة ٩٧٤ م : وهكذا فقد تطلبت هذه الهزيمة التى لحقت بالجيش البيزنطى من تزيمسكس أن يقوم بحملة جديدة جديدة للانتقام لما حدث ، ولإعادة هيبة البيزنطيين إلى الجبهة الجزرية : ويقول المؤرخ الأرمينى متى الرهوى أن الامبراطور لما وصله خطاب مليح وعلم بهزيمة جيشه ،قام«وهو يضطرم غضبا وكأنه نار تستعر » وأمر فى التو بالاستعداد للحملة التى وجهها ضد المسلمين فى الجزيرة فى خريف العام التالى (٩٧٤ م) .

وللاسف فإن المعلومات التاريخية التىوصلت إلىأيدينا عن هذة الحملة محدودة ولا تساعدنا كثيرا فى توضيح كافة جوانب الموضوع . فمن ناحية فإن هذه الحملة هى التى أسقط ذكرها المؤرخون العرب ولم يجيئوا بشىء مطلقا عن هجوم الامبراطور على اقليم الجزيرة. ولاتساعدنا المصادر العربية فى هذا الصدد إلا فى تكوين صورة عامة لأحوال المسلمين فى العراق فى هذا الحين . ومن ناحية أخرى فان المعلومات التى وصلتنا عن طريق المؤرخين البيزنطيين محدودة إلى حد كبير . فان سكيلتزيس Skylitzes وسيدرينوس Cedrenus لم يتعرضوا بشىء لأخبار الحملة . أما المعلومات التى سجلها عنها ليون الشماس فى تاريخه فقد كانت قليلة . والواقع أننا ندين إلى حد كبير فى معرفة معظم ما وصلنا من أخبار للمؤرخ الأرمينى متى الرهوى إلا أننا عند الاعتماد على هذا المصدر الأخير يجب علينا التزام الحذر والحيطة بسبب ما جاء فيه من مبالغات وصبغة أسطورية فى بعض المواقف .

بعد أن أتم تزيمسكس إستعداداته لحملته الجديدة ، تقدم على رأس جيش كبير وعبر الفرات . ولكنه قبل أن يقوم بمنازلة المسلمين فى اقليم الجزيرة عرج فى طريقه على إقليم طرون الأرمينى الذى يقع إلى الغرب من بحيرة فان Van ، ووصل إلى عاصمته موش ، ثم عسكر أمام حصن (Aidziats) Aitziatsperd المعروف بمناعته .(٤٢) وكان البيزنطيون قد بدأوا فى فرض حكمهم على هذه المنطقة منذ زمن سابق ولا يساعدنا متى الرهوى كثيراً فى توضيح الدوافع والملابسات التى جعلت تزيمسكس يقف بجيشه عند حدود مملكة الأرمن . ولكن هناك مايدل على أن العلاقات البيزنطيةالأرمينية حينئذ كانت تحتاج إلى عقد تسوية يستطيع تزيمسكس أن يؤمن بها ظهره ، وتساعده فيما يقوم به من عمليات عسكرية ضد المسلمين .

فمنذ منتصف القرن التاسع الميلادى أخـــذت أرمينية تظهر على شكل مملكة جديدة تحكمها أسرة البغريين Bagratids ، الذين عملوا على تحقيق الكيان الأرمينى أمام تنافس كل من المسلمين والبيزنطيين على فرض نفوذهم على البلاد الأرمينية ، أو على الأقل اكتساب حاكم أرمينية كحليف . ومن مظاهر هذا التنافس كان منح الخليفة العباسى لقب «أمير الأمراء» لأشوط الأول البغرى Ashod I فى منتصف هذا القرن. وعند أواخر القرن المذكور منح الخليفة العباسى حاكم أرمينية لقب ملك . وعندما وصلت الأخبار بذلك إلى باسيل الأول ، سارع بمنح ملك أرمينية لقبا مماثلا من جانبه ، وأرسل له كذلك تاجاً ملكياً ، كما عقد معه معاهدة تحالف. وفى الخطاب الذى أرسله باسيل إلى أشوط الأول خاطبه بابنه المحبوب، وأكد له أن

---

٤٢ — متى الرهوى ص ١١ .

امارات أرمينية ستعتبر دائما صديقة للامبراطورية البيزنطية.(٤٣) وعندما أستغل المسلمون فرصة الاضطرابات الداخلية التى سادت أرمينية بعد أشوط الأول ، للتدخل فى شئونها ، لم يتمكن خليفته أشوط الثانى الملقب بالحديدى ، من التخلص من المسلمين الا بمساعدة البيزنطيين وكان ذلك فى النصف الأول من القرن العاشر. وقد قام هذا الملك بزيارة بلاط الامبراطور رومانوس ليكابينوس فى القسطنطينية حيث استقبل إستقبالا حافلا وأصبح أول ملك أرمينى يحمل لقب « شاهنشاه » أى ملك ملوك أرمينية .

وتبع أشوط الحديدى على العرش ، أشوط الثالث (٩٥٢-٩٧٧م) وهو المسئول عن شئون أرمينية فى عصر الامبراطور تزيمسكس . وكان من مشاكل أرمينية وجود نظام إقطاعى قوى يتمتع فيه الأمراء الاقطاعيون بسلطة كبيرة وتسبب فى قيام الاضطرابات الداخلية . وعلى كل ، فقد نجح أشوط الثالث فى التغلب على الفوضى الداخلية ، وتمكن من إعطاء البلاد عصرا من الاستقرار . كما أعاد تنظيم الجيش حتى أصبح فى استطاعته أن يعبىء جيشا عدته تسعين ألف محارب . وقد عرف باهتمامه وعطفه على الكنائس والأديرة ، واتخذ من مدينة آنى عاصمة لحكومته ووضع الأساس لإقامة مجدها . كما تمتع هذا الملك بسمعة طيبة قربته من نفوس الأرمن . فقد كان شغوفا بالمعوزين . ويحكى عنه أنه لم يجلس لتناول طعامه إلا ومن حوله الفقراء والمساكين حتى أشتهر باسم Olormadz أى « الرحيم »(٤٤).

وكانت الامبراطورية البيزنطية مع ما تبديه من مظاهر العلاقات الودية مع الأرمن ، ترغب فى حقيقة الأمر فى اخضاع دولتهم ، أو على أقل تقدير ،

---

(44) Runciman, Romans Lecapenus, 125 - 33, 151 - 74

ادخالها فى دائرة النفوذ البيزنطى . ولا بد أن ما لاحظه البيزنطيـون من تطور البلاد الأرمينية فى عهد أشوط الثالث وإزدياد قوتهـا ، قد جعلهم يفكرون فى عقد اتفاقية جديدة معها تضمن تحقيق المصالح البيزنطية . والمرجح أن ذلك كان الدافع الذى جعل تزيمسكس يتجه إلى إقليم طرون الأرمينى على رأس جيشه . وقد أثار ظهور تزيمسكس قلق الأرمن . ويذكر المؤرخ متى الرهوى قيام أشوط الثالث ومعه كبار رجال الكنيسة والعلماء والأمراء الأرمن ، على رأس جيش كبير قوامه ثمانين ألف محارب ، ونزوله إلى مقاطعة Hark'h ، التى كان البيزنطيون استولوا على مدينتها الرئيسية ، ملازكرد منذ سنوات قليلة مضت ولا ريب أن الارمن أرادوا من وراء هـذه المظاهرة العسكرية الاستعداد لما يطرأ من أحداث ،وإشعار البيزنطيين بما لديهم من قوة حتى يحد ذلك من مطامعهم . وعلى كل حال فقـد دارت المفاوضات بين الجانبين البيزنطى والأرمينى . وكان من أهم الشخصيـات الأرمينية التى قامت بدور هام أثناءها ليون الفيلسوف والأمير سمبـاد ثورنتسى Sempad Thornetsi . (٤٥) وأنتهت المفاوضات بعقد معاهدة وافق بمقتضاها أشوط على أن يقدم للمحاربين البيزنطيين ما يحتاجون اليه من الزاد والعلف ، وأن يمدهم بقـوة عسكرية تتكون من عشرة آلاف من المحاربين الأرمن(٤٦) .وكان الأرمن من أفضل الجنود الذين أعتمدت عليهم الامبراطورية البيزنطية فى جيشها . وبعد أن اطمأن تزيمسكس الى تسوية علاقاته مع الأرمن على النحو المذكور ، إتجه جنوبا لمحاربة المسلمين .

٤٥ ـ كان ليون الفيلسوف يتمتع بمكانة سامية فى أرمينية وقد نال كذلك احترام وتقدير البيزنطيين . ونحن نسمع عنه بعد ذلك يذهب مدعوا إلى القسطنطينية ليشارك فى الاحتفالات التى أقامها الامبراطور بعد عودته من حملته فى الشرق . وهناك اشترك ليون فى المناظرات العملية التى اقيمت فى القسطنطينيه ـ متى الرهوى ص ٢١ ـ ص ٢٢ .

٤٦ ـ المرجع السابق ص ١١ .

كان ظهور تزيمسكس على رأس حملته فى شمال العراق فى خريف ٩٧٤م وكان الموقف حينئذ فى صالح الامبراطور الى حد كبير ، نظرا لما كان تحت إمرته من قوات عسكرية ضخمة ، وللظروف السائدة بين المسلمين فى الجبهة الجزرية والتى كانت تختلف عن الظروف التى واجهها الدمستق مليح فى العام الماضى . فان المسئولين عن إقليم الجزيرة شغلتهم الاحداث التى عمت معظم بلاد العراق ، على أثر الصراع الذى نشب فى بغداد بين العناصر التركية والبويهيين وقيام حرب داخلية أشترك فيها أبو تغلب ، وتغيب أثناءها عن إقليم الجزيرة حيث أنه قد أتجه إلى بغداد وأقام هناك فترة من الزمان . وكانت بداية الاضطرابات الداخلية بالعراق قبل مجىء تزيمسكس واستمرت طيلة وجوده فى شمال العراق ولم تنته إلا بعد انسحابه منها (٤٧).

وفى هذه الظروف تقدمت قوات تزيمسكس بدون أن تواجه مقاومة كبيرة . ولا يمكننا ما وصل الينا من معلومات تاريخية من التعرف على خط سير جيش تزيمسكس ، ولكن نستطيع أن نقول ، بناء على ماذكره متى الرهوى ، أن تزيمسكس نجح فى اكتساح منطقة واسعة من بلاد الجزيرة . فقد ذكر أن هذا الامبراطور نهب وخرب ثلاثمائة بلدة وحصناً وأن تقدمه فى جميع البلاد التى سار فيها كان « مقترنا بالابادة وسفك الدماء »(٤٨) . وقد خص متى الرهوى بالذكر ثلاثة مدن كبيرة تعرض لها الامبراطور وهى الرها وآمد ونصيبين . وقد جاء عن الرها أنه ترفق بها « مراعاة للرهبان الذين كانوا يقطنون الجبل المجاور والاماكن المحيطة

---

٤٧ — أنظر ما سبق ص ٥٧ — ص ٦١

٤٨ — متى الرهوى ص ١١ — ص ١٢

الذين يبلغ عددهم قرابة عشرة آلاف »[٤٩]. والظاهر أن تزيمسكس قد فضل أن يلجأ إلى هذه المعاملة لإستمالة أهلها وكان معظمهم من المسيحيين [٥٠].
ويضيف المؤرخ الأرميني المذكور أن الامبراطور توجه إلى مدينة آمد التابعة للحمدانيين وحاصرها عاقدا العزم على الاستيلاء عليها وكانت هذه المدينة هدفاً أساسيا للبيزنطيين لأهميتها والمعروف أن الدمستق مليح كان ينوى الاستيلاء عليها عندما لحقت به الهزيمة على مقربة منها . وأن الرواية التى فسر بها متى الرهوى إنسحاب تزيمسكس ورفعه الحصار عن مدينة آمد أقرب إلى الاسلوب الأسطورى منها إلى المعالجة التاريخية وقد قال هذا المؤرخ : (بعد أن وصل هذا الامبراطور إلى آمد وهو يتملكه سخط عنيف ، وجد أن هذه المدينة كانت تملكها إمرأة ، هى أخت الأمير المسلم حمدون[٥١] ، التى كان تزيمسكس على علاقة أثيمة بها فيما مضى . وكانت ذكرى هذه العلاقة هى التى ثبطت عزيمته ، فلم يبذل الجهود الكفيلة بجعله سيد آمد . فقد صعدت هذه المرأة فوق سور المدينة وأسمعت الامبراطور الكلمات الآتية : « ماخطبك أتأتى لتشن حرباً على إمرأه دون أن تفطن إلى ما ينطوى عليه ذلك من عار لك ! » فرد عليها تزيمكسس بقوله : « لقد أقسمت أن أهدم سور مدينتك ، ولكن لن نمس حياة سكانها بسوء . » فقالت أخت حمدون : « مادام الأمر كذلك ، فلتذهب وتهدم الجسر الواقع

---

٤٩ ـ المرجع السابق ص ١٢

٥٠ ـ كتب ابن حوقل عن الرها : « والغالب على أهلها النصارى زيادة على ثلثمائة بيعة ودير ذى صوامع فيه رهبانهم ، وبها البيعة التى ليس للنصرانية أعظم ولا أبدع صنعة منها » ابن حوقل ج ١ ص ٢٢٦ ـ البيعة : هى معبد النصارى أو اليهود .

٥١ ـ انظر الملحق العاشر بشأن هذه الأميرة الحمدانية

على نهر دجلة ، وبذلك تكون قد نفذت قسمك . » واستجاب الامبراطور لهذه النصيحة وإنسحب من أمام آمد ومعه كميات ضخمة من الذهب والفضة ، دون أن يشن أي هجوم بسبب هذه المرأة ، ولأنه من مواليد مقاطعة خوزان التي يطلق عليها اليوم اسم Tchemeschgdzak — مسقط رأس تزيمسكس — وكانت هي الأخرى من نفس المقاطعة . في ذلك العصر كان المسلمون قد أخضعوا لسلطانهم عدداً من البلاد .)(٥٢)

ونرى أنه من الخطأ أو المبالغة أن نسلم بقول متى الرهوي بأن انسحاب تزيمسكس من عند آمد كان بسبب تلك العلاقة المزعومة بين الامبراطور والأميرة الحمدانية ؛ والأرجح أن السبب الرئيسي الذي جعل هذا الامبراطور يرفع الحصار عنها هو ماتبينه من صعوبة إقتحام تلك المدينة التي كانت تتمتع بحصانة غير عادية . وقد عرفت آمد بمناعتها منذ زمن سابق بعيد . وإن ما رواه بروكوبيوس Procopuis مؤرخ عصر جستنيان والقرن السادس الميلادي ، عن تحصينات هذه المدينة ، يتمشى إلى حد كبير مع ما كتبه عنها كل من إبن حوقل والرحالة الفارسي ناصر خسرو . فقد ذكر إبن حوقل : «ومدينة آمد على جبل من غربي دجلة ، مطل عليها من نحو خمسين قامة ، وعليها سور أسود من حجارة الأرحية ويسمى ذلك السور ميموناً لشدة سواده ، وذلك أنه من حجارة أرحية الجزيرة : وليس لحجارته في جميع الأرض نظير . ومنها ما يساوي الحجر للطحن بالعراق من خمسين ديناراً إلى أكثر وأقل ... »(٥٣) وسجل ناصر خسرو ملاحظاته الدقيقة عن حصانة آمد وأهميتها أثناء زيارته لها (٥٤) بقوله : « بلغنا آمد التي شيدت

---

٥٢ — متى الرهوي ص ١٢

٥٣ — ابن حوقل ج ١ ص ٢٢٢ — ص ٢٢٣

٥٤ — كانت زيارة ناصر خسرو لمدينة آمد في ديسمبر ١٠٤٦ م

على صخرة واحدة طولها ألفا قدم وعرضها كذلك وهى محاطة بسور من الحجر الأسود ، كل حجر منه يزن ما بين مائة وألف من .(٥٥) وأكثر هذه الحجارة ملتصق بعضه بالبعض من غير طين أو جص . وإرتفاع السور عشرون ذراعاً وعرضه عشر أذرع . وقد بنى على بعد كل مائة ذراع برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً ، وشرفاته من الحجر بعينه . وقد شيدت فى عدة أماكن داخل المدينة ، سلالم من الحجر ، ليتيسر الصعود إلى السور . وقد بنيت قلعة على قمة كل برج . ولهذه المدينة أربعة أبواب كلها من الحديد الذى لا خشب فيه ، يطل كل منها على جهة من الجهات الأصلية . ويسمى الباب الشرقى باب دجلة ، والغربى باب الروم ،والشمالى باب الأرمن، والجنوبى باب التل . وخارج هذا السور سور آخر من نفس الحجر ، إرتفاعه عشر أذرع ومن فوقه شرفات فيها ممر يتسع لحركة رجل كامل السلاح ، بحيث يستطيع أن يقف ويحارب بسهولة . ولهذا السور الخارجى أبواب من الحديد شيدت مخالفة لأبواب السور الداخلى ، بحيث لو أجتاز - السائر - أبواب السور الأول ، وجب عليه إجتياز مسافة لبلوغ أبواب السور الثانى ، وهذه المسافة تبلغ خمس عشرة ذراعا . وفى وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب ، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفى لإدارة خمس طواحين ، وهو غاية فى العذوبة ، ولا يعرف أحد من أين ينبع . وفى المدينة أشجار وبساتين تسقى من هذا الماء ... وقد رأيت كثيراً من البلاد والقلاع فى أطراف العالم ، فى بلاد العرب والعجم والهند والترك، ولكنى لم أر قط مثل مدينة آمد ، فى أى مكان على وجه الأرض ، ولا

---

٥٥ - المن = ٤٠ سيرا ، والسير = ٤٠ مثقالا - انظر : ناصر خسرو علوى : سفر نامه (ترجمة د : يحيى الخشاب - القاهرة - ١٩٤٥) ص ١٣١

سمعت من أحد أنه رأى مكانا آخر مثلها . »(٥٦) ولا بد أن هذه الحصانة التى تمتعت بها آمد والتى تبينها الامبراطور قد جعلته يقرر الإنسحاب بعد ماشاهد عزم حاميتها على الدفاع عنها .وعلى ذلك فقد أكتفى بما حصل عليه من كميات كبيرة من الذهب والفضة التى قدمها له المدافعون عن المدينة مقابل رحيله عنها .(٥٧)

وأشار تزيمسكس فى خطابه المرسل إلى الملك أشوط الثالث الأرمينى إلى إستيلائه على مدينة نصيبين وفرض الجزية على أهلها . (٥٨) كما يقول متى الرهوى أن الامبراطور تقدم جنوبا بعد ذلك مجتاحا ما صادفه من البلاد حتى وصل إلى مشارف بغداد . ويؤكد ليون الشماس أن الامبراطور كان قد قرر مفاجأة بغداد ، التى كانت حسب قوله غافلة وبدون مدافعين عنها ، والاستيلاء عليها بهجوم] مفاجىء يقوم بهالفرسان البيزنطيون .(٥٩) إلا أن تزيمسكس قرر الاكتفاء بما فعله فى هذه الحملة والانسحاب شمالا والعودة إلى بلاده .

---

٥٦ - سفر نامه ص ٨ - ص ٩ - انظر سور مدينة آمد فى :
Rey, Monuments de l'architecture des Croisées en Syrie. - (Paris, 1871). p. 73.

٥٧ - متى الرهوى ص ١٢

٥٨ - متى الرهوى ص ١٣ - الثابت ان تزيمسكس كان قد استولى على هذه اثناء حملته الأولى فى الجزيرة فى ١٢ اكتوبر ٩٧٢ م - وبخصوص ما ذكره تزيمسكس عن إستيلائه عليها اثناء حملته (٩٧٤ م) فيمكن تفسير ذلك بأن البيزنطيين قد اخلوا المدينة بعد أن فرضوا عليها شروطهم سنة ٩٧٢ ، أو أن المسلمين قد تمكنوا من إستردادها على اثر هزيمة الدمستق مليح ٩٧٣ م

٥٩ - متى الرهوى ص ١٢ ، شلومبرجيه ص ٢٥٩

وعند الحكم على انجازات حملة سنة ٩٧٤ م ، فيجب قبل كل شيء أن ننتبه إلى مبالغة متى الرهوى وليون الشماس فى هذا الصدد ، تلك المبالغة التى تظهر بشكل خاص إذا ما قارنا ماجاء به هذان المؤرخان مع ماجاءت به المصادر العربية فى وصف أحوال العراق فى الفترة التى تلت تلك الحملة مباشرة. ويجب عدم الأخذ بحرفية ماذكره متى الرهوى عن وصول القوات البيزنطية إلى مشارف بغداد ، كما يجب ألا نسلم بأن هذه القوات كانت على وشك الاستيلاء على مركز الخلافة العباسية . والمرجح بأن تزيمسكس لم يستطع أن يتقدم كثيرا جنوبا فى الطريق إلى بغداد . فإن المصادر التى تحدثت عن هذه الحملة لم تشر إلى وصول البيزنطيين إلى مدينة من المدن القريبة من بغداد . وذكر ليون الشماس نفسه أنه كان يتحتم على الجيش البيزنطى أن يعبر مساحات شاسعة من الصحراء حتى يتمكن من الوصول إلى بغداد ، كما بين أن البيزنطيين أصبحوا يعانون كذلك من نقص الميرة والعلف .(٦٠) وفى الوقت نفسه ، فلم يكن الاستيلاء على بغداد بالمسألة الهينة . لأن أى هجوم بيزنطى كبير على هذه العاصمة الاسلامية الهامة ، كان من المنتظر أن يؤدى إلى ردفعل بين قوى المسلمين المختلفة فى هذه النواحى وما يجاورها من بلاد ، للقيام بالجهاد فى سبيل الاسلام ضد الأعداء « الكفرة » . ولم يكن من السهل بالنسبة للامبراطور البيزنطى أن يواصل القتال فى مثل هذه الظروف . وهكذا نستطيع القول أن مسألة الاستيلاء على بغداد كانت بالنسبة للبيزنطيين وقتئذ بمثابة أمل ولكنه لم يكن سهل التحقيق .

ونحن ميل إلى الاعتقاد بأن هذه الحملة التى قام بها تزيمسكس كانت عبارة عن غارة ضخمة إتسمت بالسرعة فى عملياتها ، وأن هذا الامبراطور أهتم

---

٦٠ — أشار ليون الشماس إلى تلك الصحراء باسم Carmanatides انظر : شلومبرجيه ص ٢٠٩

أثناءها بتخريب ونهب ما أستطاع من الأراضى الزراعية المحيطة بالمــــدن والحصون الاسلامية ، والحصول على الأسرى ، تمهيدا لمحاولة الاستيــلاء عليها فى مايلى من حملات، وذلك طبقا للطريقة التقليدية التى إنبعها البيزنطيون فى حروبهم فى الشرق. أما ما ذكره متى الرهوى عن تعرض تزيمسكس لثلاثمائة بلد وحصن ونجاحه فى نهبها وتخريبها، فالملاحظ فى ذلك أن هذا المؤرخ ، أو غيره ، لم يحددوا أسماءها . والمرجح أنها كانت فى مرتبة القرى والحصون والبلاد الصغيرة. وإن المدينة الواحيدة ذات الأهمية التى نص بالأسم على أنها وقعت فى يد الامبراطور كانت مدينة نصيبين . هذا ولا يوجــد ما يدل على أن البيزنطيين تركوا حاميات عسكرية البــلاد التى غزوها أو أنهم إحتفظوا بها . ولـكن لابد وأن تزيمسكس نجح أثناء هذه الحملة فى فرض بعض الاتفاقيات على الأمراء المسلمين فى البلاد التى تقدمت فيها جيوشه مع إلزامهم بدفع الجزية . فقد جاء فى خطابه ما يفيد بذلك .(٦١) وكان هــذا التصرف متبعا عند المسلمين فى حالة عدم إستعدادهم أو عدم قدرتهم على مواجهة الخطر البيزنطى . ومن أهم الأمثـلة على ذلك إضطرار إمارة الموصل لدفــع الجزية للإمبراطور أثناء حملته السابقة (٩٧٢م) على ماسبق ذكره . ومن الجائز جدا أن الظروف التى كان يمـر بها أمير الموصل فى خريف ٩٧٤ م جعلته يسلم مرة أخرى بضروره دفع الجزية لتزيمكسس .(٦٢)

---

٦١ ـ متى الرهوى ص ١٣

٦٢ ـ الملاحظ أن بعض المؤرخين مثل شلومبرجيه ، عند وصف حملة تزيمسكس فى إقليم الجزيرة (٩٧٤ م) . قد اعتمدوا على يحيى الانطاكى إلا أن الرجــوع إلى هذا المصدر قد جاء فى غير محله إذ أن الأخبار التى أخذوها منه لا تخص حملة ٩٧٤م، وإنما هى فى الواقع خاصة بحملته الأولى التى قام بهـا على هذه المنطقة (٩٧٢ م) والتى نص عليها يحيى الأنطاكى نفسه أنها كانت فى ٣٦٢ هـ أنظر : شلومبرجيه ص ٢٥٥ ـ ص ٢٥٧ ، ص ٢٦١ ، يحيى الأنطاكى ص ١٣٩ ـ ص ١٤٠ ـ إرجع كذلك إلى ما سبق فى هذا البحث ص ١٢٩ ـ ص ١٣١

وفى تفسير إغفال المصادر العربية ذكر حملة ٩٧٤ م ، فهناك أكثر من عامل يمكن أن ندخله فى أعتبارنا . حقيقة أن المؤرخ مسكويه أدلى بالكثير من التفاصيل عن أحداث القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، الا أنه أهتم أساسيا بتتبع أحداث المسلمين فى بغداد والعراق ، ولم يعن كثيرا بذكر أخبار الروم أو الحروب بينهم وبين المسلمين . وفى نفس الوقت، فلا بد أن من وجهة نظر المسلمين ، لم يكن لهذه الحملة من الأهمية مانسبه اليها متى الرهوى أوليون الشماس اللذان بالغا فى وصفها . وحيث أن هذه الحملة لم تؤد إلى تغيير جذرى فى الأوضاع فى شمال العراق ، فربما نظر العرب اليها على أنها مجـــرد غارة كبيرة ، ولم يهتموا بذكرها خاصة بعد النصر الكبير الذى سبق وأحرزوه على حساب القوات البيزنطية (٩٧٣) وأسرهم لقائدها . وإن هذا الموقف يذكرنا بعض الشيء بموقف المؤرخين العرب من الحملات الصليبية التى قام بها غرب أوربا . ففى حين أن المؤرخين الغربيين المعاصرين علقوا أهمية كبرى على هذه الحملات ، وخصصوا لهـا مؤلفات عديدة حافلة بالتفاصيل ، لم يجعل المؤرخون العرب لها الا جانبا ثانويا فى مصنفاتهم التاريخية . ومن المسائل التى يمكن أن تساعدنا فى تفهم موقف المصادر العربية من حملة سنة ٩٧٤ م ، أن الأمـراء المسلمين كانوا منشغلين بالنزاع والقتال الداخلى الذى قام بينهم فى العـراق ، فى الوقت الذى جاءت فيه الحملة . ولم يلتفت هؤلاء الأمراء لمواجهـة الخطر البيزنطى والجهاد فى سبيل الاسلام ضد أعدائه وهـذه مسألة كانت غير مستساغة لدى الرأى العام الإسلامى فى الشرق . وعلى ذلك فلم يكن تسجيل أحداث هذا الهجوم البيزنطى وموقف الأمـــراء المسلمين منه ، مما يشرف تاريخ المسئولين المسلمين . ومن الجائز أن ذلك كان إحدى الأسباب التى جعلت المؤرخين العرب المعاصرين بما فيهم ابراهيم بن هلال الصابى الذى كان يعمل وقتئـذ فى ديوان الإنشاء فى بغداد ، يحجمون عن ذكر هذه الحملة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الامبراطور تزيمسكس أنهى عملياته العسكرية في إقليم الجزيرة مع دخول فصل الشتاء (٩٧٤ م) وأرتد بجيشه شمالا . ورغبة منه في الاستعداد للحملة التالية التي عزم على القيام بها في الشرق الأدنى في العام التالي، فإنه ترك معظم جيشه في القواعد الأمامية للدولة البيزنطية في الشرق ، أي طرسوس وأنطاكية . وطبقا لرواية المؤرخ ليون الشماس ، فإن تزيمسكس رجع إلى عاصمة بلاده ليمضي بها فصل الشتاء . ويذكر نفس المؤرخ أن الامبراطور دخلها دخول الظافرين للمرة الثانية . وكانت المرة الأولى بعد إنتصاراته الكبرى على الروس . ووضع تزيمسكس في مقدمة الموكب الذي دخل به القسطنطينية بعد رجوعه من الشرق ، ثلاثة ملايين قطعة من العملة الذهبية والفضية ، محملة على الدواب ، والعديد من الأسرى والغنائم الأخرى التي حصل عليها أثناء حملته على شمال العراق.(٦٣)

---

٦٣ - شلومبرجيه ص ٢٦٢

الفصل السابع

حملة تزيمسكس على الشام (٩٧٥ م)

ـ مصادر دراسة هذه الحملة ـ اعتماد تزيمسكس على مخالفين من المسلمين ـ سير الحملة من انطاكية الى دمشق ـ اتفاقية دمشق ـ تزيمسكس ومحاولة إسترجاع فلسطين ـ الاستيلاء على المراكز الساحلية ـ سير الحملة من صيدا الى انطاكية .

كانت قضية إسترجاع الشام وإستعادة مدينة بيت المقـدس قد أصبحت هدفاً رئيسيا فى السياسة البيزنطية الخارجية فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . وبذل نقفور فوقاس جهدا له أهميته لتحقيق هذه الغاية ، إلا أن موته المفاجئ لم يتح له الفرصة لمواصلة فتوحاته فى هذه الأنحاء . وآلت إلى تزيمسكس مسئولية إنجاز هذا العمل الـكبير . وهكذا فإن هذا الامبراطور عندما قام بحملته الـكبيرة على الشام سنة ٩٧٥ م ، إنما كان يهـدف لتحقيق هذا الهدف البيزنطى الهام .

ولم تبين المصادر الخاصة بهذه الحملة الأسباب التى جعلت تزيمسكس يغير من إتجاه حملاته ضد المسلمين فى هذه المرة ، فيتوجه إلى الاراضى المسيحية المقدسة بدلا من إقليم الجزيرة الذى أرسل اليه حملاته الثلاث السابقـة . ولـكن نرى أن ازدياد توسع الفاطميين فى الشام كان له أثرا كبيرا فى جعل تزيمسكس يتخذ هذا القرار . فان هذا الامبراطور كان يهمه بطبيعة الحال أن يبادر بمد النفوذ والحـكم البيزنطى الى الشام ، قبل أن يتمكن الفاطميون من توطيد نفوذهم بها وبناء حاجز فاطمى قوى ، يحول دون تقدم البيزنطيين . ومهما يـكن من شىء ، فقد قام تزيمسكس بحملته الشامية فى السنة المذكورة

وهى وإن لم تدم إلا بضعة شهور ، حيث إنها بدأت فى شهر أبريل وإنتهت فى شهر سبتمبر ، إلا أنها كانت لها أهميتها فى تاريخ العلاقات بين البيزنطيين والأراضى المسيحية المقدسة .

وللأسف فإن المعلومات التى تركتها المصادر التاريخية عن هذه الحملة الهامة قليلة وغير وافية . ونحن مضطرون لأن نعتمد فى معالجة تاريخها على القليل الذى جاءت به هذه المصادر . فان المؤرخ البيزنطى المعاصر لاحداثها وهو ليون الشماس لم يكتب عنها إلا أخبار مقتضبة للغاية . هذا ولا نجد عنها إلا سطور قليلة فى المصادر البيزنطية الأخرى المتأخرة ، والتى أشارت اليها مثل سكيليتزيس Skylitzes وسيدرينوس Cedrenus وجليكاز Glycas (١) . وفيما عدا ذلك فعلينا أن نعتمد على ما تضمنته المصادر العربية وهو ليس بالكثير فى تفاصيله (٢) ، وكذلك الخطاب الذى أرسله الامبراطور تزيمسكس إلى الملك أشوط الثالث الأرمينى . إلا أن هذا الخطاب ، بالرغم من كونه وثيقة معاصرة ، فلا بد من إلتزام الحرص فى الاستناد إليه نظرا لما جاء فى بعض نصوصه من مبالغة .

بدأت حملة تزيمسكس على الشام بظهوره فى شمالها على رأس جيش كبير. والثابت أنه منذ أول حملته وجد فى خدمته محالفون Foederati من المسلمين عاونوه فى حروبه فى الأراضى المقدسة على النحو الذى قامت به

---

١ — أنظر شلومبرجيه ص ٢٨١

٢ — لاحظ أن إبن الأثير بالرغم من إهتمامه بتتبع أخبار الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى المشرق ، فانه لم يشر إلى حملة تزيمسكس على الشام الا بشكل سريع . ولم يأت فى تاريخه بخصوصها إلا ما يلى : « وسار تزيمسكس إلى أعمال الشام فاوغل فيها ، ونال من المسلمين ، وبلغ إلى طرابلس ، فامتنع عليه اهلها فحصرهم » . ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٥

قبائل بنى حبيب فى شمال العراق . ومما يوضح ذلك ما ذكره إبن القلانسى حيث كتب : « ودعت أبابكر بن الزيات الضرورة الى مصالحته – تزيمسكس – والدخول فى طاعته والمسير فى عدة وافرة من أهل طرسوس والثغـور فى خدمته ، وفعلت عدة بطون من العرب مثل ذلك . »[٣] وسوف نرى فيما بعد، كيف كان أبو بكر بن الزيات حلقة إتصال هامة بين البيزنطيين والمسلمين . وكان لهذه القبائل العربية أثر هام فى سير الأحـداث ومساعدة البيزنطيين ، وذلك لما كان لها من خبرة بشئون المسلمين وطرق قتالهم .

تقدم الجيش البيزنطى من أنطاكية ، القـاعدة الرئيسية للبيزنطيين فى الشام إذ ذاك ، واتجه جنوبا متخذا طريق وادى نهر العاصى – الأورنت – [٤] حتى وصل إلى مدينة حمص . وكانت هذه المدينة جزءاً من إمارة حلب الحمدانية . وكان المسئول عنها وقتئذ سعد الدولة الحمـدانى الذى إضطـرته الظروف للاقامة بعيدا عن حلب . ويذكر المؤرخ كمال الدين بن العديم ، أن قرغويه وبكجور اللذين أغتصبا حكم حلب كانا قد راسلا سعد الدولة ليؤدى إلى البيزنطيين مال الهدنة الذى كان مقررا على البلاد التى بيده بما فيها حمص بمقتضى الإتفاقية بين البيزنطيين والمسئولين عن حلب ، إلا أنه رفض[٥] .

---

٣ – ابن القلانسى ص ١٢ ، انظر كذلك سبط بن الجوزى ص ٥٥

٤ – قال ناصر خسرو فى تفسير تسمية هذا النهر بالعاصى : « ويسمى هذا النهر بالعاصى لأنه يذهب إلى بلاد الروم ، فهو يخرج من بلاد الاسلام ليدخل بلاد الكفر » . إلا أن إسم العاصى ما هو إلا تحريف عربى للاسم اليونانى القديم Axios الذى جاء أصلا من التسمية السريانية القديمة للنهر ، وكانت بمعنى سيل الماء السريع . هذا وقـد أطلق العرب على هذا النهر إسم « النهر المقلوب » نظرا لاتجاه مجراه من الجنوب إلى الشمال الذى اعتبروه امرا غير طبيعى – أنظر : سفرنامه ص ١٢ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٨ – ص ١١٩ ، كانار ص ٢٠٠

٥ – ابن العديم ج ١ ص ١٦٩

وأدى ذلك الى هجوم تزيمسكس على المدينة وإقتحامه لهـا (٦). ولم تشر المصادر إلى ظهور سعد الدولة الحمدانى ومحاربته للبيزنطيين . ومن الجـائز أنه هجر المدينة على أثر سماعه بتقدم البيزنطيين ولجأ إلى الصحراء أو إلى مركز آخر من المراكز التى كانت لاتزال فى يده .

واتجه تزيمسكس بعد ذلك إلى بعلبك التىأشار إلىمالها منأهمية كل من إبن حوقل والامبراطور تزيمسكس نفسه . فقد وصفها إبنحوقلقائلا: « وهى مدينة علىجبل وعامة أبنيتها من حجـارة ، قد بنيت على أساطين شاهقة ، وليس بأرض الشام أبنية حجارة أعجب ولا أكبر منهـا — وهى مدينة كثيرة الخيرات والغلات والفواكهالجيدة،بينةالخصبوالرخص.» (٧) أما تزيمسكس فسجل ملاحظاته عنها فى خطابه المذكور : « إنهـا مدينـة شهيرة وعظيمة وكبيرة ومترفة كما أنها ممونة تموينا كاملا »(٨). ولم توضح المصادر من كان له حكم بعلبك وقت هجوم تزيمسكسعليها . ولـكن نرجح أنها كـانت فى أيدى القوات الفاطمية (٩). وقد واجه الامبراطورالبيزنطى مقاومة شديدة من المدافعين عن المدينة وأضطر لمحاصرتها ، إلا أن هـذه للقاومة لم تطل وتمكن من الاستيلاء عليها فى ٢٩ مايو سنة ٩٧٥م(منتصف رمضان ٣٦٤ هـ). ويذكر تزيمسكس أنه حصل من هذه المدينـة على عدد

---

٦ ـ ابن القلانسى ص ١٢ ، سبط بن الجوزى ص ٥٥ ، متى الرهوى ص١٤

٧ ـ ابن حوقل ج ١ ص ١٧٥

٨ ـ متى الرهوى ص ١٤

٩ ـ ذكر يحيى الأنطـاكى أن تزيمسكس أسر عند فتحه لبعلبك قائدا يعرف باسم جسين بن الصمصام . إلا أن هذا الاسم لم يظهر فى أحداث هذا العصر إلا هذه المرة . والمرجـح أن حسين بن الصمصام الذى ذكره يحيى الأنطاكى لم يكن إلا تحريفا لاسم القائد الفاطمى جيش بن الصمصامة — انظر : يحيى الأنطاكى ص١٤٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٣

كبير من الأسرى والكثير من الذهب والفضة وكذلك عدد ضخم من الماشية (١٠).

وبعد أن إستولى على بعلبك ، واصل تزيمسكس طريقه جنوبا قاصدا دمشق، تلك المدينة الهامة فى بلاد الشام، والتى كانت عاصمة الدولة العربية فى عهد الامويين، والتى تعتبر « أجل مدينة بالشام » على حد وصف إبن حوقل.(١١) ولكن على عكس ما ينتظر لأول وهله ، لم تقاوم دمشق القوات البيزنطية، والسبب فى ذلك يرجع إلى إضطراب الأحداث السياسية الذى مرت بها إمارتها فى الفترة الأخيرة التى سبقت مباشرة ظهور تزيمسكس . وكان القائد التركى أفتكين المغامر ، والمعروف فى المصادر البيزنطية باسم Phatgan ، قد دخل هذه المدينة وقبض على زمام السلطة بها بعد طرد الوالى الفاطمى منها فى ١٤ مايو ٩٧٥م ، أى فى الوقت الذى كان تزيمسكس بدأ فيه هجومه على الشام . ولم تكن مدة الأيام المعدودة التى حكمها ، بالتى تمكنه من إتخاذ ما يلزم من إستعدادات لمواجهة القوات البيزنطية المتفوقة فى أعدادها وعدتها . كما أنه اذا أراد المقاومة ، كان لايستطيع الاعتماد على مساعدة من جانب البويهيين فى العراق الذين كانت لهم مشاكلهم الخاصة ، فضلا عن عدم استطاعته الاطمئنان اليهم . كما كان لايستطيع طلب المساعدة من الفاطميين الذين كان لا يأمن جانبهم . فكان يدرك جيدا أن ذلك أمراً محفوفا بالمخاطر بالنسبة له ويعرضه لفقد إمارته الجديدة . وقد أدرك الدماشقة كذلك إضطرارهم للاعتماد على الفاطميين إذا ما أرادوا مقاومة البيزنطيين . ولم تكن ذكريات الإتصالات الأولى بين الفاطميين والدماشقة وما عانى منه

---

١٠ ـ مق الرهوى ص ١٤ ، إبن القلانسى ص ١٢

١١ ـ إبن حوقل ج ١ ص ١٧٤

الأخيرون بالتى تشجع على الاتصال بهم من جديد . كما كان الخلاف المذهبى بين أهل دمشق السنيين والفاطميين الشيعة ، عقبة أخرى تحول دون التقارب بين الطرفين حتى ولو كان ذلك من أجل الدفاع ضد العدو « الكافر ».

وهكذا كان أفتكين وأهل دمشق أميل للتفاهم مع البيزنطيين. وقام أبو بكر بن الزيات ، عميل البيزنطيين وحليفهم ، بدور الوساطة بين الطرفين البيزنطى والدمشقى ، وعمد للتأثير على الدماشقة وإقناعهم بأن مصلحتهم تقتضى عقد إتفاقية مع الامبراطور تزيمسكس . فقد كتب الى أهل دمشق يرهبهم من قوة الروم ويدعوهم إلى التسليم قائلا : « لا طاقة لكم بصاحب الروم ، والمصلحة أن تدخلوا فى طاعته وتقرروا عليكم مالا . »(١٢) ولقد رحب أفتكين بهذه الوساطة التى قام بها إبن الزيات ، ووافقه أهل دمشق على رأيه فى التفاوض مع البيزنطيين . وإنتهت المفاوضات بعقد اتفاقية مع الامبراطور تزيمسكس فى النصف الاول من شهر يونيو ٩٧٥ م (١٣) . وقد فرض تزيمسكس على أفتكين وأعيان دمشق أن يكتبوا عهداً يسجل إلتزاماتهم التى نصت عليها الإتفاقية مصحوباً بتوقيعاتهم ، كما أخذ جماعة منهم رهينة عنده (١٤ .

ولم يصل إلى أيدينا النص الكامل لاتفاقية دمشق ، ولكن أمدتنا

---

١٢ - سبط ابن الجوزى ، ابن القلانسى ص ١٢ ص ١٣

١٣ ـ ذكر يحيى الانطاكى أن أفتكين ، عقب توقيع الاتفاقية ذهب لمقابلة تزيمسكس وأن الأول قد « أفطر عنده تلك الليلة » وفى هذا إشارة ان ذلك كان فى شهر رمضان . وحيث ان إستيلاء تزيمسكس على بعلبك كان فى منتصف رمضان ٣٦٤ (٢٩ مايو ٩٧٥) فعلى ذلك تكون اتفاقية دمشق قد تمت فى النصف الأول من شهر يونيو ٩٧٥ م — (يحيى الانطاكى ص ١٤٦)

١٤ ـ يحيى الانطاكى ص ١٤٥ ، ابن القلانسى ص ١٣

المصادر التاريخية بمعلومات تساعد فى إلقاء الضوء على بعض جوانب هـذه الاتفاقية . وتذكر المصادر العربية أن الاتفاقية إشترطت طاعة أهل دمشق للامبراطور البيزنطى وتعهدهم بقدر معين من المال يدفعونه له سنوياً ، وفى مقابل ذلك تعهـد لهم الامبراطور بالأمان على أنفسهم وأموالهـم ، والدفاع عنهم ضد من يتهددهم من الأعداء . ولا بد أن هذا الشرط الاخير كان المقصود به الفاطميين . فقد ذكر يحيى الانطاكى أن تزيمسكس « قاطع أهل دمشق على ستين الف دينار يحملونها اليـــه كل عام . » (١٥) كما روى ابن القلانسى عن الظروف التى أحاطت بعقد هذه الاتفاقية : « وردت كتب الفتـكين وأهل دمشق بالانقياد الملك إلى مايرومه منهم وبرسم حمله اليه من الخراج عن بلدهم ، وسألوا أمانه وحسن الرأفة بهم والمحاماة عنهم . فقال : قـد قبلت طاعتهم وأمرت بإيمانهم على نفوسهم وأموالهـم ورضيت منهم بالخراج (١٦) ».

هذا وقد كتب عن الاتفاقية المذكورة كل من ليـون الشماس ومتى الرهوى. وكانت أشارة ليون إليها سريعة موجزة ، ولـكن لها أهميتها . فقد قال أن الامبراطور فرض الخراج على أهالى دمشق وجعلهم أتباعا

---

١٥ ــ يحيى الانطاكى ص ١٤٥

١٦ ــ ابن القلانسى ص ١٣
اختلفت المصادر فى تقدير المال الذى تعهدت دمشق بدفعه لتزيمسكس . فقد حدده يحيى الأنطاكى بستين الف دينار ، وذكر ابن القلانسى انه كان مائة الف درهم ، أما سبط ابن الجوزى فقد قال انه ثلاثمائة الف درهم . وجاء فى خطاب تزيمسكس انه كان أربعين الفا من التاهيجانات Tahegans . والتاهيجان يعادل تقريبا الدينار عنـد المسلمين . وأصل الكلمة فارسى وهو « دهكانى » وكان هنـاك نوعان من التاهيجان ، احدهما من الذهب والآخر من الفضة ــ انظر يحيى الأنطاكى ص ١٤٥ ، ابن القلانسى ص ١٣ ، سبط بن الجوزى ص ٥٥ . متى الرهوى ص ١٥

له . (١٧) هذا وجاء فى خطاب تزيمسكس من التفاصيل فى المعلومات أكثر مما جاء فى المصادر الأخرى التى تحدثت عن الإتفاقية . فقد كتب هـذا الامبراطور : « وقدم الأهالى الينا رسالة يتعهدون فيهـا بأن يظلوا دواما وجيلا بعد جيل على طاعتنا . ونصبنا لحـكم دمشق رجلا جليلا من بغداد يسمى التركى ـ أفتـكين ـ وكان قد أتى بصحبة خمسمائة فارس ليقدم لنـا الولاء ، فضلا عن أنه إعتنق الدين المسيحى (١٨). وكان هـذا الرجـل قد اعترف بسيادتنا . وأدى جميع هؤلاء اليمين قاطعين على أنفسهم العهد بأن يدفعوا الخراج دائما ، وصاحوا هاتفين : المجدلجلالتكم ! . كما أنهم تعهدوا فى الوقت ذاته بمحاربة أعدائنا . وبمقتضى هـذه الشروط ، إرتضينـا أن ندعمهم وشأنهم »(١٩).

ويفهم من هذا النص الذى جاء فى رسالة تزيمسكس أن الامبراطـور جعل من دمشق إمارة تابعة للسياده البيزنطية . فان النص المذكور يبين أن الامبراطور هو الذى أقر إستمرار أفتـكين فى حكم دمشق ، وأن هذا الأخير قد حلف له يمين الولاء ، وأن أهالى دمشق تعهدوا بطاعة الامبراطور والقيام بالخدمة العسكرية تحت إمرته ضد أعدائه . والواقع أن كل هـذه الشروط مضافا اليها التعهد بدفع القدر المنصوص عليه من الخراج السنوى ، يعتبر من المقومات الأساسية لنظام السيادة الإقطاعية فى هـذا العصر . وإن ما جاء

---

١٧ ـ انظر شلومبرجيه ص ٢٩٧

١٨ - لم يأت فى أى مصدر آخر مايشير إلى اعتناق افتكين للمسيحية . ولا نستطيع التسليم برواية تزيمسكس فى ذلك . فان عملا مثل هذا كان لا بد وأن يعرض مركز افتكين بين المسلمين للخطر . وربما كان السبب الذى جعل تزيمسكس يكتب ذلك هو ما فعله افتكين من المبالغة فى اظهار خضوعه وولائه ومحاولة التقرب إلى الامبراطور .

١٩ — متى الرهوى ص ١٥

فى النص المذكور الذى تركه تزيمسكس يشبه الشروط التى فرضها البيزنطيون على إمارة حلب قبل ذلك بسنوات معدودة ، والتى جعلت منها إمارة تابعة للسيادة البيزنطية .

هذا وقد ذهب تزيمسكس بعد الإتفاق مع أهالى دمشق إلى المدينة لمشاهدتها وأقام معسكره بظاهرها (٢٠) . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يزورها فيها أحد أباطرة القسطنطينية منذ هزيمة هرقل وطرد البيزنطيين من الشام فى القرن السابع الميلادى . وأثناء إقامة تزيمسكس عند دمشق ، إستغل أفتكين الفرصة للتقرب اليه وأمعن فى مداهنته والعمل على كسب رضاه ، عاملا بنصيحة ابن الزيات ، الذى أوصاه بالتذلل للامبراطور والمبالغة فى تعظيمه . كما استغل أفتكين ماالديه من مهارة عسكرية ليقوم باستعراضات للتأثير على تزيمسكس ، الذى كان فارسا يقدر براعة الفرسان . وأمدتنا بعض المصادر العربية بصورة طريفة للعلاقات بين تزيمسكس وأفتكين من أهمها ماجاء فى تاريخ سبط بن الجوزى حيث قال : « .. وألفتكين يخرج اليه كل يوم ويسايره ويلعب بين يديه بآلة الحرب ، فقال إبن الشمشقيق لابن الزيات: ما رأيت أحسن من هذا الغلام وقد أعجبنى وأحببته . وكان يركب فى المماليك فى الزى الاسلامى ويتطاعنون بين يديه ويرمون بالنشاب ، فعرف إبن الزيات الفتكين قول الرومى ، فترجل وقبل الأرض بين يديه ، فقال الرومى لإبن الزيات : عرفه أننى وهبت له الخراج — ثم أن الفتكين قد ترجل ثانيا وقبل الأرض بين يديه ، وبعث اليه بالفرس الذى كان تحته والسلاح ، وكان — تزيمسكس — قد طلبه من ابن الزيات ، وبعث معه عشرين فرسا

---

٢٠ — ابن القلانسى ص ١٣

بتجافيفها (٢١) وعدة ورماحا وشيئا كبيرا من أصناف الثياب والطيب والطرف فرد الجميع وأخذ الفرس والسلاح . وبعث له على الهدية أثواب ديباج كثيرة وبغلات وغيرها (٢٢) ». والواقع أن هذا التقارب كان يخدم مصالح كل من تزيمسكس وأفتكين الخاصة . فبالنسبة للأول كان من صالحه أن يحكم على رأس دمشق أمير مسلم موال له وعلى إستعداد للخدمة تحت إمرته ، وكان ذلك من الأساليب التى أعتمد عليها البيزنطيون فى التوسع وفرض نفوذهم الخارجى فى الجبهات المختلفة . وبالنسبة للآخر أى أفتكين ، فإنه رأى أن الحماية البيزنطية سوف تساعده فى الاحتفاظ بإمارته والوقوف ضد الفاطميين .

ولقد جاء فى خطاب تزيمسكس ما يؤكد أنه بعد إخضاعه لدمشق ، واصل طريقه جنوبا ومد عملياته العسكرية إلى فلسطين ، وأنه توغل فيها للاستيلاء عليها واسترداد بيت المقدس . وطبقا لهذا المصدر ، أتجه الامبراطور إلى مدينة طبرية الواقعة فى الطريق إلى بيت المقدس ، عازما على محاصرتها . إلا أن الأمر لم يستلزم القتال إذ سلمت له المدينة . وقال الامبراطور فى ذلك: «إن الاهالى قد أتوا ليعلنوا لنا خضوعهم وليحملوا الينا مثل سكان دمشق كثيرا من الهدايا ومقدارا من المال يبلغ ثلاثين ألفا من التاهيجانات فضلا عن أشياء أخرى . وطلبوا الينا أن ننصب عليهم قائدا من لدينا ، وقدموا الينا وثيقة تعهدوا فيها بأن يظلوا مخلصين لنا ، وبأن يداوموا على دفع الجزية — عندئذ تركناهم أحرارا من نير الاستعباد» . كما يذكر تزيمسكس

---

٢١ — التجافيف : للفرد تجفاف = آلة للحرب يتقى بها كالدرع ، للفرس والانسان

٢٢ — سبط بن الجوزى الورقة ٥٥ — الورقة ٥٦ ، انظر كذلك ابن القلانسى ص ٣١ — ص ١٤

أن مـدينة النـاصرة سلمت له . ويضيف بعد ذلك قوله : « وحين توقفنا أتى الينا من الرملة والقدس أناس يلتمسون رعاية جلالتنا ويتضرعون الينا أن نرحمهم . ولقد طلبوا الينا ان ننصب عليهم حاكما ، وإعترفوا بتبعيتهم لنا وإرتضوا الخضوع لحـكمنا ، فمنحناهم ما كانوا يتمنون . » كما جاء فى هذا الخطاب أن تزيمسكس تمكن من إخضاع بيسان وعكا وقيساريه ، وأنه عين حكاما عسكريين على جميع الأجناد التى اخضعها ، ويختتم حديثه عن عملياته فى فلسطين بقوله : « ولو أن هؤلاء الافريقيين الملاعين ـ الفاطميين ـ الذين إستقروا هناك لم يلجأوا إلى قلاع الساحل ، لـكنا قد ذهبنا بمعونة الرب إلى مدينة اورشليم وصلينا فى هذه الأماكن المقدسة ». (٢٣) وهذا هو أهم ما ذكره تزيمسكس شخصيا عن أعماله العسكرية فى فلسطين .

ولـكن لابد من التريث فى هذا الوضع لتقييم مارواه هذا الامبراطور عن إنجازاته أثناء حملته على فلسطين . فإن المصدر الوحيد الذى تحدث عن هذه الحملة وما حققه الامبراطور أثناءها ، هو خطابه المذكور . وقد سلم عدد من المؤرخين المحدثين بحرفية ماجاء فى هذا المصدر مثل شلومبرجيه (٢٤). بل لقد ذهب هذا المؤرخ الى حد إعتبار ذلك الجزء من خطاب تزيمسكس الخاص بحملته على فلسطين أنفس أجزاء هذا الخطاب ، على أساس أن المصادر الأخرى لم تتبع أخبار هذه الحملة . (٢٥) ولـكن رأت طائفة أخرى من

---

٢٣ — متى الرهوى ص ١٥ — ص ١٦

٢٤ — شلومبرجية ص ٣٠٥ ـ ومن الذين شاركوا شلومبرجيه فى هذا الرأى جروسيه وأسد رستم ـ انظر :

Grousset, Histoire des Croisades, vol I. pp XVIII XIX:

اسد رستم : الروم ج ٢ ص ٤٩

٢٥ ـ شلومبرجيه ص ٣٠٤

المـؤرخين المحـدثين أن الخطاب يغلب عليه طـابع المبالغة فى مجمـوعه ، وبالذات عند التحدث عن حملة فلسطين . ومن أهم أفراد هذه الطائفة الأخيرة فاسيلييف وأسترو جورسكى . (٢٦) أما المـــؤرخ بارثولد Barthold ، فهو يرى أن الرواية الـتى ذكرهـا تزيمسكس عن غزوه لفلسطين كانت بأكملها من نسيج الخيال. (٢٧) والواقع أنه ليس من المتيسر أن نحدد بدقة نتائج حملة تزيمسكس فى فلسطين . وعندما نحاول عمل ذلك يجب أن ندخل فى اعتبارنا أمرين هامين : الأول ، وهو يختص بقوة الفاطميين العسكرية فى هذه المنطقة . فبالرغم من أن الفاطميين كانوا حتى هذه الفترة لا يزالوا يضعون الأساس لقيام حكمهم فى الشام ، فمن الصعب أن نتصور أن قواتهم الموجودة فى مدن فلسطين والتى تتميز على غيرها من مدن الشام بقربها من مصر التى أصبحت قاعدة لملكهم ، تسلم للامبراطور بسهولة على النحو الذى ذكره . والأمر الآخر وهو أن المصادر العربية التى تحدثت عن حملة تزيمسكس على الشام لم تذكر بأى حال من الاحوال أن الامبراطور تقدم جنوبا أبعد من دمشق . بل لقد روت هذه المصادر أنه بعد استيلائه على هذه المدينة اتجه غربا الى ساحل البحر الابيض للاستيلاء على المراكز الساحليـة حيث بدأ بمنازلة صيدا وبيروت ، ومنها أتخذ طريقه الى الشمال (٢٨) وبنـاء على ذلك فاننا

---

(26) Vasiliev, Byz. Emp., p. 310; Ostrogorsky, Hist. Byz. State: pp. 263 - 64.

(27) Barthold, Transactions of the Oriental College, I (1925), 466-67.

٢٨ — ابن القلانسى ص ١٤ ، سبط بن الجوزى ورقة ٥٥ ـ ورقة ٥٦ ، يحيى الأنطاكى ص ١٤٦

تميل للاعتقاد بأن تزيمسكس قد جنح المبالغة فى وصف نتائج حملتـه على فلسطين ، وأنه لم يتقدم فيها مسافات بعيدة ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملة لم تؤد إلى استقرار حكم البيزنطيين أو قيام نفـوذهم فى فلسطين .

كان تزيمسكس أثناء تقدمه جنوبا فى البلاد الشامية قد فعل مثلما فعله الصليبيون الغربيون من بعده ، بترك المدن والمراكز الساحليـة دون الاستيلاء عليها . وكانت حامياتها من المسلمين قد لاذت وإعتصمت بها . ولا بد أن هذا الامبراطور تبين خطورة مواصلة عملياته فى الجنوب قبل أن يقوم بإخضاع المراكز الساحلية ، لما فى ذلك من تعريض لخط مواصلاته للخطر ، وكذلك حتى يؤمن مؤخرة جيشه من الهجوم الذى قد تقوم به قوات المسلمين . وعلى ذلك نجده يتجه نحو الساحل ويعمل على إخضاع المدن والمراكز التى وقعت فى طريق عودته إلى الشمال .

ولقد بدأ تزيمسكس بمنازلة صيدا.(٢٩) وليس من المؤكد من المسلمين كان يحكم هذه المدينة وقتئذ. وعلى كل حال فعلى أثر شعور أهلها بعدم قدرتهم على المقاومة ، أرسـلوا وفدا من شيوخهم يرأسه رجل يعرف بأبى الفتـح بن الشيح ، لطلب الصلح . وذكر ابن القلانسى أن هؤلاء الشيوخ « قرروا معه — تزيمسكس — أمرهم على مال أعطوه إياه ، وهدية حمـلوها اليه وانصرف

---

٢٩ - يبدو أن تزيمسكس قد أخطأ فى ترتيب الحوادث عندما ذكر أنه أستولى على بيروت ثم صيدا — فهو حسب روايته ، كان فى الأراضى الفلسطينية ثم اتجه شمالا ، وتقع صيدا فى طريقه قبل بيروت . وقد ذكر ابن القلانسى أن الامبراطور نازل صيدا واستولى عليها قبل بيروت — انظر : مق الرهوى ص ١٧ ، ابن القلانسى ص ١٤ ، سبط ابن الجوزى ص ٥٦

عنهم عن سلم ومواعدة». (٣٠) هذا وجـاء فى خطاب تزيمسكس فى هذا الصدد أن هؤلاء الشيوخ: «أقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتمسين أن يصيروا رعايا لنا وعبيدنا الخاضعين على الدوام. وإزاء هذه التأكيدات، إرتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم، وحتمنا عليهم دفـع جزية، وفرضنا عليهم حكاماً.» (٣١)

واتجـه تزيمسكس بعد ذلك إلى بيروت للإستيلاء عليها وكانت لهذه المدينة أهميتها فى هذا العصر. ولقـد كتب عنهـا تزيمسكس: «هذه المدينة العظيمة، ذات الشهرة الذائعة، والتى تحميهـا أسوار قوية.» (٣٢) وكانت تتولى الدفاع عن بيروت قـوة فاطمية تحت إمرة نصر الخادم الذى ذكره متى الرهوى باسم نصيرى. ونجح تزيمسكس فى فتـح المدينة عنوة، ونهبها وسبى الكثيرين من أهلهـا، كما أسر ألفـا من الجنود الفاطميين وعددا من قوادهم وكذلك نصر الخادم نفسه. ويضيف خطاب تزيمسكس أنه عهـد بحكم المـدينة لحاكم إختاره وكانت مدينة جبيـل الحصينة الهدف التـالى للامبراطور. وبالرغم من إمتناع حاميتها فقـد تمكن من إخضاعها بشروط مماثلة للشروط التى فرضت فى حالة بيروت. (٣٣)

---

٣٠ ـ ابن القلانسى ص ١٤

٣١ ـ متى الرهوى ص ١٧

٣٢ ـ المرجـع السابق ص ١٧ ـ راجع وصف ناصر خسرو لمـدينة بيروت، سفر نامه ص ١٤

٣٣ ـ يحيى الأنطاكى ص ١٤٦، إبن القلانسى ص ١٤، سبط بن الجوزى ص ٥٦، متى الرهوى ص ١٧

وقابل تزيمسكس فى طريقه إلى الشمال ، بعد إخضاع جبيل ، عقبة كبرى ممثلة فى طرابلس . ولم يكن إخضاع هذه المدينة أمراً هينا بفضل مواردها الطبيعية ومقوماتها وحصانتها وكذلك الجهود التى قام بها المدافعون عنها . وأشار الرحالة الجغرافى المعاصر المقدسى إلى حصانة طرابلس ، كما تحدث عنها ناصر خسرو الذى زارها وترك وصفا تفصيليا لأهم معالمها . (٣٤) وقد وجدت بهـا قـوة من الجيش الفاطمى للدفاع عنها . (٣٥) والظاهر أن انتشار المذهب الشيعى بهذه المدينة ساعد على إيجاد نوع من التقارب والتعاون بين أهلهـا والقـوات الفاطمية ، على عـكس ما حـدث فى دمشـق بين أهلها السنيين والفاطميين الشيعة . (٣٦) وقد تعاون أهل طرابلس مـع القـوات الفاطمية فى الوقوف فى وجه الهجوم البيزنطى : ويشير خطاب تزيمسكس إلى حـدوث بعض الالتحـامات بين طـلائع الجيش البيزنطى والفاطميين قبل وصول تزيمسكس إلى المدينة ، وانتصار البيزنطيين على قوة تبلغ الألفين من المغاربة . وحاصر تزيمسكس المدينة نحـو أربعين يوما ، إشتد أثنائها القتال بينه وبين المحاصرين . ولما تبين صعوبة الإستيلاء عليهـا قام بتخريب المناطق الزراعية الغنية المحيطة بها وقال تزيمسكس فى ذلك : « ولقد قلبنا إقليم طرابلس كله رأسا على عقب ، مخربين تخريبا كامـلا

---

٣٤ ــ كانت زيارة ناصر خسرو لطرابلس فى فبراير ١٠٤٧ ــ انظر : سفرنامه ص ١٣ ، المقدسى ص ١٦٠ .

٣٥ ــ لم تحدد المصادر العربية تبعية طرابلس للفاطميين وقتئذ ، إلا أن تزيمسكس قد ذكر أن قوات من « الأفريقيين » أى الفاطميين ، هم الذين قاموا بمهمة الدفاع عن المدينة ــ انظر : متى الرهوى ص ١٧ ــ ص ١٨

٣٦ ــ يرى جب Gibb ، أن مدينة طرابلس كانت القاعدة الرئيسية للفاطميين فى الشام مدة قيام النفوذ الفاطمى فى هذه البلاد . انظر :

Gibb, « The Caliphate & the Arab States », (History of the Crusades · Ed. Setton), vol. I, p. 89.

الكروم وأشجار الزيتون والحدائق ، وأينما مررنا كنا نشيم الدمار والحزن(٣٧)» ولا بد أن تزيمسكس فعل ذلك إنتقاما من أهل المدينة لمقاومتهم إياه ، وكذلك لإضعاف مواردهم وقوتهم تمهيدا لمحاصرتهم عند قيامه بحملة تالية . وقرر تزيمسكس فى النهاية رفع الحصار عن طرابلس . ويسجل ذلك فشله فى الإستيلاء على تلك المدينة التى نجحت فى إثبات مناعتها وشدة مقاومتها أمام القوات البيزنطية . والواقع أن البيزنطيين لم ينجحوا أبدا فى اخضاع هذا المركز الإسلامى الهـــام وإسترداده من المسلمين . كما أن الصليبيين الغربيين الذين أتوا إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، لم يستطيعوا بدورهم أن يستولوا على طرابلس إلا بعد مضى نحو عشر سنوات من وقوع بيت المقدس فى أيديهم وإستقرارهم فى الشرق .

وهكذا أنسحبت قوات تزيمسكس من أمام طرابلس بعد أن إستعصت عليه ، وقرر أن يتجه شمالا إلى أنطاكية . وإستولى فى طريقة على بعض المراكز الساحلية والحصون الداخلية . وتذكر المصادر أنه استولى بلنياس وجبلة Balanaea الواقعتين على الساحل . (٣٨) وإلى الداخل نجح البيزنطيون فى الاستيلاء على حصنى برزويه وصهيون ، اللذين كانا خاضعين لسلطة الأمير الحمدانى سعد الدولة ، وكان يليهما المملوك الحمدانى رقطاش غلام سيف الدولة . (٣٩) ولا تشير المصادر لظهور رقطاش هذا على مسرح

---

٣٧ — متى الرهوى ص ١٨ ، ابن القلانسى ص ١٤، يحيى الانطاكى ص ١٤٦، سبط بن الجوزى ص ٥٦

٣٨ — تقع بلنياس على الساحل، بين مراقية وجبلة — أنظر الملحق الحادى عشر بشأن تحقيق إسم بلنياس

٣٩ — ابن العديم ج ١ ص ١٦٩ ، انظر كذلك : كانار ص ٨٤٢ — ص ٨٤٣

الحوادث وقتئذ ، وربما كان متغيبا . وعلى كل حال ، فقد قام كليب الكاتب المسيحى الذى كان يعمل فى خدمته بتسليم هذين الحصنين إلى الامبراطور البيزنطى . (٤٠) ويذكر يحيى الأنطاكى أن تزيمسكس عين على هذه الحصون التى استولى عليها فى شمال الشام ولاة من قبله وتتفق هذه الرواية مع ما ذكره الامبراطور فى خطابه فى أكثر من موضع عن تعيين ولاة على البلاد التى فتحها . ولكن المرجح أنه أعتمد فى ذلك على المسلمين أو غيرهم من العناصر الشرقية . فإن المؤرخ المذكور ذكر أن الإمبراطور أتخذ كليب النصرانى وولديه عملاء له ، وأنه منح كليب لقب بطريق كما عينه باسليق Basilikos على انطاكية (٤١) وأنه « أقطعه نعمة كبيرة ». (٤٢) والظاهر أن هذا المنصب المذكور كان من المناصب الإدارية الهامة، وربما كان يعنى الوالى . ومن الجائز جدا أن كليب بحكم منصبه هذا أصبح يعمل تحت رئاسة ميخائيل بورتزيس الذى أصبحت تحت إمرته مساحة شاسعة من البلاد التى أخضعها الأمبراطور .

وبالإستيلاء على برزويه وصهيون أنهى تزيمسكس حملته على الشام. (٤٣) وقد قاد

---

٤٠ ـ يحيى الانطاكى ص ١٤٦

٤١ ـ اختصاصات منصب الباسليق غير واضحة تماما فى النظم الادارية البيزنطية. وهناك اكثر من رأى فى تحديد اختصاصات هذه الوظيفة ، منها أن الباسليق هو الحاكم أو الوالى ، ومنها انه كان يختص بادارة الشئون المالية ـ انظر :

Adontz . (Byzantion) X, (1935), p. 532.

٤٢ ـ يحيى الانطاكى ص ١٤٦

٤٣ ـ إنفرد ابن القلانسى دون غيره من المؤرخين بذكر عصيان مدينة أنطاكية على تزيمسكس وقت عودته بحملته . والظاهر أنه قد التبس عليه الأمر فكرر فى هذا الوضع الرواية الخاصة باخر حملات نقفور فوقاس فى الشام عندما أقام قوة بيزنطية لمنازلة أنطاكيه والاستيلاء عليها ـ انظر : ابن القلانسى ص ١٤ ، متى الرهوى ص ١٩ ـ ص ٢٠ ، يحيى الانطاكى ص ١٤٦

جيشه إلى أنطاكيه ورجع هو إلى عاصمة بلاده.(٤٥) ولابد أن قواته التى قامت بالقتال ضد المسلمين وتنقلت بسرعة من مركز إلى آخر منذ شهر ابريل حتى شهر سبتمبر (٩٧٥ م) أصبحت مجهدة وفى حاجة إلى الراحة . وربما كان من الأسباب التى جعلته يقرر العودة ما بدأ يشعر به من إعتلال فى صحته . والواقع أن تزيمسكس مع إهتمامه بتنفيذ سياسة التوسع البيزنطى على حساب المسلمين فى الشرق ، لم يقدر له أن يقوم بحملة أخرى لتحقيق أهدافه فى هذا الأتجاه . فإن الأجل لم يمهل هذا الأمبراطور الذى أدركه المـوت عقب عودته من حملته على الأراضى المسيحية المقدسة . وكانت وفاته فى ١٠ يناير ٩٧٦ م ، بعد حكم لم يستمر إلا قرابة ست سنوات . وقد إختلفت الآراء فى تفسير أسباب موته ويرى بعض المؤرخين أن جماعة من أعدائه دسوا له السم ، كما يرجـح البعض الآخـر أنه أصيب بحمى التيفود فى أواخر مدة حملته على الشام وأنه مات متاثراً بهذا المرض ،(٤٦)

وعند محاولة تقـدير إنجازات تزيمسكس فى سياسته ضد المسلمين فى الشرق الأدنى ، فلابد من الاعتراف بأهمية نتائج الحملات التى قام بها على شمال العراق والشام . فقد كان إقليم الجزيرة هـــدفا للحملات الثلاث التى وجهها اليه الامبراطور وشعر المسلمون هناك بقـوة الجيوش البيزنطية ، وأصبح للامبراطورية البيزنطية شأنها فى هذه الأنحاء . وأذعن عـدد من أمراء هذا الاقليم ، بما فيهم أمـير الموصل الحمدانى ، أمام الخطر البيزنطى وأضطروا لدفع الجزية ليشتروا بها أمنهم وسلامتهم .

---

٤٥ ـ متى الرهوى ص ٢٠

(46) - Ostrogorsky, ibid, p.264.

انظر كذلك : شلومبرجيه ص ٣١١ ـــ ص ٣١٦ ، ابن القلانسى ص ١٤ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٠

وفى وصف ما أحرزه تزيمسكس من أعمال فى البلاد الشامية فقد جاء فى أواخر خطابه ، الذى كتبه على أثر انتهائه من حملته على هـــذه البلاد ، ما يأتى : « لم يتبق حتى الرملة وقيسارية يابس أو ماء لم يخضع لنا . »(٤٧) كما كتب : « والآن صارت فينيقيا وفلسطين وسوريا متحررة من نير المسلمين ، وخاضعة للرومان . »(٤٨) ومن الواضح أن هذه الكلمات تحوى الكثير من المبالغة فى وصف فتوحات تزيمسكس . ويجب ألا ينظر اليها إلا على أساس أنها تحدد الهدف الذى أراد تحقيقه فى هذه البلاد . فإن هذا الامبراطور لم يستطع أن يحقق بشكل كامل الهدف الصليبى الذى قام من أجله . فهو لم ينجح فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، الأمـــر الذى لم ينجزه بالنسبة لأوربا المسيحية إلا الصليبيون الغربيون فى أواخـر القرن الحادى عشر الميلادى كما أن تزيمسكس بالرغم من نجاحه فى التوغل فى البـــلاد الشامية ، وما فرضه من الاتفاقيات على عدد من أمـراء المدن والمراكز الاسلامية ، فإنه لم يتخذ مايلزم لتأمين ماحصل عليه من مكاسب فى أواسط وجنوبى الشام بعد إنسحابه .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجـح تزيمسكس فى تدعيم الحـكم البيزنطى فى المناطق الشمالية التى كان نقفور فـوقاس ضمها للحـكم البيزنطى المباشر مثل إمارة أنطاكية ، والتى فرض السيادة البيزنطية عليها مثل حلب . وفضلا عن ذلك فإن الفتوح الجديدة التى قام بها تزيمسكس فى شمـال الشام كانت أكثر بقاء من فتوحاته فى الجنوب . وتشير المصادر التاريخية إلى إستمرار حكم البيزنطيين فى عدد من المراكز الشمالية التى أخضعها تزيمسكس . فإن

---

٤٧ ـ متى الرهوى ص ١٨

٤٨ ـ المصدر السابق ص ١٩

يحيى الأنطاكى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ذكر أن حصون بلنياس وجبلة وبرزويه وصهيون ، إستمرت خاضعة للبيزنطيين منذ إستيلاء تزيمسكس عليها حتى الوقت الذى دون فيه تاريخه .(٤٩)

ولقد أصبح على الامبراطور باسيل الثانى ، الذى خلف تزيمسكس على عرش بيزنطة ، والذى بلغت الامبراطورية البيزنطية فى عهده أوج قوتها ، العمل على تأمين المكاسب التى حصل عليها تزيمسكس ومواصلة سياسته فى الشرق . وإن حملات كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى ضد المسلمين ، تعتبر ألمع الصفحات فى تاريخ الهجوم البيزنطى على المسلمين فى الشرق الأدنى . والواقع أن العامل الرئيسى الذى حال دون إمتداد النفوذ البيزنطى من شمال الشام إلى جنوبه كان الفاطميون ، الذين نجحوا فى فرض حكمهم على هذه المنطقة من الشام ، وأقاموا حاجزا منيعا وقف أمام التقدم البيزنطى . واضطرت الامبراطورية البيزنطية للاعتراف بهذا الحاجز رسميا وذلك بمقتضى الاتفاقية التى عقدت بين الامبراطور باسيل الثانى والخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠١ م ، والتى كانت أول اتفاقية لتنظيم العلاقات البيزنطية الفاطمية فى الشام . ومهما يكن من أمر ، فنتيجة للجهود التى قام بها كل من نقفور فوقاس وتزيمسكس وباسيل الثانى ، نجح البيزنطيون فى إقامة منطقة خاضعة لنفوذهم فى شمال الشام ، قاعدتها الأساسية مدينة أنطاكية ، التى ظلت فى أيديهم حتى سنة ١٠٨٤ م أى حتى قبيل مجىء الصليبيين الغربيين بسنوات قليلة . وهكذا

---

٤٩ — يحيى الأنطاكى ص ١٤٦ — كان موت هذا المؤرخ فى ١٠٦٦ م / ٤٥٨ هـ ، وقد صنف كتابه فى التاريخ حوالى ٣٩٧ هـ ثم أعاد كتابته حوالى ٤٠٥ هـ

كان النفوذ البيزنطى عـــاملا من العوامل الهامة التى أثرت فى تاريخ الشام السياسى لسنوات عديدة .

وفضلا من ذلك ، فان الحملات التى قام بها البيزنطيـون على الشرق الأدنى الاسلامى ، ونجاحهم فى إقامة منطقة نفوذ لهم فى الجـزء الشمالى من الشام ، قد أمـدهم بذريعة قوية تذرعوا بها للتدخل فى شئـون الصليبيين وإماراتهم اللاتينية التى بدأو فى اقامتها منذ أواخــرالقرن الحادى عشر الميلادى . فلقد تمسك الأباطرة البيزنطيون بما إعتبروه حقا لهم فى حـكم الأراضى المسيحية المقدسة وخاصة أنطاكية التى كانت خاضعة لهم إلى عهد قريب . ولجأ الامبراطور الـكسيوس كومنين إلى مختلف الطرق لـكى يجبر أمراء الصليبيين ، أثناء مرورهم بالقسطنطينية ،على أن يقسموا يمـين الولاء له ،وكذلك أن يردوا للامبراطورية البلاد التىكانت تابعة لها فى الشرق (٥٠) كما دأب خلفاؤه من الأباطرة أثناءالقرن الثانى عشر الميلادى على محاولة فرض السيادة البيزنطية على مختلف الإمارات اللاتينية فى الشام .(٥١) وكان لهذه السياسة التىإتبعها البيزنطيون آثارهاعلى تاريخ الصليبيين ومركزهم فىالشرق.

---

٥٠ — بخصوص شروط الاتفاقية بين الـكسيوس وأمراء الحملة الصليبية الأولى ، ارجع إلى :

Vasiliev, Byz. Emp., p. 408; Yewdale, Bohemond I, p. 44.

(51) La Monte, « To What Extent was the Byzantine Empire : the Suzerain of the Latin Crusading States ? » Byzantion VII (1932), 253 - 64.

ملاحـــق

ا – نصوص ووثائق

الملحق الأول

رسالة الامبراطور يوحنا تزيمسكس
إلى الملك الأرمينى آشوط الثالث

وصلت إلى أيدينا هـذه الرسالة الهامة عن طريق المؤرخ الأرمينى متى الرهوى . وان المصنف الذى وضعه هـذا المؤرخ يعد أهم مصدر أرمينى وصل الينا من القرن الثانى عشر الميلادى . وكان متى رئيساً لأحدى الأديرة بمدينة الرها ، وقد مات فى مدينـــة كيسون Kaisoun ، أى أنه عاش فى تلك المنطقة التى شاهـدت نشاط الأمبراطور تزيمسكس ومحاولاته للتوسع على حساب المسلمين . وقد توقفت حوليته عند أحداث سنة١١٣٦م. وبصفة عامة يتميز تاريخ متى بالدقة فى تقصى الاخبار والاعتماد على المصادر الرئيسية فى إستقاء معلوماته . وكانت تحت يديه مصادر عديدة استطاع الاعتماد عليها عند كتابته عن الفترة السابقة على عهده .(١)

وترك هذا المؤرخ وصفاً للحملات العسكرية التى قام بها كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس على شمال العراق والشام . وكان أهم ما جاء به فى هذا الموضوع نص خطاب الامبراطور تزيمسكس إلى حليفة الملك الأرمينى آشوط الثالث . وتدل الشواهد المختلفة على أن هذه الوثيقة أصلية . وقد

---

١ ـ انظر :
C. Cahen, La Syrie du Nord a l'èpoque des Croisades, p. 98.

حفظت فى دور المحفوظات لدى الملوك البغريين Bagratids فى مدينة آنى Ani . ويرجع الفضل إلى متى الرهوى فى الاحتفاظ لنا بهـــذه الوثيقة الرسمية التى سجلت وصفاً هاماً للحملة التى قام بها تزيمسكس على بلاد الشام سنة ٩٧٥ م ، وما صاحبها من الجـو الصليبى والحماسة الدينية التى شابهت ماوجد أثناء الحملة الصليبية الأولى ، التى قامت بها العناصر اللاتينية لإسترجاع الاراضى المسيحية المقدسة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى .

وكان أول من قام بترجمة هذه الرسالة من اللغة الارمينية إلى لغة من اللغات الحديثة هو ف. مارتن F. Martin وذلك سنة ١٨١١ عندماترجمها إلى اللغة الفرنسية .[٢] وقام بعده المؤرخ دى لورييه Du Laurier بإعداد ترجمة فرنسية جديدة اكثر وضوحاً .

ولأهمية هذه الرسالة ، رأينا أن نقوم بإعداد ترجمة عربية كاملة لها ، حتى يتيسر للباحث والقارىء العربى الإطلاع عليها والاستفادة منها . وقد سبق وتعرضنا لنقد بعض ما جاء فى خطاب تزيمسكس أثناء تحـدثنا عن الحمـلات التى قام بها هـذا الامبراطور على الشرق الأدنى ، كما سنعلق على بعض أجزائه الأخرى حسب ما يقتضيه الموقف على شكل حواش ترفق مع الترجمة العربية للخطاب . والأفضل أن ننبه فى هذا الموضع، إلى أنذالخطاب صدر من شخصية كبيرة ، وهو الامبراطور البيزنطى ، إلى حليف له ، يهمه التأثير عليـه واشعاره بقـوته ، حتى يظل الملك الارمينى على إرتبـاطه بالامبراطورية البيزنطية . ومن أجـل تحقيق ذلك لم يتردد الامبراطور

---

(2) F. Martin, Délails historiques de la premiere expedition des Chretiens dans la Palestine sous l'empereur Zimisces. (Faris, 1811)

فى المبالغة فى بعض المواقف فى تصوير انتصاراته وان هذه الظاهرة الموجودة فى خطابه لتذكرنا بما تفعله بعض الدول الحديثة عندما تصدر نشرات رسمية تبالغ فيها فى تصوير انتصاراتها وهزائم أعدائها ، حرصاً على الابقاء على هيبتها فى مسرح السياسة الدولى أثناء الحروب ، واكتساب الأنصار فيما تقوم به من صراع ضد أعدائها .

نص الرسالة(٣)

« يا آشوط ، ياشاهنشاه أرمينية الكبرى ، يابنى الروحى ، انصت إلى ولتعلم الأعاجيب التى أتاها الرب لصالحنا ، وانتصاراتنا التى تنم عن اعجاز والتى تدل على أنه يستحيل سبر غور العناية الالهية . وإننا نريد ياصاحب المجد ، يا آشوط يا بنى ، أن نطلعك على الدلائل الساطعة على الفضل الذى أضافه الرب الى نعمه هذا العام ، على يدى جلالتنا وأن نبصرك بها . فأنت بوصفك مسيحياً وصديقاً وفياً لجلالتنا سوف تسعد بذلك وتلهج بعظمة مولانا المسيح السامية . وهكذا ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين ، وهو الذى أتاح لجلالتنا أن نخضع كل بلاد الشرق الفارسى .(٤) وستعرف كذلك كيف استولينا على نصيبين مدينة المسلمين ، وعلى مخلفات البطريرك القديس جاك ،(٥) وكيف أخذنا منهم الأسرى .

وكانت حملتنا تهدف أيضا إلى الاقتصاص من كبرياء أمير المؤمنين

---

٣ — النص الذى قمنا بترجمته إلى اللغة العربية هو الموجود فى « موسوعة مؤرخى الحروب الصليبية »
Recueil des historiens des Croisades. Documents armenieens. I, pp. 13 20

٤ — يبدو أن الامبراطور يشير هنا إلى حملاته على شمال العراق

٥ — هو القديس جاك النصيبى

وزهوه ، وهو مولى الأفريقيين المعروفين بالعـرب المغـــــاربة ، الذى تصدى لنا بقوات هائلة عرضت جيشنا فى البداية للخطر . ولـكننا هزمناها بعد ذلك بفضل القوة وعون الرب ، فأنسحبت فى خزى ، شأنها شأن أعدائنا الآخرين . وعندئذ جعلنا من أنفسنا ساده على بلادهم ، وحكمنا بقطع رقاب أهالى عـدة أقاليم . وبعد ذلك تعجلنا بالانسحاب وعدنا إلى قواعدنا الشتوية .

ولقد جهزنا جميع فرساننا فى شهر أبريل ، وبدأنا حملتنا فدخلنا فينيقيا وفلسطين لمطاردة الأفريقيين الـلاعين الذين كانوا أسرعوا إلى بلاد الشام . وغادرنا أنطاكية بـكل جيشنا . وفى تقدمنا المباشر أجتزنا تلك البلاد التى كانت من أملاكنا من قبل ، فأخضعناها من جديد لسلطاننا بأن فـرضنا عليها جزية كبيرة وأستولينا فيها على الاسرى . وحين أدركنا مدينة حمص أقبل الينـا سكان المنطقة — وهم الذين كانوا يدفعـون لنا الجـــزية — وأستقبلونا بترحاب . وأنتقلنا بعد ذلك إلى بعلبك التى يطلق عليهـا أيضا إسم هليوبوليس ، أى مدينة الشمس : إنها مدينة شهيرة عظيمة ممـــونة تموينا كاملا كما أنها كبيرة ومترفة وحين خرج الأهالى علينا بشكل عدائى ، شتتهم قواتنا وأطاحت برءوسهم بالسيوف. وبعد عـدة أيام بدأنا الحصار فأسرنا عـددا كبيراً من الشبان والفتيات ، واستولت قواتنا على كثير من الذهب والفضة ، وكذلك على عدد ضخم من الماشية .

وواصلنا سيرنا متجهين نحو مدينة دمشق بغية محاصرتها الا أن حاكمها وكان شيخا على قـدر كبير من الحـكمة ،[٦] بعث إلى جلالتنا برسل محملين

٦ ـ كان حاكم دمشق عند مجىء تزيمسكس اليها هو أفتكين

بالهدايا الثمينة ، ومكلفين بأن يتوسلوا الينا ألا نحيلهم إلى رقيق وألا نخرب بلدهم ، مثلما فعلنا ببعلبك وأهلها لقد قدموا الينا هدايا فخمة وعدداً من الخيول الثمينة والبغال الجميلة المزودة بسروج رائعة مزينة بالذهب والفضة . ولقد وزعنا على جنودنا الخراج الذى تلقيناه من العرب وكان مقداره يبلغ أربعين ألفا من التاهيجانات (٧) وقدم الأهالى الينا وثيقة يتعهدون فيها بأن يظلوا دواما وجيلا بعد جيل على طاعتنا . ولقد نصبنا لحكم دمشق رجلا جليلا من بغداد يسمى التركى(٨) وقد أتى بصحبة خمسمائة فارس ليقدم لنا الولاء .(٩) وكان أعتنق الدين المسيحى ، وقبل ذلك كان أعترف بسيادتنا . ولقد أدى جميع هؤلاء اليمين قاطعين على أنفسهم العهد بأن يدفعوا خراجا دائما ، وصاحوا هاتفين . المجد لجلالتكم . كما أنهم تعهدوا فى الوقت ذاته بمحاربة أعدائنا ، وبمقتضى هذه الشروط أرتضينا أن ندعهم وشانهم .(١٠)

وأتجهنا بعد ذلك إلى بحيرة طبرية ، هناك حيث أتى مولانا المسيح بمعجزته — بسمكتين وخمسة أرغفة من الخبز — وأعتزمنا محاصرة المدينة — طبرية — الا أن الأهالى أتوا ليعلنوا لنا خضوعهم وليحملوا الينا مثل سكان دمشق كثيرا من الهدايا ومقدارا من المال يبلغ ثلاثين ألفا من التاهيجانات ،

---

٧ — لتفسير كلمة تاهيجانات (جمع تاهيجان) انظر ما سبق ص ١٥٩

٨ — يقصد افتكين

٩ — الولاء هنا بمعنى Hommage الذى كان ركنا اساسيا فى علاقة التابع بالمتبوع فى النظام الاقطاعى

١٠ — قابل ماذكره تزيمسكس عن علاقته بافتكين وأهل دمشق بما جاء فى المصادر العربية : ابن القلانسى ص ١٢ — ص ١٤ ، سبط بن الجوزى ص ٥٥ — ص ٥٦ يحيى الانطاكى ص ١٤٦

فضلا عن أشياء أخـــرى . وطلبوا الينا أن ننصب عليهم قائدا من لدينا ، وقدموا وثيقة تعهدوا فيها بأن يظلوا مخلصين لنا وبأن يداوموا على دفـع الجزية . عندئذ تركناهم أحراراً من نير الاستعباد ، وأمتنعنا عن تخريب مدينتهم وديارهم. لقد جنبناهم مغبة النهب لأن بلدهم كان موطن الحواريين المقدسين . وحـدث نفس الشيء فى الناصرة حيث كانت أم الرب القديسة مريم العذراء سمعت النبأ السعيد من فم الملاك . ولما كنا ذهبنا إلى جبـل الطور ، فقد صعدنا إلى المكان الذى تجلى فيه إلهنا المسيح . وحين توقعنا أتى الينا من الرملة والقـدس أناس يلتمسون رعاية جلالتنا ويتضرعون الينا أن نرحمهم . لقد طلبوا الينا أن ننصب عليهم حاكما وأعترفوا بتبعيتهم لنـا ، وأرتضوا الخضوع لسيادتنا ، فمنحناهم ما كانوا يتمنون .

كانت رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين . وقد عينا حـكاما عسكريين على جميـع الثيمات ـ الأجناد ـ التى أخضعناها والتى صارت تدفع لنا الجزية : فى بيسان التى تسمى كذلك ديقابوليس ، وفى طبرية[11] وفى عكا التى يطلق عليها أيضا بطلمية . وتعهد الأهالى كتابة أن يدفعوا لنا كل عام جزية دائمة ، وبأن يعيشوا تحت إمرتنا . وبعد ذلك انتقلنا إلى قيسارية الواقعة على شاطىء البحر المحيط ، والتى خضعت لنا . ولو أن هؤلاء الأفريقيين الملاعين الذين كانوا استقروا هنـاك لم يلوذوا بحصون الساحل لـكنا ذهبنا بعـونة الرب إلى مدينة أورشليم المقدسة ، وصلينا فى هذه الأماكن المقدسة .

---

١١ ـ مدينة Génésareth فى أصل الخطاب وهى احدى الاسماء القديمة لطبرية أنظر . Article « Galilèe » Encyclopaedia Biblica) vol. II, col. 1632,

ولما كان أهل سواحل البحر لاذوا بالفرار ، فقد أخضعنا الجزء العلوى من البلاد للسيطرة الرومانية ،[١٢] وأقمنا عليها قائداً . وكنا نستميل الأهالى الينا ، أما هؤلاء الذين ظهر عصيانهم فقد أجبروا على الإذعان . وسرنا فى الطريق المحاذية للبحر ، والتى تؤدى مباشرة إلى بيرت هذه المدينة العظيمة ، ذات الشهرة الذائعة ، التى تحميها أسوار قوية ، والتى يطلق عليها الآن اسم بيروت . وبعد صراع بالغ العنف استطعنا أن نسيطر عليها . لقد أسرنا ألفا من الأفريقيين ، وكذلك نصيرى - نصر - الخادم[١٣] قائد أمير المؤمنين ، وقادة آخرين من أعلى الرتب . وعهدنا بهذه المدينة إلى حاكم اخترناه . ثم عقدنا العزم على السير إلى صيدا ، وما أن علم سكانها بنيتنا حتى أوفدوا الينا شيوخهم الذين اقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتمسين أن يصبروا رعايانا وعبيدنا الخاضعين على الدوام . وإزاء هذه التأكيدات ، ارتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم ، وحتمنا عليهم دفع جزية وأقمنا عليهم حكاما ، ثم واصلنا مسيرنا متجهين إلى بيبلوس - جبيل - هذا الحصن القديم الرهيب الذى هاجمناه وأخضعنا حاميته . وهكذا تتبعنا جميع المدن الواقعة على الساحل ونهبناها واحللنا اهلها عبيداً . وكان علينا أن نختار طرقا ضيقة لم يحدث ابداً ان عبرتها خيول ، طرقا رهيبة وشاقة جدا . ولقد صادفنا مدنا آهلة بالسكان ومزدهرة ، وحصونا تحميها أسوار

---

١٢ - صفة « الرومانية » المذكورة تعتبر مرادف لفظ « البيزنطية » ذلك أن اباطرة بيزنطه قد احتفظوا بلقب « اباطرة الرومان » وكان رعاياهم يطلق عليهم اسم الرومان

١٣ - نصر هو أحد خصيان الخليفة الفاطمى انظر :

Wüstenfeld, Geschichte dèr Fatimiden Chalifèn, (Göttingèr, 1881) p. 127.

قوية وحاميات من العرب ، فحاصرناها جميعاً وجعلنا عاليها سافلها ، كما اقتدنا من اسرناه من سكانها . وقبل ان نصل إلى طرابلس ارسلنا فرسان الثيمات ـ الأجناد ـ والحاميات إلى ممركارير Karéres (١٤)، إذ كان قد نما إلى علمنا ان الأفريقيين الملاعين عسكروا فيه . وامرنا قواتنا بأن تختبئ ، واعددنا كمينا مهلكا ، ونفذت أوامرنا . وظهر ألفان من الأفريقيين انقضوا على جنودنا الذين قتلوا منهم عـــددا كبيراً واسروا كثيرين أتوا بهم أمام جلالتنا .

ولقد قلبنا اقليم طرابلس كله رأسا على عقب ، مخربين فيه تخريباً كاملا الكروم وأشجار الزيتون والحدائق، وأينما مررنا كنا نشيع الدمار والحزن. وتجاسر الافريقيون المعسكرون هناك فأتجهوا نحونا ، ولكننا انقضضنا توا عليهم وأبدناهم إلى آخـــرهم . وبسطنا سلطاننا على المدينة الكبرى التى تسمى كذلك جبله Djouel (١٥)، وعلى بلنياس ، وصهيون ، وبرزويه الشهيرة . ولم يبق حتى الرملة وقيسارية ماء أو يابس لم يخضـــع لنا ، بحول الرب الذى لم يولد ، فأتسعت فتوحاتنا حتى مدينـة بابلون الكبرى ـ القاهرة ـ (١٦) وفرضنا القوانين على الاهالى وأحلناهم إلى عبيد لنا وذلك لأنناجلنا فى البلاد خلال خمسة أشهر بقوات عديدة ، مدمرين المدن ومخربين

---

١٤ ـ يبدو أن هذا احدى الممرات بجبل لبنان وعلى مقربة من مدينة طرابلس ـ ولفظ Kareres باللغة الأرمينية يعنى « وجه الحجر » أو « وجه الصخر » ـ أنظر : شلومبرجيه ص ٢٨٨ ، حاشية ٣

١٥ ـ تقع مدينة جبله على الساحل بين اللاذقيه وبلنياس

١٦ ـ درج كثير من واضعى الحوليات الأوروبيين فى العصور الوسطى على استعمال اسم بابلون عند التحدث عن كل من القاهرة وبغداد . والظاهر من سياق الحديث فى خطاب تزيمسكس أنه يقصد القاهرة

الولايات دون أن يجسرؤ أمير المؤمنين على الخروج من بابلون لمقابلتنا أو على الأقل ارسال مدد من الفرسان إلى قواته . ولولا الحر اللافح والطرقات القفر فى الأماكن التى تجاور هذه المدينة ، كما تعرف ياصاحب المجد ، لاستطاع جلالتنا أن يصل إلى هناك . ذلك لأننا طاردنا هذا الامير حتى مصر وهزمناه هزيمة كاملة بفضل الرب الذى ندين له بتاجنا .(١٧)

والآن صارت كل فينيقيا وفلسطين وسوريا متحررة من نير المسلمين وخاضعة للرومان .(١٨) وفضلا عن ذلك فإن جبل لبنان الكبير اعترف بقوانيننا . وإن جميع العرب الذين كانوا يقيمون به وقعوا أسرى فى أيدينا بأعداد كبيرة للغاية ، فوزعناهم على فرساننا . وحكمنا الشام حكماً يتميز بالرفق والانسانية والرعاية . وأخذنا منها قرابة عشرين ألف شخص أسكناهم جبله .(١٩) ولسوف تعرف أن الرب منح المسيحيين انتصارات لم يحصل أحد على مثلها فى أى يوم من الايام .

---

١٧ ـ الملاحظ ان تزيمسكس قد جنح هنا للمبالغة او استعمال الخيال فى تصوير ما ذكره من انتصارات على قوات الفاطميين

١٨ - اى البيزنطيين او الروم

١٩ ـ لقد انفرد خطاب تزيمسكس دون غيره المصادر بذكر إسكان عشرين الف من اهالى الشام فى جبلة ، ولم يوضح المصدر المذكور اذا ما كان هؤلاء من المسيحيين او المسلمين ، او من العناصر الموالية للامبراطور البيزنطى . كما لم يذكر السبب الذى جعل الامبراطور ينزل هذه الأعداد الكبيرة من اهل الشام فى موقع جبلة بالذات . وربما اراد تزيمسكس ان يعمر بهم منطقة جبلة التى اصبحت تحت السيادة البيزنطية ، كما انه من الجائز انه اراد ان يتخذ من هذا الموقع مركزا اماميا يواصل منه عملياته العسكرية ضد طرابلس — ويجدر بنا ان نتذكر كذلك ان جبلة كانت اقرب المراكز الشامية إلى جزيرة قبرص التى كان البيزنطيون اخضعوها فى فترة سابقة . وقد ذكر ابن حوقل « وكانت جزيرة قبرص تحاذى جبلة فى وسط البحر الرومى وبينها مجرى يوم وليلة» . ابن حوقل ج ١ ص ١٧٩

وقد عثرنا فى جبلة على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض كما وجدنا أيقونة المخلص ـ المسيح ـ ، تلك الأيقونة التى طعنها اليهود فسأل منها فى النو دم وماء ، ولكننا لم نلحظ فى هـذه الأيقونه طعنة الحربة . ووجدنا كذلك فى هذه المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول ، وهو شىء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلفات حملناها معنا لنحتفظ بها فى مدينتنا ـ القسطنطينية ـ التى يكلأها الرب برعايته .

وفى شهر سبتمبر قدنا جيشنا الذى حفظته العنايه الالهية إلى أنطاكية . وإذا كنا قد أطلعناك ياصاحب المجد على جميع هـذه الحقائق فلكى يثير سردها فيك الاعجاب ، ولكى تمجد بدورك عظيم فضل الرب ، وحتى تلم بالاعمال العظيمة التى تم إنجازها فى هذا الزمن ، وما أكثر عددها ! إن الصليب المقدس قد بسط سلطانه على نطاق واسع ، فى جميع البقاع وفى كل إتجاه ، وأصبح الناس يسبحون باسم الرب فى جميع هـذه البلاد ـ ولقد قامت إمبراطوريتى فى كل مكان متألقة جليلة . ولذا فإن ألسنتنا لا تكف عن التسبيح بحمد الرب الذى منحنا مثل هذه الانتصارات الرائعة . حمداً أزليا للسيد رب اسرائيل ![20]

---

٢٠ ـ المقصود هنا باسرائيل هو يعقوب ـ انظر : العهد القديم ، تكوين ٣٢ : ٢٨

الملحق الثانى

وثيقة بشأن فرض قيود على التجارة بين البنادقة والمسلمين

مما تجدر بنا ملاحظته أن الامبراطور يوحنا تزيمسكس أدرك خطورة التجـارة القائمة بين البندقية والبـلاد الاسـلامية ، حيث أن البنادقة كانوا يمـدون المسلمين بأنواع من السلاح وكذلك الأخشاب التى أستعملوها فى بناء السفن . وكان هذا مما يعمل على تدعيم قوتهم العسكرية فى وجه الامبراطورية البيزنطية . وعـلى ذلك رأى هـــذا الامبراطـور ، أن يستغل ماله من نفوذ وسلطة ، حيث أن الامبراطورية البيزنطية كانت صاحبـة السيادة على البندقية . وقد أرسل تزيمسكس مبعوثيه إليها لمنـع البنادقة من إمـداد المسلمين بما قد يعـود بالضرر على البيزنطيين . والوثيقة التى نقوم بترجمتها هنا متعلقة بهذا الاجراء وتتناول الخطوات التى قام البنادقة بها للـرد على مطلب الامبراطور .

نص الوثيقـه *

ريالتو (١) ، البندقية — يوليو ٩٧١ م

باسم الرب ومخلصنا يسوع المسيح . فى أثناء العهد الامبراطورى للعاهل

---

* النص الذى قمنا بترجمته ماخوذ من :
Lopez & Raymond : Medioval Trade in the Mediterranean World New York, 1955. pp. 331 - 35.

(١) ريالتو هو مبنى شهير عند القنال الرئيسى فى مدينة البندقية .

يوحنا الامبراطور العظيم ، فى شهر يوليـو من السنة الثانية من حـكمه الامبراطورى ، الموافق للتوقيت الرابع عشر . [٢] ريالتو .

حيث أنه جاء ، فى فترة مبكرة من التوقيت السالف الذكـر ، مبعوثون إمبراطوريون من قبل يوحنا الأول وباسيل الثـانى وقسطنطين الثامن ، وهم أقدس الآباطـرة ، للاستقصاء عن الأخشاب والأسلحة التى كانت تحملها سفننا إلى بلاد المسلمين ، وللتهديد بشكل مفزع، بناء على أمر أمجد الأباطرة ، بأنه فى حالة قيام البنادقة بتقديم المساعدة للبرابرة بإمدادهم بالأخشاب ، الأمر الذى يعتبر موجها ضد صالح الامبراطورية وضد الشعب المسيحى، فانهم سوف يقومون بإشعال النيران فى كافة السفن بما عليهـا من رجال وشحنات .

وعلى ذلك ، ففى يوم ما ، عندما كان اللورد بيترو كانديان الرابع ، مولانا أفخم الأدواج ، مجتمعا مع إبنه فيتالى أقدس البطارقة ، وكذلك مع مارينو أفخم أسقف لـكنيسة فيتالى ، وأساقفه آخرين من بلاده ، وكذلك عندما كان جزء كبير من الشعب من العناصر العليا والمتوسطة والدنيا قائما فى حضرته ، عقـد المجتمعون مجلسا ليقرروا كيف وبأية طريقة يستطيعون تهدئه غضب الامبراطور ، وكيف يكفون عن القيام بهذا العمل الشرير وإرتـكاب تلك المعصية .

---

(٢) استعملنا هنا كلمة التوقيت محل كلمة Indiction . وهذه الـكلمة لا يوجد ما يقابلها فى اللغة العربية . وهى عبارة عن فترة زمنية تتكرر من ١٥ سنة ، أدخلها الأمبراطور قسطنطين الـكبير من أجل تنظيمات مالية . و المعروف ان الـكنيسة اللاتينية قد اتبعت هذا التنظيم .

ولأننا نعرف بكل تأكيد أنها معصية كبرى أن نقدم لشعب وثنى مثل تلك المساعدة التى يستطيع بها التغلب على المسيحيين وإلحاق الضرر بهم، فبناء على ذلك، وبإلهام من العناية الإلهية تشاورنا سويا ووصلنا إلى قرار نتعهد بمقتضاه نحن وورثتنا، لك يالورد بيترو يا مولانا يا أسمى دوج، ولخلفائك، أنه من الآن فصاعدا، لن يجسر أحد على أن يحمل إلى بلاد المسلمين أسلحة لبيعها أو لتقديمها كهدايا. كما لن ينقل أحد أخشاب لبناء السفن مما قد يضير مصالح الشعب المسيحى. كما لن يحمل أحد الدروع أو التروس أو السيوف أو الرماح أو أى أسلحة قد يحارب بها المسلمون المسيحيين ولا يجوز للمرء أن ينقل من السلاح إلا مايدافع به عن نفسه ضد الأعداء. ولا يجوز بأيه حال أن يباع مثل هذا السلاح أو يعطى للبرابرة.

وبشأن الأخشاب، فنحن نوافق على عدم نقل أشجار الدرداء أو القيقب أو ألواح الخشب السميكة أو المجاذيف والسوارى أو أى أخشاب أخرى قد تتسبب فى ألحاق الأذى بالمسيحيين. ولكن يمكن أن نحمل فقط قرم خشبية مشذبة من الدرداء لا يزيد طولها عن خمسة أقدام ولا عرضها عن البلطة، وكذلك الأوانى والطاسات والأقداح، وألواح من الخشب طولها خمسة أو ستة أقدام. ولا يجوز لنا أن نشحن على المراكب، من أى ميناء بعد أن نبحر من ميناء البندقية، أخشاب يمكن بيعها فى أى مناسبة للبرابرة ويستطيعون إستعمالها فى بناء السفن.

واذا حاولنا فى أى وقت أن نحنث بالعهد الحالى وإجترأنا على أن ننقل إلى بلاد المسلمين أسلحة أو أخشاب غير ما نص عليه سالفا، فإن من يقوم بذلك ويكتشف أمره، عليه أن يدفع لك يالورد بيترو، يادوج ويامولانا، أو لخلفائك من بعدك، غرامة قدرها مائة جنيها من الذهب الخالص وإذا

لم يكن يمتلك هذه الجنيهات ، فلتقع على رأسه العقوبة الكبرى . وليبق سجل هذا العهد نافذ المفعول بشكل تام إلى الأبد .

وليكن من المعلوم الآن ، أن قبل وصول رسول الأمبراطورية المقدسة الينا ، كانت ثلاث سفن على وشك الابحار ، إثنتان منها إلى المهدية والثالثة إلى طرابلس . وبناء على ذلك ، ونظرا لفقر رجالها ، منحناهم تصريحا بحمل قرم خشبية وسوارى وأوانى وأطباق وسلع صغيرة أخرى . إلا أننا لم نسمح لهم بشحن الأخشاب المحظورة السالفة الذكر . وفى المستقبل ليكن من الممنوع على أى شخص أن يحمل إلى بلاد المسلمين أى أخشاب خلاف تلك التى نص عليها فى سجل العهد . وإذا إجترأ أحد على أن يأتى بغير ذلك حانثا به ، فليحتمل العقوبة السابقة الذكر .

الملحق الثالث

خطبة فى الجهاد لابن نباته الفارقى

(ألقاها بعد انتصار المسلمين على الدمستق مليح)*

صاحب هذه الخطبة،وغيرها من خطب الجهاد ، هو الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباته الفارقى . وكان مولده فى مدينة ميافارقين ومات فى نفس المدينة سنة ٣٧٤ هـ (١) وقد عاش ابن نباتة معظم حياته فى اقليم الثغور أى فى تلك المنطقة التى شهدت الصراع الذى قام بين البيزنطيين والمسلمين فى هذا العصر . والملاحظ على خطبه الخاصة بالجهاد اعتمادها على الجمل القصيرة المسجوعة ، ودأبه على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك ضرب الأمثال من مواقف البطولة الإسلامية . وكان هدف ابن نباته من هذه الخطب التى ألقاها ، حث الناس على الجهاد فى سبيل الله ونبذ خلافاتهم وتوحيد كلمتهم ضد البيزنطيين . وهذه هى احدى خطبه الشهيرة . وقد ألقاها بعد انتصار المسلمين على الدمستق مليح . وهذا هو نصها الكامل :

« الحمد لله مستدرج العصاة من حيث لا يعلمون ، والمملى لهم لينظر كيف يعملون (٢) ، لا يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ، حتى يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون . أحمده على النعم السائرة ، فى البلايا الغامرة . وأشهد

---

* ديوان خطب ابن نباته ص ٢١٤ - ٢١٧

١ - النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ١٤٦

٢ - أملى الله له : أمهله

أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنس بها القلب فخالفها ، وصد عمن كرها فخالفها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اختاره من الخلق صفيا ، وأرسله بالوعد وفيا فكان صلى الله عليه وعلى آله بالمؤمنين حفيا (٣) ، ولمن والى الله وليا ، ولسانه فى الآخرين لسان صدق عليا . صلى الله عليه وعلى آله بكرة وعشيا وسلم تسليما .

أيها الناس ان نعم الله آلفة من شكرها فعقلها ، نادة صادفة عمن أسامها فأهملها . (٤) ولقد أنعم الله عليكم نعما شيد بآخرها أولها ، وأكد بتفصيلها جملها ، من فتوح سببها لكم وسهلها ، ومغانم أفاءها عليكم فأجزلها ، ووقائع فتح بها من سبل الجهاد مقفلها ، ومعارك شفى بها من النفوس غللها . (٥) أمدكم فيها بمعونته صبرا ونصراً ، وأمكنكم من نواصى الكفرة قتلا وأسراً ، فأصبحت ربق الأسار فى أعناق الزراور والبطارق (٦) ، وأحكامكم نافذة فى أعزاء الدماسق (٧) ، ورهبتكم مشتتة جموع الفيالق . وذكركم شائعاً فى أقطار المغارب والمشارق ، وأسماؤكم مثبتة فى جرائد أهل الحقائق . وفخركم خالدا خلود الراسيات الشواهق . وأنتم تعلمون أنكم لم تستوجبوا ذلك بأعمالكم . ولم يجر مثاله فى طرق آمالكم . بدأ بالنعم عليكم قبل استحقاقها . وحكم سيوفكم فى قلل الأعداء وأعناقها . أكان من حق من خصكم بشهر الصبر ، وآثركم بجليل الفتح والنصر . ووعدكم على صيامه

---

٣ ـ الحفى : البار الممين

٤ ـ عقلها أو ربطها

٥ ـ الغلة : حرارة القلب

٦ ـ جمع بطريق Patrician ـ من ألقاب الشرف البيزنطية

٧ ـ الدماسق ج . دمستق Domesticus

جزيل الثواب والأجر . ان قابلتم نعم الله فى صبيحة يوم الفطر . بالاعتكاف على شرب خبيث الخمر . من بعد ما خالفتم أمره فيما أمر واستحللتم ما حرم عليكم وحظر . فجعلتم حل الغنيمة دولة تنتهب . وغلولا يغتصب . وظهر حرام يرتكب . لا يحاذر الله فيه ولا يرتقب . اجتراء على الله واغتراراً بستر السلامة كأنكم لم تسمعوا قوله تعالى «ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة .» فدونكموها حلاوة ورد سيمر صدره . وتجرع صفو سيعم كدره (٨) وقعب حلاب سيندم حالبه (٩) . وحميد أمر ستذم عواقبه . فالله الله عباد الله أن تخربوا قواعد النعم بمعاول العصيان . أو أن تعرضوا مصونات الحـرم للهتك والهـوان . أو تؤثروا دار المخاوف على دار الأمان . فيحوز عليكم عدوكم قصبات السبق يوم الرهان . فما قلت فئة كان تقوى الله شعارها . ولا قلت عصبة والملائكة أنصارها ولا أخمر ثفال رحى على الحق مدارها (١٠) ولا فسدت تدابير أقوام اذا صلحت أسرارها .

فالآن بادروا قبل وقوع النكر . وليظهر الاقلاع فيكم من المأمور والأمير . وارهبوا أعداء الله بمواصلة التشمير . فقد تفرى غسق الليل عن الصبح المنير . (١١) ورمى الله أعداءكم بالنآد المنقفير (١٢) ونادى منادي الحق فيهم بالثبات والتدمير . فعليكم أيها الناس بتقوى الله فإنها أوكد الأسباب

---

٨ ـ الورد : الماء يورد عليه

٩ ـ القعب : اناء نظيف يحلب فيه

١٠ ـ الثفال : جلد يبسط تحت الرحى ليسقط عليه الدقيق ، الخمر يعنى انقشر ـ والمعنى الذى يقصده ابن نباته أن ثفال رحى الحق لا ينالها أذى

١١ ـ تفرى الليل : انكشف

١٢ ـ النآد : الداهية ، المنقفير أى الداهية كذلك

واطلبوا ثأركم من عـدوكم أشد الطلاب . واعملوا فى الجهـاد بما نزل به حكم الـكتاب . « وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقـــاب » . وإياكم والإشتغال عن أثخانـكم بغلول الأسلوب (١٣) فإن الغـلول منذر بسوء الحساب . والنكوص عند اللقاء على الأعقاب . (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب .) جعلنا الله وإيا كم ممن شرح بالتقوى صدره . وطهر من الريب فـكره وأسبل عليه فى الدنيـا والآخرة ستره . وأدام على أعدائه وأعداء المسلمين نصره ، أن أنور قلائد الـكلام . وأكبر فوائد الفهم كلام مخرج الموجود من العدم وتقرأ سـواء منكم من أسر القول وجهر بالآية .

---

١٣ ـ أثخن فى العدو أى بالغ فى ضربه وقتله

الملحق الرابع

القصيدة « الفريدة الاسلامية » لابن حزم

مؤلف هذه القصيدة هو ابن حزم الظاهرى الأندلسى الذى كان من من كبار علماء المسلمين ومفكريهم. وكان مولدة سنه ٣٨٤ ومات سنة ٤٥٦هـ (٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) . أى أنه عاصر جزءا من حركة الهجوم البيزنطى على الشرق الأدنى الاسلامى الذى امتد من النصف الثانى من القرن العاشر إلى الجزء الأول من القرن الحادى عشر الميلادى. وكان ابن حزم على علم بأحداث الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الحقبة من التاريخ . والدافع الذى جعله يؤلف القصيدة التى عرفت بالفريدة الإسلامية ، كان اطلاعه على الرسالة التاريخية الهامة التى وجهها الامبراطور نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسى المطيع حوالى سنة ٩٦٤ م ، تلك الرسالة التى كانت على شكل القصيدة التى اشتهرت باسم « القصيدة الأرمينية » . فلقد تباهى امبراطور القسطنطينية فى هذه الرسالة بما أحرزه البيزنطيون من انتصارات وما استولى عليه من بلاد المسلمين ، كما هدد بمواصلة الهجوم والإستيلاء على بيت المقدس والشام بأكلها ، وكذلك سائر البلاد التى كانت فيما مضى ولايات خاضعة للامبراطورية البيزنطية . وفضلا عن ذلك فقد أنذر بالهجوم على شبه الجزيرة العربية ، وهدد بإقامة عرش للمسيح فى مكة . هذا إلى جانب تهديده بالاستيلاء على العراق وعاصمتها ، وكذلك انتزاع البلاد التى تلى العراق شرقا . هذا وتعرض بالإهانة للخليفة العباسى ، وحاول أن ينال من الدين الإسلامي والرسول (صلعم) . وقد حملت القصيدة الأرمينية

روحا صليبية واضحة ،ويظهر فيها بجلاءأن غرض نقفور كان نصرهالمسيحية وتحقيق مجدها وهدم قوى الاسلام والمسلمين .

وقام ابن حزم بتأليف قصيدته للرد على ما جاءفى القصيدة الأرمينية . وقد عرفها إبن كثير بإسم « الفريدة الإسلامية » . والسبب فى اطلاق هذا الاسم ، هو أن إبن كثير كما ذكر ، لم يعرف من المسلمين شخصاً آخر قام بالرد على القصيدة الأرمينية .وهو لم يعط علماً بالقصيدة الأخرى الهامة التى نظمها فى نفس الموضوع الامام القفال الشاشى ، المعروف بالقفال الكبير الذى مات ٣٦٥ هـ (٩٧٥ - ٩٧٦ م) . [١] والفريدة الاسلامية قصيدة طويلة تتكون من نحو مائة وثلاثين بيتا ، ولها أهميتها الخاصة فى دراسة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، من حيث أنها تصور موقف المسلمين من الخطر والعدوان البيزنطى . فبالرغم من تطاول البيزنطيين على عدد من البلاد الاسلامية واستيلائهم عليها ، وكذلك بالرغم من التهديد والتحدى الذى جاء فى القصيدة الأرمينية ، فإننا نستطيع أن نتبين فيما تركه ابن حزم ، كيف أن المسلمين كانوا بعيدين عن التخاذل أمام البيزنطيين وأنهم كانوا يشعرون بقوة كيانهم ، ويعتزون بالأمجاد السابقة التى حققوها على حساب البيزنطين أثناء حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى . فقد عدد ابن حزم فى قصيدته انتصارات المسلمين السابقة على البيزنطيين ، وما استولوا عليه من بلادهم وإجبار البيزنطيين على دفع الجزية لهم . هذا وعمد إبن حزم كذلك للحط من شأن الهجوم الذى قام به البيزنطيون فى عهد الأسرة

---

١ — انظر النص الكامل لقصيدة القفال الشاشى في : تاج الدين السبكى . طبقات الشافعية الكبرى جـ٢ ص ١٧٩ ، ص ١٨١ — ص ١٨٤ — ارجع كذلك الى النجوم الزاهرة ج ٤ ص١١١ — ولقد أدرج د . ابراهيم العدوى بعض أبيات القصيدة المذكورة فى ملاحق كتابه : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٨٨

المقدونية ، ناظراً اليه على أنه مسألة ثانوية لم تمس قلب العالم الاسلامي ولم تهدد كيانه . وبلغ من اعتزازه بقوة المسلمين أن هدد البيزنطيين بقيام هجوم اسلامي ضد بلادهم والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، هذا الأمل الذي كثيراً ما داعب أفكار المسلمين ، والذي تمكنوا من تحقيقه في نهاية الأمر على أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م . وتصدى ابن حزم كذلك للدفاع عن الدين الاسلامي والنبي محمد ، كما قام بمهاجمة عقيدة البيزنطيين الدينية وانحرافهم في اتباع تعاليم السيد المسيح . وإن الصورة التي يخرج بها المتمعن في دراسة القصيدة الفريدة الإسلامية ، هي أنه بالرغم مما قام به البيزنطيون من هجوم كبير ، ذلك الذي يمثل ذروة الخطر البيزنطي ضد المسلمين في العصور الوسطى ، فقد أبقى المسلمون على اعتزازهم بقوتهم وماضيهم المجيد ، ويقينهم بقدرتهم على مواجهة البيزنطيين .

وقد حفظ لنا هذه القصيدة كل من إبن كثير والسبكي.[٢] والملاحظ وجود بعض الاختلاف في رواية كل منهما ، والظاهر أن كلا من إبن كثير والسبكي روى القصيدة عن مصدر مختلف . وعلى كل حال ، فسوف نعرض فيما يلي مختارات من هذه القصيدة ، وهي منقولة عن كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، بدون أي تعليق أو تصحيح لغوي . والمرجو أن يقوم أحد المختصين بدراسة تاريخ الأدب العربي بنشر القصيدة بعد تصحيحها وتصويب ألفاظها :

---

٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٧ — ص ٢٥٢ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٨٤ — ص ١٨٩

من المحتمى لله رب العوالم .·. ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادى إلى الله بالتقى .·. وبالرشد والاسلام أفضل قائم
عليه من الله السلام مرددا .·. الى أن يوافى الحشر كل العوالم
الى قائل بالافك جهلا وضلة .·. عن النقفور المفترى فى الأعاجم

. . . . .

وثبتم على أطرافنا عند ذاكم .·. وثوب لصوص عند غفلة نائم
ألم ننتزع منكم بأعظم قوة .·. جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصر وأرض القيروان بأسرها .·. وأندلسا قسرا بضرب الجماجم
ألم ننتزع منكم على ضعف حالنا .·. صقلية فى بحرها المتلاطم
مشاهد تقديساتكم وبيوتها .·. لنا وبأيدينا على رغم راغم
أما بيت لحم والقمامة بعدها .·. بأيدى رجال المسلمين الأعاظم

. . . . .

أليس يزيد حل وسطا دياركم .·. على باب قسطنطينية بالصوارم
ومسلمة قد داسها بعد ذاكم .·. بجيش لهام قد دوى بالضراغم
وأخدمكم بالذل مسجدنا الذى .·. بنى فيكم فى عصره المتقادم
إلى جنب قصر الملك من دار مليككم .·. ألا هذه حق صرامة صارم
وأدى لهارون الرشيد مليككم .·. رفادة مغلوب وجزية غارم

. . . . .

فهل سرتم فى أرضنا قط جمعة .·. أبى الله ذاكم يابقايا الهزائم
فما لكم إلا الأمانى وحدها .·. بضائع نوكى تلك أحلام نائم

. . . . .

بأبنا بنى حمـدان وكافور صلتم .·. أراذل أنجـاس قصار المعاصم
دعى وحجـام سطوتم عليهما .·. وما قـدر مصاص دماء المحـاجم

. . . . .

ولكن سلوا عنا هرقلا ومن خلى .·. لكم من مـلوك مـكرمين قماقم
يخبركم عنـا التنـوخ وقيصـر .·. وكم قـد سبينا من نساء كـرائم
وعمـا فتحنا من منيـع بلادكم .·. وعمـا أقمنا فيكم من مآتم

. . . . .

رويداً فوعد الله بالصـدق وارد .·. بتجريع أهل الكفر طعم العـلاقم
سنفتـح قسطنطينيـة وذواتهـا .·. ونجعلكم فـوق النسور القشاعم
ونملك أقصى أرضـكم وبلادكم .·. ونلزمـكم ذل الجـزى أو المغـارم
الى أن ترى الاسلام قد عم حكمه .·. بجميع الأراضى بالجيوش الصوارم
أتقـرن يامخـذول دينا مثلثا .·. بعيـدا عن المعقول بادى المـآثم
تدين لمخـلوق يدين لغـــيره .·. فيالك سحقـا ليس يخفى لعالم
أنا جيلـكم مصنوعة قد تشابهت .·. كلام الأولى فيهـا اتوا بالعظائم
وعود صليب ما تزالون سجـداً .·. له ياعقول الهامـلات السوائم
تدينون تضـلالا بصلب الهـكم .·. بأيدى يهـود أرذلـين لآئم
الى ملة الاسلام توحيـد ربنا .·. فما دين ذى دين لها بمقـاوم
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى .·. محمـد الآتى برفـع المظـالم
وأذعنت الأمـلاك طوعا لدينه .·. ببرهان صدق ظاهـر فى المواسم

. . . . .

وحاباه بالنصر المكين إلهه .·. وصير من عاداه تحت المناسم
فقير وحيد لم تمنه عشيرة .·. لا دافعو عنه شتيمة شاتم
ولا عنده مال عتيد لناصر .·. ولا دفع مرهوب ولا لمسالم
ولا وعد الأنصار مالا يخصهم .·. بلى كان معصوم لأقدر عاصم
ولم تنهنه قط قوة آسر .·. ولا مكنت من جسمه يد ظالم
كما يفترى إفكا وزورا وضلة .·. على وجه عيسى منكم كل لائم
على أنكم قلتموا هو ربكم .·. فيا لضلال فى القيام عائم
ابى الله أن يدعى له ابن وصاحب .·. ستلقى دعاة الكفر حالة نادم
ولكنه عند نبى رسول مكرم .·. من الناس مخلوق ولا قول زاعم

. . . . .

الملحق الخامس

رسالة الخليفة العباسى المطيع إلى ركن الدولة

هذة الرسالة تعتبر من الوثائق الرسمية النادرة التى وصلت إلى أيدينا عن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الامبراطور تزيمسكس . وكاتب هذه الرسالة هو أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابى الحرانى (٣٢٠ — ٣٨٤ هـ) . وهو من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد وصفه الثعالبى بأنه: « أوحد العراق فى البلاغة ، ومن به تثنى الخناجر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة . »[1] وتقلد الصابى ديوان الرسائل فى بغداد منذ سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ — ٩٦١) وعمل فى خدمة كل من معز الدولة بن بويه ثم ابنه عز الدولة بختيار كما كان عليه بطبيعة الحال أن يخدم الخليفة العباسى .

وكتب الصابى الرسالة المذكورة بناء على طلب الخليفة العباسى المطيع إلى ركن الدولة البويهى أمير أصبهان والرى وهمذان (٣٣٠ — ٣٦٦ هـ) . وهو عم عز الدولة بختيار ، وكان يتمتع بمكانة كبيرة بين الأمراء البويهيين أثناء حياته . وكان المطيع أراد أن يزف إلى ركن الدولة بشرى انتصار المسلمين على البيزنطيين وأسر الدمستق مليح فى موقعة ٤ يوليو ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) .

ولهذه الرسالة أهمية كبيرة فى دراسة تلك الحقبة التاريخية التى تتحدث

---

١ — الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٨ (القاهرة ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م)

عنها فإنها تساعدنا فى التعرف على رد الفعل الذى قام فى عاصمة الدولة العباسية نتيجة التهديد البيزنطيين للجزيرة وهجماتهم على هذه البلاد ، وموقف المسئولين فى بغداد من ذلك . ولكن الملاحظ أن الصابى عمد إلى المبالغة فى تصوير اهتمام الخليفة المطيع ، وكذلك الدور الذى قام به بختيار لنجدة المسلمين ضد الروم وما قدماه من مساعدة فى هذا الصدد ، على عكس ما هو معروف عن حقيقة كل منهما . فإن المطيع كان مغلوباً على أمره فى بغداد فى ذلك الحين شأنه فى ذلك شأن غيره من الخلفاء العباسيين الذين حكموا تحت سيطرة بنى بويه . وكانت سلطته إسمية إلى حد كبير . وفى نفس الوقت فالمعروف عن بختيار إنصرافه إلى مشاكله المحلية مع الأمراء المسلمين عن الجهاد ضد الروم ، الأمر الذى عرضه للانتقاد من جانب المسلمين . بل ويذكر المؤرخ مسكويه أن بختيار لما راسل أبا تغلب الحمدانى أمير الموصل يعلمه بعزمه على جهاد الروم ويأمره باعداد مايلزم من الزاد والعلوفة ما يحتاج اليه جيشه قد أجابه الأخير إلى طلبه بالرغم من علم أبى تغلب أن بختيار « لايفى بوعد ولا وعيد ، وأنه يقول ولا يفعل . »[٢]

والواقع أن الذى دفع الصابى إلى المبالغة على النحو المشار اليه هو رغبته فى أن يكسب كلا من الطائع وبختيار مجداً ومفخرة ، والدعاية لهما فى العالم الاسلامى وخاصة فى المشرق . ذلك أن القيام لنجدة المسلمين والجهاد فى سبيل الله ضد البيزنطيين كان أمراً واجباً على الحكام أمام الرأى العام الاسلامى . وإن هذه الطريقة التى كتب بها الصابى الرسالة المذكورة والتى يتضح فيها عنصر المبالغة ، كانت مسألة يفرضها عليه منصبه فى ديوان

---

٢ ـ مسكويه ج ٢ ص ٢٠٤ ، انظر ما سبق عن موقف بختيار من الجهاد ضد الروم ص ١٣٣—١٣٥

الرسائل . وقد أعترف الصابى نفسه بما تقضيه الضرورة من الكتابة بما يخالف الواقع فى بعض الظروف . فعندما سئل فى إحدى المناسبات عما كان يكتبه أجاب « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها ! » (٣)

ومهما يكن من أمر فان الرسالة المذكورة إلى جانب ما تذكره عن رد الفعل الذى قام فى عاصمة الدولة العباسية نتيجة لهجوم البيزنطيين على شمال العراق ، فهى تمدنا كذلك بمعلومات لها أهميتها عن تلك المرحلة من الحروب التى قامت بين البيزنطيين تحت امرة الدمستق مليح والمسلمين فى اقليم الجزيرة . وتساعدنا بهذا الشكل على رسم صورة لما حدث .

ولقد سبق وأشرنا إلى بعض ما جاء فى هذه الرسالة أثناء عرضنا لحالة الخلافة العباسية والحرب بين المسلمين والدمستق ، هذا وقد أضفناهنا إلى نص الرسالة من الحواشى ما يلزم لزيادة ايضاح معناها وتقدير قيمتها التاريخية .

نص الرسالة(٤)

أما بعد فالحمد لله ذى المنه والطول ، والقدرة والحول ، والغلبة والصول ، المنفرد بكبريائه ، المنعم على أوليائه ، المنتقم من اعدائه ، رافع الحق ومعليه وقامع الباطل ومرديه ، ومعز الدين ومديله ومذل الكفر ومذيله ، المنزل رحمته على من جاهد فى طاعته ، المحل سطوته بمن جاهد بمعصيته ، المتكفل بتأييد حزبه حتى يظفر ، وخذلان حربه حتى يدحر ، الذى لا يفوته الهارب ، ولا ينجو منه الموارب ولا يعييه المعضل ولا يعجزه المشكل ،

---

٣ — الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٢١ — ص ٢٢٢

٤ — هذه الرسالة منقولة عن «المختار من رسائل الصابى» ت . شكيب ارسلان . ط لبنان سنة ١٨٩٨ ، ج ١ ص ٤٣ — ص ٥١

ولا تبهظه الأشغال ولا تؤوده الاثقال ، الواحد الذى لا شريك له ، الفرد الذى لاقرين معه ، الغنى المفتقر اليه ، القوى المعتمد عليه . بالغ أمره بلا مؤازر وممضى حكمه بلا مظاهر : ذلك الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين . والحمد لله الذى إختار لنا الاسلام دينا وآثره وأظهره على الدين كله ونصره وشرعه شرعا لاينسخ وعقده عقداً لايفسخ وجعله حقاً لايدحض ، وأمره امرارا لا ينقض ، وقضى له بعز المرافقين وذل المنافقين وظهور المعاضدين وثبور المعاندين ، واصطفى محمداً صلى الله عليه من أكرم المناسب ، واجتباه من أشرف المحاتد والمناصب ، واستخلصه من أسرة هاشم ، وفضله على جميع بنى آدم ، وأيده بالملائكة المقربين وبعثه رسولا إلى العالمين ، فأدى أمانة ربه مخلصا وصدع برسالته مبلغا مخلصا ، وأستنقذ هذه الأمة من الغواية ، وعرفها طرق الهداية وسلك بها سواء المحجة ودعاها إلى الحق بأوضح حجه ، وعدل بها عن عبادة الأوثان إلى طاعة الرحمن وعن دين الشيطان إلى أرشد الاديان فأصبح الناس على التعاطف والائتلاف عاكفين ، وعن التهارج والاختلاف عازفين ، اخوانا فى ذات الله متوازرين وأقرانا فى السعى لرضاه منضافرين ، يرمون اعداءهم عن يد وساعد ويرصدون لهم أرصاد رجل واحد ، نعمة من الله أسبغها عليهم وموهبة أزلها اليهم ، إذ يقول جل جلاله وعظمت كبرياؤه : وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .

والحمد لله الذى برأ أمير المؤمنين من شجرة النبوة الطيب وذرأه من عنصرها الخالص المهذب وحباه بفضيلة الامانة ورداه رداء الكرامة وبوأه منازل أسلافه الطيبين وحاز لهم مواريثهم أجمعين ، وأهله لعظيم ماسترعاه

وأعانه على الاستقلال بما استكفاه ، وافترض طاعته على عباده وخلقه وأنهضه فيهم بتأدية واجبه وحقه ، واختصه بأمد فى الخلافة أطاله ، ومدى فات به نظراءه وأشكاله ، وحبب اليه جواد العدل المنجية وجنبه عوادل الجور المردية . فالدهماء بسيادته ساكنة والرعية برعايته آمنة ، والفتوح فى أيامه متصلة متقاطرة ، والغنائم على المسلمين ببركته دارة متواترة . وقد كنفه الله منذ منحه فضيلة هذه الآلاء ، وحمله أوق هذه الأعباء منك كلأك الله ومن ذويك وولدك وولد أخيك بركن لدولته[٥] لايتزعزع ولا يتضعضع ، وعضد[٦] لايفت فيه ولا توطأ نواحيه ، وعز[٧] لايضام ولايرام ، ومؤيد[٨] لا يعجز ولا ينكل ، وعمدة[٩] لا يضعف ولا يرام ولايفشل . فرايات أمير المؤمنين أين توجهتم بها منصورة وجيوشه أنى صرفتموها ظافرة موفورة . وعوائد الله عليه بكم وعلى أيديكم جارية وفوائده اليه ببركتكم ويمنكم متوافية . وأنت حفظ الله النعمة فيك سنح[١٠] تلك الأرومة[١١] وعظيمها وعميد تلك الجرثومة وزعيمها ، قد أنبت خطيها[١٢] وقوم أغصانها تخريجك ، وتشعبت شعبها من أصولك أحتذت فروعها على

---

٥ ـ يقصد ركن الدولة البويهى .

٦ ـ المشار اليه هو عضد الدولة بن ركن الدولة .

٧ ـ أى عز الدولة بختيار .

٨ ـ يقصد مؤيد الدولة أخو عضد الدولة .

٩ ـ أى عمدة الدولة أخو بختيار .

١٠ ـ السنخ : الاصل .

١١ ـ أصل الشجرة .

١٢ ـ الخط : سيف البحرين وعمان .

تمثيلك وناب عز الدولة أبو منصور ، مولى أمير المؤمنين أمتع الله به عنك حرس الله فيك النعمة وعين شيخه معز الدولة أبي الحسين تولاه الله بأوسع الرحمة ، أتم نيابة وأوفاها ، وخدم أمير المؤمنين في مهمه أوزن خدمة وأشفاها ، لا يذخره نصحا ولا يألوه جهداً في ضبط الثغور وسدها ، ورم الأمور وشدها ، وترتيب الأحراس بمراكزها وتسريب البعوث في مقاصدها ومجاهدة الكفار ومناضلة الأعداء ومدافعتها واصلاح البلاد وعمارتها ورعاية الرعية وسياستها ، بسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويسير تدبيره وهو ثاو لم ينزح ، يتناول المعالى بصائب حزمه ويفترع الهضاب ببعيد همه ، ويصيب الأغراض بصائب سهمه ، ويطبق المفاصل بصواب عزمه . والله يمتع أمير المؤمنين بك وبه ، ويدافع له عنك وعنه ، فقد أرقدتما طرفه بيقظتكما وأرغدتما عيشة بحفظكما ، ووصلتما أيام دعته بدأبكما ، واطلتما زمان راحته بنصبكما ، ولا يخليه فيكما وفي أهليكما من نعمة يعتدها الأولى من نعمة عليه ومنحة يعتدها العظمى من منحة لديه بلطفه وعطفه وجوده ومجده .

وقد عرفت ، أحسن الله الولاية فيك ، ما كان من عظيم الروم (١٣) لما تطاول بواسط مقام عز الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين رعاه الله ، وثقته ببعد المسافة على أبي تغلب فضل الله بن ناصر الدولة عامل أمير المؤمنين ، في الاستصراخ والاستجناد ، وطول الشقة في الاستنصار والاستمداد ، وانتهازه هذه الفرصة واهتباله هذه الغرة ، ومسيرة في العدد الجم من الكفار وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار ، وتوغلة في دار الاسلام

---

١٣ ـ يقصد بعظيم الروم الامبراطور البيزنطى تزيمسكس ، وكان هذا اللفظ عند المسلمين قاصرا في استعماله على الاشارة إلى امبراطور القسطنطينية .

إلى نصيبين ، وإيقاعه ونكايته بمن بها من المسلمين والمعاهدين (١٤) ووردت في أثر ذلك كتب أبي تغلب إلى أمير المؤمنين وإلى عز الدولة مولاه حفظه الله وتولاه ، بشكوى ما نزل به وحل بساحته ، والتماس مدد يزيد في عدته ومنته ، فأهم أمير المؤمنين ما ورد منه طويلا وأقلقه شديدا ، وبعثه على استقدام عز الدولة ، كلأه الله والجيوش التي برسمه ، نصره الله ، فثنى عنانه اليها مسرعا مبادرا ولبى دعوته مجيبا مثابرا ، وعاد إلى مكانه من الخدمة ومقره من الحضرة ، وأمتثل أمر أمير المؤمنين في إنجاد أبي تغلب بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم وبالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد . فتوافت هذه الجموع اليه وتكاثرت لديه ، واتفق والمجردون من الحضرة على استنفاد الوسع والنصرة ، وتوكلوا جميعا على رب العالمين واستنجدوا بشعار أمير المؤمنين وأثروا في الطغاة الكفرة والبغاة الفجرة أثرا بعد أثر ، وظفروا بهم ظفراً بعد ظفر ، إلى أن ختم الله بورود الكتب مقتصا فيها حال غزاة بعض أصحابنا بنواحي موش وطرون (١٥) وأنهم وردوا منها بلاداً قد إغتر أهلها بوعورة مسالكها وخشونة مناهجها وظنوا أن الأمد في بلوغها بعيد والوصول اليها شاق وشديد فأدال الله منهم وجعل الدائرة عليهم ، فملكوا قسراً وقهراً وبولغ فيهم قتلا وأسراً ، وأمتلأت أيدي المسلمين من السبي والرحال والدواب والبغال والأموال والأثقال والغنائم والأنفال .

وانصرفوا غانمين سالمين والحمد لله حمد الشاكرين . وإن عسكراً لأعداء الله خرج مع عدة من عظمائهم المعروفين بالزراورة إلى حصن المسلمين

---

١٤ — للمعاهدين هم أهل الذمة — الاشارة هنا إلى حملة تزيمسكس الأولى على الجزيرة سنة ٩٧٢ م . (هـ) أنظر ما سبق ص ١٢٨ — ١٣١

١٥ — من البلاد الأرمينية .

بدليس وسميرام كان قد شحن بمن يحميه ورتب فيه من الرجال من يكفيه ، فلما نازلوه واستحكم طمعهم فيما حاولوه ، نهد (١٦) لهم جميع أولئك الرجال واستعانوا بالله ذى الجلال ، فرزقهم النصر عليهم وقتلوا عددا يفوت الإحصاء منهم ، ولله الطول ومنه العون .

وتواترت بعد ذلك على أبى تغلب والمنفذين اليه أخبار عسكر ببطن هنزيط ونواحيه ومعبر الفرات وما يليه ، وذكر كثرة عدده وعدده ، وعظم حشده ومدده ، فأنفذ أخاه هبة لله بن ناصر الدولة فى معظم الرجال الذين أمده بهم عز الدولة رعاه الله ، إذ كانوا أقوى تلك الطوائف المجتمعة لديه وأولاها بعائدة النصر والظفر عليه ، وفيمن انضوى اليهم من قبائل الأعراب وصناديدها وفتاك الأكراد وصعاليكها . رساروا بصدور منشرحة وآمال منفسحة ، ووردوا ظاهر آمد يوم الثلاثاء لثلث ليال بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فعرفوا صحة خبر الدمستق لعنه الله ، وحصوله على أفواه الدروب فى خمسين ألف رجل منهم عشرون ألفا من المدججة وذوى المراتب المقدمة . وتلوم (١٧) أصحابنا بها بريحون ، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون ، مرة تقدم بهم الآجال ومرة تحجم بهم الأوجال ، ثم تدانى الفريقان والتقت حلقتا البطان (١٨) فى يوم الجمعة الذى ختم الله به شهر الصيام وحتم فيه بالظهور للإسلام ، فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفر ، وأخذ الأولياء منهم بالخنق

---

١٦ — نهض وقام .

١٧ — تأخر .

١٨ — البطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير — يقال التقت حلقتا البطان للامر ، اذا إشتد .

وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق . فلمـا استعرت الملحمة وعلت الغمغمة ودارت رحى الحرب وإستحر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح وتصافحت بيض الصفاح ، تداعى الأوليـاء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقـدامهم مجدين فى الهزيمة واعتـدو الحشاشات (١٩) لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف واحتكمت فيهم الحتوف ، وأخـذ المسلمون منهم الثـار وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وأسر بعد قتـل ألوف منهم فى المعركة الدمستق رئيس عساكرهم وقائدها ومدبر حروبهم ومرتبها،وما أخذ المسلمون قبله دمستقا ، وذلك من غرائب النعم التى بانت وتوالت فى أيام أمير المؤمنين طلقا ونسقا، وحصل معه المعروف بابن البلنطس وهو طريده (٢٠) فى الرئاسة ورسيله فى السياسة ، وجماعة من البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة ، قد أذلهم الله بوثائق الأسر ،وأذاقهم وبال الـكفر ،وأفاء على أوليائه الصالحين من الخيـل والسواد والأسلحة والأسلاب ، ما ازدادت به قوتهم واشتدت معه شوكتهم .

وإنبسط أهل الثغور فى جميع غلاتهم مستبشرين وانتشروا فى مسالـكهم ومعايشهم آمنين مطمئنين ونفذ كتاب أمير المؤمنين إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة وكتاب عز الدولة أبى منصور تولاه الله اليـه وإلى من كان أنجـده بهم ، بالاحماد على ما عمـلوه سالفا والإرشاد إلى ما يعملونه آنفا ، وأن يتناهوا فى التوثق من عدو الله الدمستق ومن قرينه ابن البلنطس والوجوه المأخوذين معهما المأسورين بأسرها وانفـاذ رؤوس من قتل من الأكابر دون من

---

١٩ ـ الحشاشة : بقية الروح .

٢٠ ـ أى ثانية أو من يليه .

يفوت الاحصاء من الأصاغر ، ففعلوا ذلك ؛ وورد مدينة السلام من هذه الرؤوس العدد الكثير الذى املات به العيون قرةوالصدور شفاء ومسرة. فالحمد لله الذى أنجز وعده وأعزجنده وجعل رايات أمير المؤمنين منصورة وعداته مقهورة ، وهو المسؤول اتمام ما أسدى من عارفة ومنه واسباغ ما أولى من موهبة ونعمة . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ حفظك الله بحظك الوافير منه وتضرب بسهمك الفائز فيه، اذ كان نتيجة تدبير عزالدولة أمتع الله ببقائه الذى فضله منسوب اليك وجمال أثره عائد عليك ، ولتتقدم بإشاعته وإذاعته والتحدث به وإفاضته والكتاب بشرحه إلى الأعمال التى تليك والأطراف المتصلة بنواحيك ، فيشترك الخاص والعام فى الجذل به ويستوى القاصى والدانى فى الابتهاج لها ن شاء الله .

ب - دراسات وتحقيقات متنوعة

الملحق السادس

تحقيق سنة انتصار تزيمسكس على الروس

ان تحقيق السنة التى تغلب فيها الامبراطور تزيمسكس على خطر الروس وأجبر أميرهم فيها على عقد اتفاقية سلسترا ، له أهمية خاصة بالنسبة لتحديد بداية هجوم تزيمسكس على الشرق الأدنى الإسلامى. والملاحظ أن المؤرخين المحدثين اختلفوا فى تحديد هذه السنة . إذ يرى بعضهم أن استسلام سفياتوسلاف وعقد الاتفاقية المذكورة كان فى أواخر شهر يوليو ٩٧٢ م . ومن أصحاب هذا الرأى شلومبرجيه والعرينى وأسد رستم . (١) ولكن ترى جماعة أخرى من الباحثين المحدثين أن هذه الاتفاقية تمت قبل التاريخ المذكور بسنة ، أى فى يوليو ٩٧١ م . ومن أصحاب هذا الرأى دولجر وأستروجورسكى وبرييه . (٢) ومما جعل أستروجورسكى يؤكد هذا التاريخ (٩٧١ م) الذى حدده دولجر ، ما جاء فى الحولية الروسية التى اعتمد عليها فى دراسته ، والتى وصفت أحداث الحرب البيزنطية

---

١ — شلومبرجيه ص ١٢٢ ، ص ٩٤٧ ، السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص ٤٦٣ — ص ٤٦٦ ، أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٤٧ .

2) Ostrogorsky. p 262 n. 2; Brêhier, Vie et Mort de Byzance, pp. 206-09; Dolger. "Die Chronolcgie des grossen Feldzuges des Kaisers Johannes Tzimiscs gegen Russen", Byzantiniche Zeitschrift, Leipzig (1938), 232 ff.

الروسية. ونحن نرى أن هذا التاريخ هو الأرجح . فإنه أصبح من الثابت لدينا الآن ، أن تزيمسكس قد بدأ حملاته على شمال العراق فى خريف ٩٧٢م. وكان من المتعذر أو المستحيل ، إذا سلمنا بالرأى الأول أن ينتقل تزيمسكس فور انتهائه من محاربة الروس،مع ما تطلبهذلك من عناء وامكانيات ، ويسير من وادى الدانوب إلى اقليم الجزيرة العراقية بهذه السرعة لمحاربة المسلمين مع ما اقتضاه ذلك من قوة عسكرية .

الملحق السابع

تحقيق إسم « إقليم أقور »

اطلق بعض الجغرافيين العرب على اقليم الجزيرة الواقع فى شمال البلاد العراقية اسم أقور. فقد عرفه المقدسى باسم « اقليم أقور » ، كما أطلق عليه ياقوت « جزيرة أقور » . (١) وفى محـــاولة تحقيق هذا الاسم ، قـال لى سترانج ، أن أصله غير واضح ، ورجح أنه اسم أطلق على هذه البقاع فى عصور سابقة .(٢) ونرى أن آقور لم يكن إلا تحريفا لإسم « أشور » الذى كان يطلق على هذا الاقليم فى العصور القديمة .

١ — المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم(طثانية ، دى غوية — ليدن، ١٩٠٩ ، ص ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان (ط. بيروت) ج ٢ ص ٢٣٨ ، ج ٦ ص ١٣٤ .

2) Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate (London 1·30), p. 86.

الملحق الثامن

الزراور والزراورة

تردد ذكر هذه الرتبة أو المنصب البيزنطى فى عـدة مواضع من المصادر العربية . فالى جانب اشارة الصابى اليه ، نجـد أن المؤرخ كمال الدين بن العديم قد ذكر ،أثناء التحدث عن شروط الاتفاقية التى وقعت بين البيزنطيين وأمير حلب سنة ٣٥٩ هـ ، ما يأتى : « ومتى جاءت قافلة من الروم ، بقصد حلب يكتب الزروار المقيم فى الطرف إلى الأمير ويخبره بذلك ، لينفـذ من يتسلمها ويوصلها إلى حلب . » (١) كما أشار ابن حوقل إلى الزراوره ، فى تفصيل المناصب والرتب البيزنطية ، وقال عنهم : « وهم كثرة لا يحصون كالقواد اللاحقين بالامراء . » (٢)

وأرى أن الزروار هو نفس المنصب الذى عرف عنـد البيزنطيين باسم « clisurarch » . ونستدل على ذلك بما يوجد من تقارب فى اللفظين وكذلك نوع اختصاص العمل . فإن الـ Clisurarch هو القائد الذى كان يحكم الوحدة الإدارية التى عرفت باسم « Clisura »،وهذا الاسم يونانى الأصل ومعناه الدرب أو الممر فى الجبل . وقد انتشر استعمال اسم Clisurarch فى العهد البيزنطى، بمعنى حاكم احدى الولايات الحصينة الواقعة على الحدود(٣)،وكثيرا

---

١ ــ كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (ت . الدهان) ج ١ ص ١٦٨ .

٢ ــ ابن حوقل ج ١ ص ١٩٥ – ص ١٩٦ .

٣ ــ أنظر ماسبق ص ١٠

ما كان هـذا الحاكم يشترك فى عمليـات الهجوم التى يقـوم بهـا الجيش البيزنطى .

الملحق التاسع

الطراخنة

قال المؤرخ الفرنسى كانار أن الطراخنة جمع « طرخان » وهـذا لقب تركى ويذكر هذا المؤرخ أن الصابى قد ألحقه بما سبقه من الألقاب البيزنطية من أجل الجناس . (١) ولـكن لا أميل للأخذ بهذا الرأى ، نظرا لما عرف عن العرب من الدقة فى معرفة الرتب والمنـاصب البيزنطية والتمييز بينها . وأعتقد أن لفظ « الطراخنة » ما هو إلا تحريف لإحدى الرتب البيزنطية العسكرية التى ظهر حاملوها أثناء الحملات البيزنطية على الشرق ونرجح أن الطراخنة هم « الطراخمة » الذين ذكرهم ابن حوقل أثنـاء حديثه عن الرتب والمناصب البيزنطية . وقد جعل ترتيبهم بعـد الزراورة . ومما قاله فى ذلك « ... الطراخمة وهم التنـاء وأرباب النعم من أهـل القسطنطينية ، ومنهم يكون الارتفاع إلى الزرورة والبطرقة . » (٢) كما أرجح أن هؤلاء الطراخنة أو الطراخمة ، هم قادة كتائب جيـوش « الثيمات » أو الأجنـاد الذين يعرفون باسم Turmarchs ، وكان هؤلاء من القادة العسكريين الذين اشتركوا فى الحملات البيزنطية على الشرق الأسلامى . (٣)

---

١ ـ كانار ص ٨٤٢ ، حاشية ٢٦١ .

٢ — ابن حوقل ج ١٩٥ ص ١٩٦ .

٣ — بشأن الـ Turmarchs أنظر ما سبق ص ١٣

الملحق العاشر

تحقيق رواية المؤرخ الارمينى متى الرهوى عن « أميرة آمد الحمدانية »

كانت هذه الأميرة هى أخت « حمـدان » بن ناصر الدولة ، حيث أنه لا يوجد فى هذا الوقت من الامراء الحمدانيين من يعرف باسم « حمدون » كما ذكر متى الرهوى . والمـرجح أن هـذا المؤرخ اختلط عليه الأمـر بين حمدان وحمدون الجد الأكبر للحمدانيين ـ والأميرة الحمدانية التى ظهراسمها فى عصر هجوم تزيمسكس هى جميـلة ، إبنـة ناصر الدولة وأخت كل من حمدان وأبى تغلب أمير الموصل . ويظهر ممـا جاءت به المصـادر العربية ، أن هذه الأميرة كان لهـا نشاطها فى الأمور السياسية . فيذكر ابن الأزرق الفارقى أنها قامت بالاعداد للدفاع عن ميافارقين سنة ٣٦٢ هـ . ولـكن لا يوجد فى هذه المصادر مايشير إلى أنها كانت فى آمد وقت هجوم تزيمسكس على المدينة . (١) هذا ومن الصعب أن نسلم بما ذكره متى الرهوى عن وجود عـلاقة غرامية قديمة بين الأميرة وتزيمسكس ، اذ لم تـكن التقاليد العربية أو الشريعة الاسلامية لتسمح بقيـام مثل تلك العلاقة . ونحن نميل للاعتقاد بأن هذه الرواية كانت من نسيج الخيال ، وأنها كانت من قبل الروايات الخيالية التى ألفهـا الصليبيون بعد مجيئهم إلى الشرق منـذ أخريات القرن الحادى عشر ، والتى أدعت وقوع أميرات مسلمات فى هوى فرسانهم .

---

١ ـــ متى الرهوى ص ١٢ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٤ ، مسكويه ج ٢ ص ٢٥٤، ص ٢٥٥ ؛ ابن الأزرق الفارقى : تاريخ ميا فارقين .

الملحق الحادى عشر

تحقيق اسم مدينة بلنياس

مدينة بلنيـاس أو Balanée التى جاءت فى خطـاب الامبراطور تزيمسكاس ، هى مدينة Balanaea المعروفة فى العصـور القديمة . وتقع هذه المدينة على ساحل البحر الأبيض فى شمال الشام بين مراقية وجبلة . وقد عرفها عدد من الـكتاب العرب فى العصور الوسطى باسم بلنياس، أمثال الجغرافيين إبن حـوقل والمقدسى وياقوت الحموى . وقـد قال عنهـا الاخير أنها : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص » كما قال أنها سميت باسم بلنياس صاحب كتاب الطلسمات (Appolonios) (١)

ولـكن عرفت بلنياس عند البعض الآخر من العرب باسم بانياس ، مثل ابن الشحنة ويحيى الأنطـاكى (٢) وكان ذلك تحريفـا للاسم القـديم المعروف . وقد اتبع هذه التسمية الأخيرة (بانياس) بعض المؤرخين المحدثين مثـل جروسيه وكاناار : (٣) وفى هـذه الحالة يجب التفرقة بين

---

١ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان (ط . بيروت ١٩٥٧) ج ٤ ص ٤٨٩ ، ابن حوقل ج ١ ص ١٦٥ ، المقدسى ص ١٥٤ .

٢ - ابن الشحنة الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب (بيروت ، ١٩٠٩ ص ٢١٧ ، ص ٢٦٧ ، يحيى الأنطاكى ص ١٤٦ .

٣ ـ انظر خريطة بلاد الشام للدرجة بـكتاب كانار مقابل ص ٢٤٠ ، وكذلك خريطة شمـال الشـام الملحقة بآخر كتاب جروسيه فى تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ارجع كذلك إلى :

R. Dussaud, Topographie Historique de Syrie Antique et Mèdievale. (paris, 1927)' pp. 127 – 29; F. Buhl, "Baniyas", Encyclopaedie de l'Islam, vol. I, p. 664.

هذه المدينة والمدينة الأخرى الشهيرة المعروفة بمدينة بانياس التى تقع إلى الجنوب الغربى من دمشق ، وهى التى عرفت منذ العصور القديمة باسم (Paneas) . ونرى أنه من الأصح ، ومنعا للبس ، أن نطلق على مدينة Balanea الاسم المستعمل لدى الطائفة الأولى من الكتاب العرب وهو بلنياس .

المصـــادر والمراجـــع

أولا

المصادر العربية

ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبى الكرم)
الكامل فى التاريخ . ط : أولى ، المطبعة الأزهرية المصرية ، ج ٨
١٣٠١ هـ .

ابراهيم الصابى : (أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابى)
المختار من رسائل الصابى . ج ١ نشر وتعليق شكيب أرسلان .
ط . لبنان ١٨٩٨ .

الأدريسى : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى)
نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان . روما ١٥٩٢ .

ابن الأزرق الفارقى : (أحمد بن يوسف بن على)
تاريخ ميافارقين . نشر القسم الثانى منه بدوى عبد اللطيف عوض تحت اسم : تاريخ الفارقى — القاهرة ١٩٥٩ . والقسم الأول من الكتاب لا يزال على هيئة مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم Or 5803 - وتوجد نسخة «ميكرو فيلم» كاملة للمخطوط محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية ، القاهرة ، باسم ملخص تاريخ ميافارقين ، رقم ١٢٤٩ .

الأصفهانى : (أبو الفرج)
كتاب الاغانى — ٢١ جزءا — القاهرة ، ١٩٣٧ — ١٩٣٨ .

ابن أبى أصيبعة : (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرى)

عيون الانباء فى طبقات الاطبـاء . جزآن — القاهرة ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ هـ .

اوتيخا : (سعيد بن البطريق)
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق — بيروت ، ١٩٠٩ .

الثعالبى : (أبو منصور عبد الملك)

يتيمة الدهر - أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

ابن الجوزى : (عبد الرحمن بن على)

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم الهند ١٣٥٩ هـ .

ابن حوقل : (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى)
كتاب صورة الأرض ، جزآن . ط . ثانية . بريل ، ١٩٣٨ — ١٩٣٩ م .

ابن خرداذبه : (أبو القاسم عبيد بن عبد الله)
كتاب المسالك والممالك . ط . دى غوية — ليدن ١٨٨٩

ابن خلدون : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى) العبر وديوان المبتدأ والخبر - ٧ أجزاء - القاهرة ، ١٢٨٣ هـ .

ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى) وفيات الأعيان ، جزءان - بولاق ١٢٨٣ هـ .

ابن زولاق : (أبو محمد الحسن بن ابراهيم)
العيون الدعج فى حلى بنى طغج (نشره ابن سعد المغربى فى كتاب

المغرب فى حلى المغرب) ليدن ، ١٨٩٨ - ١٨٩٩ .

سبط الجوزى : (أبو المظفر بن قيزوغلى سبط الجوزى)
مرآة الزمان - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية - رقم ٥٥١ تاريخ .

السبكى (تاج الدين) : طبقات الشافعية الكبرى ط . أولى - المطبعة الحسينيه .

ابن الشحنة : (أبو الفضل محمد)
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب - . ط . بيروت ، ١٩٠٩ .

ابن شداد : (محمد بن ابراهيم بن شداد بن خليفة)
الأعلاق الخطيرة فى تاريخ الشام والجزيرة . مخطوط.صورة شمسية بكلية الآداب ، جامعة الاسكندريه ، رقم ٤٥ م

الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الأمم والملوك - ط . دى غوية - ليدن ، ١٨٨١ م

ابن ظافر : (جمال الدين أبو الحسن على بن ظافر)
أخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب المصرية ، صورة شمسية رقم (٨٩٠ تاريخ) .

ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)
زبدة الحلب فى تاريخ حلب . جزءان . نشرها سامى الدهان . دمشق ، ١٩٥١ .

ابن العبرى : (غويغرريوس الملطى)
تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٩٥٨ م .

عريب بن سعد : (القرطبي)
صلة تاريخ الطبرى ــ ط . دى غوية . ليدن ، ١٨٩٧ م .

ابن العميد : (الشيخ المكين جرجس بن العميد)
تاريخ المسلمين - ١٦٢٥ م .

العينى : (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ــ مخطوط مصور بدار الكتب
المصرية ــ رقم ١٥٨٤ تاريخ

ابو الفدا : (أسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه)
المختصر فى أخبار البشر . ٤ أجزاء القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

ابن القلانسى : (أبو يعلى حمزة)
ذيل تاريخ دمشق (مصحوب بمقتطفات من تواريخ الفارقى
وسبط بن الجوزى والذهبى) بيروت ، ١٩٠٨ م .

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى)
البداية والنهاية ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة .

المتنبى : (أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى)
ديوان المتنبى د نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقى . القاهرة ،
١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .

مجموعة الوثائق الفاطمية : المجلد الأول تحقيق ونشر جمال الدين الشيال ـ
ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٦٥ .

أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ط . دار الكتب
المصرية بالقاهرة ــ ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .

المسعودى : (أبو الحسن على)
كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر . جزءان — القاهرة ١٣٦٤ هـ .
كتاب التنبيه والإشراف . ط . دى غوية - ليدن ، ١٨٩٧ م .

مسكويه : (أبو على أحمد بن محمد)
كتاب تجارب الأمم ـ جزءان . نشره هـ . ف . أميدروز
القاهرة ١٣٣٢ - ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٥ م .

المقدسى : (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف بالبشارى) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ط . بريل ، ١٩٠٩ م .

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)
أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشره وحققه جمال الدين الشيال . القاهرة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م .
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ جزءان . ط . مصر ١٣٢٤هـ .

ابن ميسر : (محمد بن على بن يوسف)
تاريخ مصر ـ طبعة هنرى ماسيه . القاهرة ١٩١٩ .

ناصر خسرو :
سفر نامه — نقله إلى العربية وعلق عليه يحيى الخشاب . ط . أولى.
القاهرة ١٩٤٥ م .

ابن نباته : (أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة الفارقي)
ديوان خطب ابن نباته . ط بيروت ١٣١١ هـ .

النعمان : (أبو حنيفة المغربى)
المجالس والمسايرات ـ ٣ أجزاء . مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين النويرى)
نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ .

هلال الصابى : (أبو الحسن بن أبى إسحق ابراهيم الكاتب)
تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ـ نشرة ه . ف . أمدروز ، بيروت ١٩٠٤ .

ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى)
معجم البلدان ـ ط . بيروت .

يحيى بن سعيد الانطاكى :
صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت ، ١٩٠٩ .

ثانيا

المراجع العربية الحديثة

ابراهيم أحمد العدوى :
الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ـ القاهرة ، ١٩٥١ .
الامويون والبيزنطيون ـ القاهرة ، ١٩٦٣ .

أرنولد : (توماس)
الدعوة إلى الإسلام . عربة حسن إبراهيم حسن وآخرون .
القاهرة ، ١٩٤٧ .

أسد رستم :
الروم . جزءان . بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

السيد الباز العريني :
الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) القاهرة ، ١٩٦٠ .

أومان :
الامبراطورية البيزنطية . ترجمة مصطفى طه بدر . القاهرة ١٩٦٠

بارتولد (ف)
تاريخ الحضارة الاسلاميه . نقله إلى العربية حمزة طاهر . القاهرة
١٩٤٧ .

بروكلمان (كارل) :
الامبراطورية الاسلامية وانحلالها . نقله إلى العربية نبيه أمين
فارس ومنير البعلبكي . بيروت ١٩٤٩

بينز (نورمان) :
الامبراطورية البيزنطية . تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد .
القاهرة ، ١٩٥٠ .

جمال الدين الشيال :
أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي . القاهرة ، ١٩٦٥ .

جرو نيباوم (جوستاف فون) :

حضارة الإســلام . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة ١٩٥٦ .

جوزيف نسيم يوسف :

العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاول . الاسكندرية ١٩٦٣ .

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . ٣ اجزاء ط . سادسة القاهرة ، ١٩٦٢ .

تاريخ الدولة الفاطمية . ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٥٨ .

المعز لدين الله الفــاطمى (بالاشتراك مــع طه أحمد شرف) القاهرة ، ١٩٤٧ .

حسن الباشا :

الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار . القاهرة ، ١٩٥٧

حسن حبشى :

الحرب الصليبية الأولى . ط . ثانية : القاهرة ، ١٥٩٨

ديفز (هـ . و .) :

أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة عبد الحميد حمدى محمود . الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

رنسيمان (ستيفن) :

الحضارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى على . القاهرة ، ١٩٦١ .

رينو (بول) :

تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط : ترجمة شكيب أرسلان . القاهرة ، ١٣٥٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور :

أوربا العصور الوسطى - جزءان - ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٦٢

الحركة الصليبية — جزءان . القاهرة ١٩٥٣ .

قبرس والحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥٧ .

سيده اسماعيل كاشف :

مصر فى عصر الأخشيديين . القاهرة ، ١٩٥٠

عبد المنعم ماجد :

التاريخ السياسى للدولة العربية . ٣ أجزاء : القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧

الحاكم بأمر الله . القاهرة ، ١٩٥٩ .

نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . جزءان . القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ .

على ابراهيم حسن :

تاريخ جوهر الصقلى . القاهرة ١٩٣٣ .

عمر كمال توفيق :
الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة .
الاسكندرية ، ١٩٥٩ .

تاريخ الامبراطورية البيزنطى . لاسكندرية ، ١٩٦٧ .
مملكة بيت المقدس الصليبية . الاسكندرية ، ١٩٥٨

فشر (ه . ا . ل) :
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . جزءان . ترجمة محمد مصطفى
زيادة وآخرين . القاهرة ١٥٠ — ١٩٥٧ .

لانجر (وليام) :
موسوعة تاريخ ٣ أجزاء . أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة
القاهرة ١٩٩ - ١٩٦٢ .

محمد مصطفى زيادة
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة . القاهرة
١٩٦١ .

محمد جمال سرور :
النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق . القاهرة ١٩٦١
مصر فى عهد الدولة الفاطمية الفاطمية . القاهرة ١٩٦٠

محمد شديد :
الجهاد فى الاسلام . القاهرة

مصطفى الشكعة :
سيف الدولة الحمدانى . القاهرة ، ١٩٦٩ .

ثالثـــا

المصادر والمراجع غير العربية

Anastasievitch. Die Zahl der Araberzuge des Tzimiscés, B.Z. XXX (1929 - 30), p. 400 - 05.

Adam, P. Princesses byzantines. Paris, 1893.

Adonz, N. « L'age et l'origine de l'empereur Basile I (867-86) », Byzantion IX (1934), 223-60.

Amari, M. Storia dei Musulmani di Sicilia. Vol. I - III. Florence, 1854 - 27. Ed. Nallino, C.A. Vols I - III Catania, 1933-37.

Andréadès, A. « De la population de Constantinople sous les empereurs Byzantins », Metron 1 (1920)

Atiya, A. S. The Crusade in the Later Middle Ages. London 1938.

Bach, E. « Lois agraires byzantines du Xe siecle », Classica et Medievalia, V (1942), 70 - 91.

Barthold. V. The Transacionts of Oriental College. I (1925).

Baynes, N.H. « Byzanrine Civilization » History X (1926) 289-99.

——— The Byzantine Empire. New-York & London, 1926.

Becker, C. « The Expansion of the Saracens the East », C. M.H., II (1913), 329 - 64.

Bikelas, D. La Grece byzantine et Moderne. Paris: 1893.

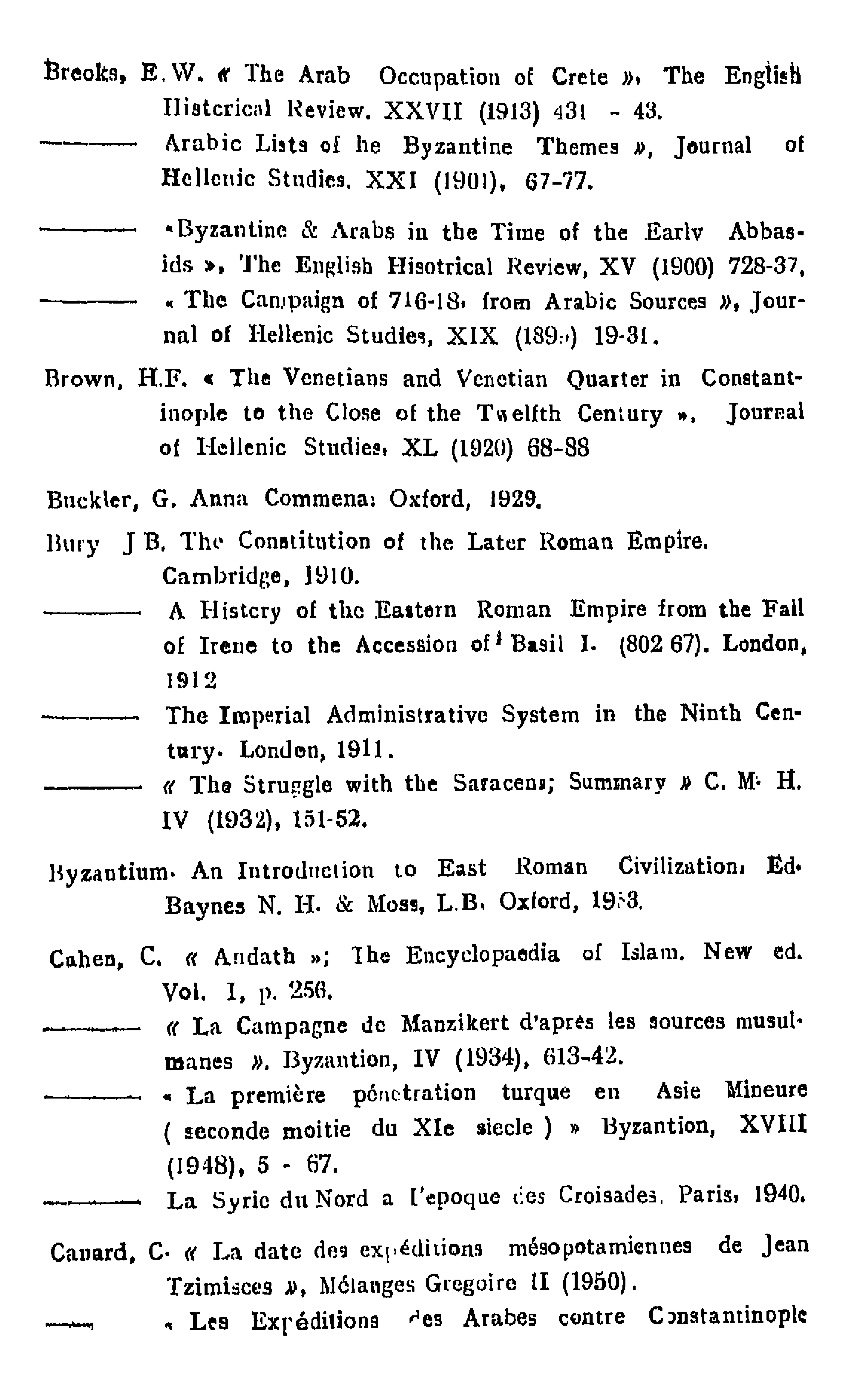
——— Seven Essays on Chrisitan Greece Trans. John, Marquess of Bute. London, 1890.

Bratianu, G. I. Etudes byzantines d'histoire économiques et sociale. Paris, 1938.

Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades. Paris, 5th ed., 1928.

——— « The Greek Church: Its Relations with the West up to 1054 ». C. M. H., IV (1923) 246-73.

——— Le Monde byzantines — 3 volumes. Paris, 1947-50.



Breoks, E.W. « The Arab Occupation of Crete », The English Histcrical Review. XXVII (1913) 431 - 43.

——— Arabic Lists of he Byzantine Themes », Journal of Hellenic Studies. XXI (1901), 67-77.

——— «Byzantine & Arabs in the Time of the Earlv Abbasids », The English Hisotrical Review, XV (1900) 728-37,

——— « The Campaign of 716-18, from Arabic Sources », Journal of Hellenic Studies, XIX (189?) 19-31.

Brown, H.F. « The Venetians and Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century ». Journal of Hellenic Studies, XL (1920) 68-88

Buckler, G. Anna Commena: Oxford, 1929.

Bury J B. The Constitution of the Later Roman Empire. Cambridge, 1910.

——— A Histcry of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I. (802 67). London, 1912

——— The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London, 1911.

——— « The Struggle with the Saracens; Summary » C. M. H. IV (1932), 151-52.

Byzantium. An Introduction to East Roman Civilization, Ed. Baynes N. H. & Moss, L.B. Oxford, 1953.

Cahen, C. « Andath »; The Encyclopaedia of Islam. New ed. Vol. I, p. 256.

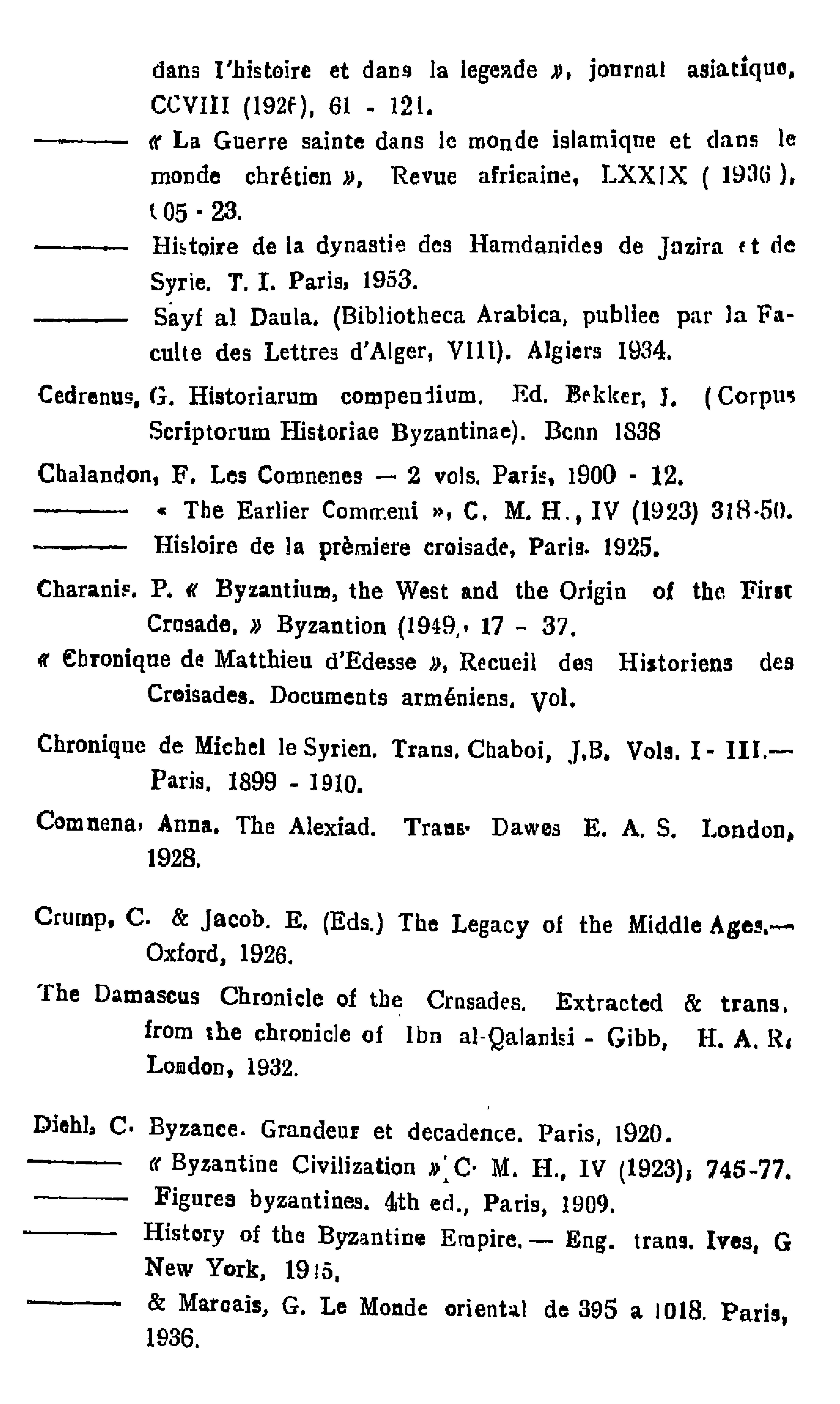
——— « La Campagne de Manzikert d'apres les sources musulmanes ». Byzantion, IV (1934), 613-42.

——— « La première pénetration turque en Asie Mineure (seconde moitie du XIe siecle) » Byzantion, XVIII (1948), 5 - 67.

——— La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades. Paris, 1940.

Canard, C. « La date des expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimisces », Mélanges Gregoire II (1950).

——— « Les Expéditions des Arabes contre Constantinople



dans l'histoire et dans la legeade », journal asiatique, CCVIII (1926), 61 - 121.

——— « La Guerre sainte dans le monde islamique et dans le monde chrétien », Revue africaine, LXXIX (1936), 105 - 23.

——— Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie. T. I. Paris, 1953.

——— Sayf al Daula. (Bibliotheca Arabica, publiee par la Faculte des Lettres d'Alger, VIII). Algiers 1934.

Cedrenus, G. Historiarum compendium. Ed. Bekker, I. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae). Bonn 1838

Chalandon, F. Les Comnenes — 2 vols. Paris, 1900 - 12.

——— « The Earlier Commeni », C. M. H., IV (1923) 318-50.

——— Hisloire de la prèmiere croisade, Paris. 1925.

Charanis. P. « Byzantium, the West and the Origin of the First Crusade, » Byzantion (1949), 17 - 37.

« Chronique de Matthieu d'Edesse », Recueil des Historiens des Croisades. Documents arméniens, vol.

Chronique de Michel le Syrien. Trans. Chaboi, J.B. Vols. I - III.— Paris. 1899 - 1910.

Comnena, Anna. The Alexiad. Trans. Dawes E. A. S. London, 1928.

Crump, C. & Jacob. E. (Eds.) The Legacy of the Middle Ages.— Oxford, 1926.

The Damascus Chronicle of the Crusades. Extracted & trans. from the chronicle of Ibn al-Qalanisi - Gibb, H. A. R. London, 1932.

Diehl, C. Byzance. Grandeur et decadence. Paris, 1920.

——— « Byzantine Civilization », C. M. H., IV (1923), 745-77.

——— Figures byzantines. 4th ed., Paris, 1909.

——— History of the Byzantine Empire.— Eng. trans. Ives, G New York, 1915.

——— & Marcais, G. Le Monde oriental de 395 a 1018. Paris, 1936.

——— « L'Origine du regime des thèmes dans l'empire byzan-tin », Etudes byzantines Paris, 1905.

Dölger, F. Chronologie des gr. Feldzuges des Joh. Tzimiskes gegen die Russen, BZ, XXXII, 275 - 292.

Dussaud, R. Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale Paris, 1927.

Dvornik, F. The Making of Central and Eastern Europe. London. 1949.

Finlay, G. History of the Byzantine Empire from DCXIV to MLVII — 2nd ed., Loudon, 1856.

——— A History of Greece. Ed. Tozer, H.F. Oxfo d, 18 7,

Gibb, H.A.R. Mohammedanism, London, 1957.

Gibbon, F. The History of the Declin & Fall of the Roman Empire, Ed. Bury. J. B. 7 vols. London, 1870 - 1902.

Grousset, R. L'Empire du Levant. Histoire de la question d'Orient. Paris, 1949.

——— Histoire de l'Arménie des origines a 1071. Paris. 1947.

——— Histoire des Croisades, 3 vols. Paris, 1934 - 36.

Grunebaum, von G.F. Medieval Islam. Chicago, 1946.

Heyd, W. Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1885. Reprint, 1936.

Heer, F. The Medieval World. Europe from 1100 to 1350. trans. from German by Sondheimer. London, 1962.

Hill. G A. A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge, 1948.

Histoire de l'église depuis les origines jusqu'a nos jours. Ed. Fliche, A. & Martin, V. Paris 1936.

Hitti, P. History of the Arabs. — 3rd ed. London, 1946.

Hussey, J. The Byzantine World. London, 1955.

Kugler, B. Geschichte der Kreuzzuge. 2nd ed. Berlin 1891.

La Monte J.L. « To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin Crusading States ? » Byzantion VII (1932), 253-64.

——— The World of the Middle Ages. New-York, 1949.

Laurent, J. L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquete arabe jusqu'en 886. (Bibliotheque des Ecoles Francaises d'Athènes et de Rome, CXVII). Paris, 1919.

——— Byzance et les Turcs Seljoucides dans l'Asie occidentale juqu'en 1081. (Annales de l'Est publiees par la Facult é des Lettres de l'Univer ité de Nancy, XXVII - XXVIII). Paris, 1913 - 14.

——— « Byzance et l'origine du Sultanat de Roum, » Me'anges Charles Diehl » : Etudes sur l'histoire et l'art de Byzance. Paris, 1930.

Leo the Deacon. Historia. Ed. Hasius, C. B (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae). Bonn, 1828.

Le Strange, G. The Lands of the Eastern Caliphate. London, 1930.

——— Palestine Under the Muslims. London, 1896

Lewis, A. R. Naval Power & Trade in the Mediterranean A. D. 500 - 1100. Princeton, 1951.

Lewis, B. The Origin of Ismailism, Cambridge, 1940.

Loewe, H. M. « The Saljugs », C. M. H., IV (1923) 299-317,836

Nickles, H, G. « Tha Continuato Theopharis », transactions of the American Philological Association, LXVIII (1937), 221 - 27.

Oman, C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2nd ed. London, 1924.

Ostrogorsky, G. History ef the Byzantine State. Eng. trans. Hussey, J. Oxford, 1956.

Rambaud, A. L'Empire grec au dixième siecle. Constantine Porphyrogénète. Paris. 1870.

Ramsay, W.M. « The War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor ». Contemporary Review, XC (1905), 1 - 15.

Rosenthal, E. I. J. Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Runciman, S. Byzantine Civilization. London, 1936.
——— A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1951-55.
——— The Emperor Romanus Lecapenus & His Reign. A Study of Tenth Century Byzantium. Cambridge, 1929.
——— A History of the First Bulgarian Empire London, 1930.

Schlumbergér. G. Byzance et Croisades. Paris, 1927.
——— Un Empereur byzantin au dixième siècle. Nicephore Phocas. Paris, 1890.
——— L'Epopèe byzantine a la fin du dixième siecle. 3 vols Paris, 1896-1905.

Setton. K. & Baldwin W. A History of the Crusades. Vol. I, Philadelphia, 1958.

Taeschner, Fr. « Ayyar » The Encyclopaedia of Islam. New ed. Vol. I, p. 794.

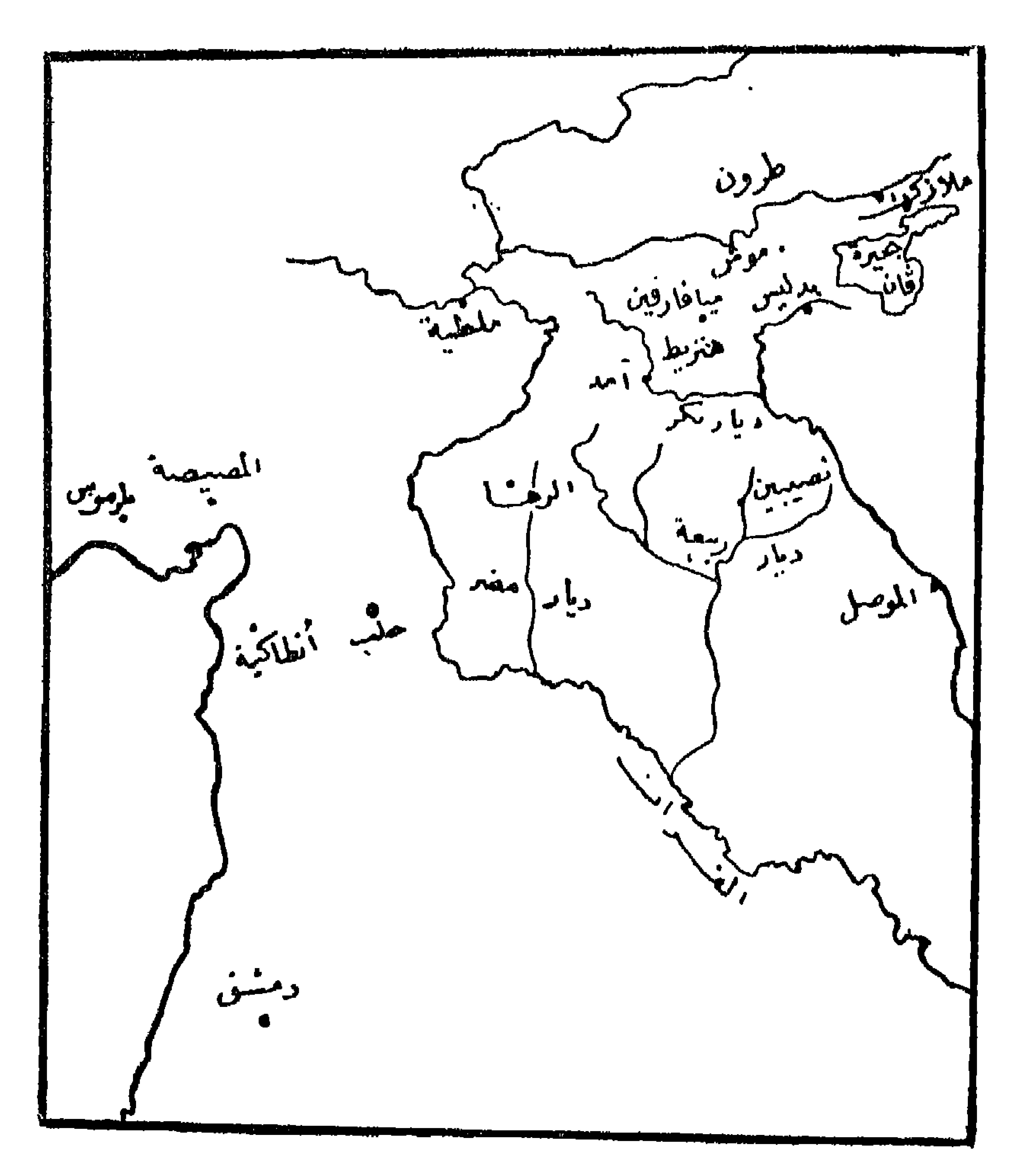
Thompson, J. W. An Economic & Social History of the Middle Ages. New York & London, 1928.

Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Madison, 1952.

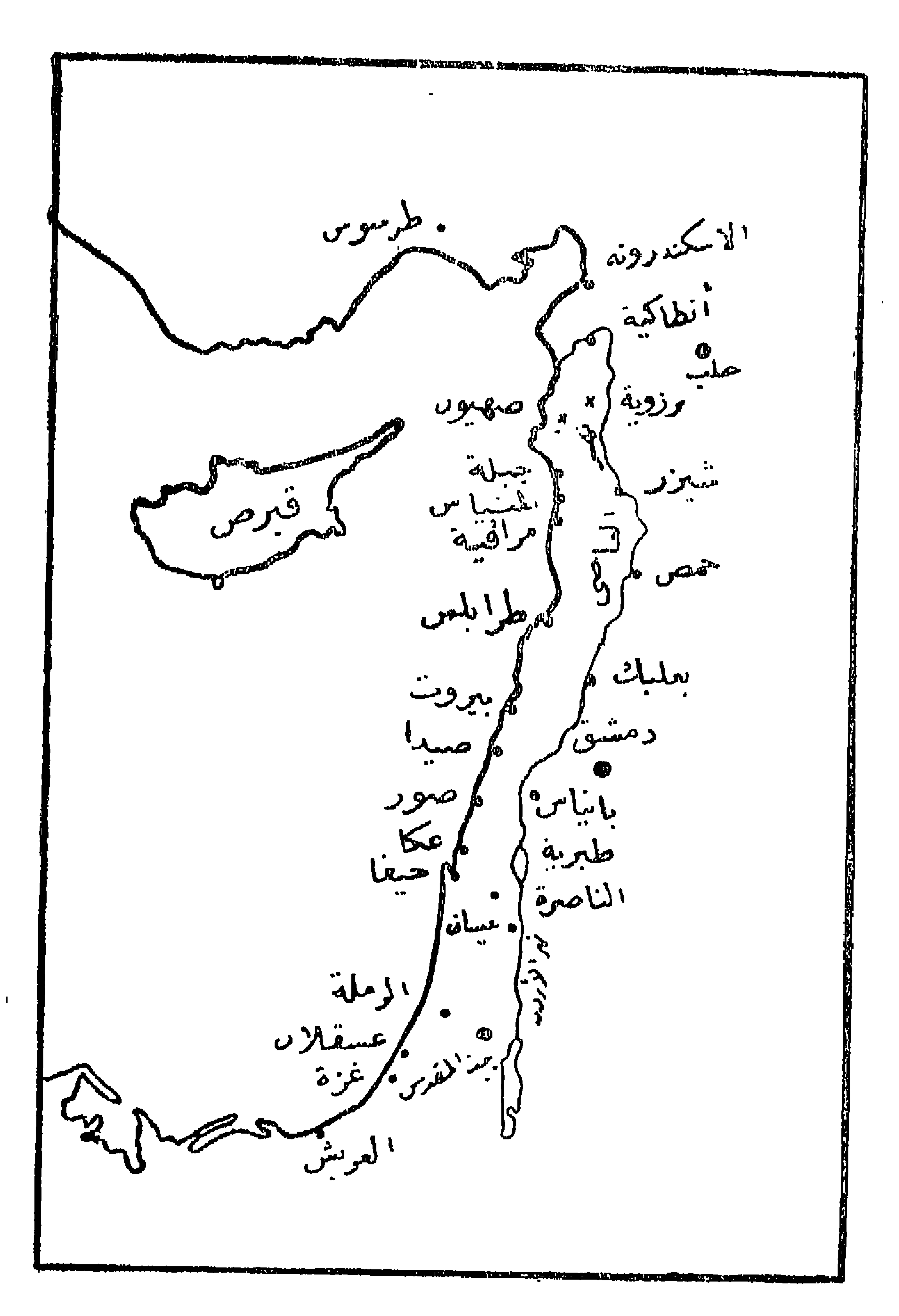
William of Tyre. A History of Deeds Done Beyond the Sea. Eng. trans. Babcock, E. A. & Krey, A. C. 2 vols. New York, 1946.

Villey, N. La Croisade; Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris, 1942.

Yewdale, R.B. Bohemond I, Prince of Antioch. Princeton, 1924.



حملات تزيمسكس على العراق



حملة تزيمسكس على الشام

تصويب

جازت على المؤلف أثناء مراجعة الكتاب بضعة أخطاء مطبعية معظمها لا يخفى على القارىء وسوف نشير هنا إلى أهمها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٧	Caballari	Clisura
١٣	١٤	Caballri	Caballari
٨٣	١٥	الفاطمين	الفاطميين
٩٣	١٠	حلا	خلا

دار الشرق الأوسط للطباعة والنشر
١ ميدان عرابي بالإسكندرية تليفون ٣٢٨٧١

١٠١١٦٢ ٥٠٦ م

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف -- ١١١٩ كورنيش النيل
فرع الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول — ٢ ميدان التحرير (المنشية)